هموم شخصية

للكاتب اليابانى

أوى كنزابورو

نوبل ١٩٩٤

ترجمة

صبرى الفضل

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية :

Personal Matter

By

Oë Kenzaburo

نـوبـل ١٩٩٤

الغلاف للفنان : حلمى التونى.

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا

إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا.

هناك تقليد فى اليابان يقضى بالا يؤخذ كاتب بجدية إذا كان مازال طالبا . ولعل الاستثناء الوحيد كان "اوى كنزابورو" ففى عام ١٩٥٨ فاز اوى ، وهو طالب فى قسم الأدب الفرنسى بجامعة طوكيو بجائزة اكوتاجاوا Akutagawa عن روايته القصيرة ـ الغنيمة The Catch ـ (عن طفل يابانى فى العاشرة من عمره يخدعه طيار زنجى هبط من الطائرة على قريته) . واعلن النقاد وقتها انه الكاتب الواعد من بعد "يوكيو ميشيما" .

إن اعمال اوى باهرة متالقة . حيث اخذت شهرته فى الصعود بسرعة ، حتى أن مجموعة اعماله الكاملة التى طبعت فى الستينيات قد بيع منها تسعمائة الف نسخة . ومفتاح شعبيته يكمن فى حساسيته التى تُميز جيل ما بعد الحرب بصفة خاصة . وتعود مكانته التى اعتلاها إلى أنه زود ذلك الجيل ببطل فريد من نوعه .

فى اليوم الذى اعلن فيه إمبراطور اليابان الاستسلام فى اغسطس ١٩٤٥ ، كان اوى طفلاً فى العاشرة من عمره يعيش فى قرية جبلية . وحدث له ولجيله كله ، أن جردهم هذا الإعلان الصاعق من الشعور بالتقديس لذلك الرمز القائد . وكانت تُجربة مريرة محيرة ، فالقيمة التى تعلموها كاطفال تحطمت امامهم فى لحظة خاطفة .

ويروى هو هذا الحدث المصيرى قائلا : "جلس الكبار حول اجهزة الراديو يبكون . وتجمع الأطفال خارج منازلهم فى الطريق المغبر . واخذوا يتهامسون بارتباكهم وحيرتهم . لقد كنا مضطربين مشوشين محبطين لأن الامبراطور قد تكلم بصوت بشرى لا يختلف عن صوت أى آدمى . ولم يفهم احد منا ما كان يقوله ، لكننا جميعا قد سمعنا صوته .. بل استطاع احد اصدقائى ان يقلده بمهارة . واخذنا نضحك ، ونحن نحيط به ، طفل فى الثانية عشرة من عمره فى بنطلونه القصير المتسخ الذى تكلم بصوت الامبراطور . وبعدها بدقيقة واحدة شعرنا بالخوف . ونظر بعضنا للبعض ولم ينبس احد ببنت شفة .

كيف يمكننا أن نصدق أن هذه الحضرة العلية المهيبة المقدسة لمثل هذه القوة الجليلة قد اصبحت كيانا بشرياً عاديا فى يوم صيف مشهود ؟"

تساؤل عفوى بسيط كان يحير اوى وجيله . فاثناء فترة الحرب كان جزء من البرنامج اليومى فى اية مدرسة يابانية مكرساً لابتهال مهيب رهيب ، حيث ينادى مدرس علم الأخلاق الأولاد ويطلب منهم الوقوف فى مقدمة حجرة الدراسة ويسالهم فرداً فرداً ماذا يفعلون اذا امرهم الامبراطور ان يموتوا . فكان كل طفل منهم يجيب وهو يرتعد من الخوف : "سوف اموت ، ياسيدى ، سوف انبطح ارضا واموت" !.

وكان الطلاب يمرون على صورة الامبراطور وعيونهم تجاه الأرض ، خوفا من انفجار مقلات عيونهم اذا نظروا إلى وجه الجلالة الامبراطورية المقدسة . وكان "اوى كنزابورو" يعاوده حلم غريب مرعب مراراً وتكراراً يرى فيه الامبراطور وهو ينقض هابطاً من السماء مثل النسر وجسمه مغطى بالريش الأبيض .

والبطل الرمزى لروايات اوى الذى يكبر قليلاً فى كل كتاب ويزداد إدراكا لمحنته ، قد جرد من موروثه الأخلاقى . فالقيم التى

كانت تنظم الحياة فى العالم الذى كان يعرفه كطفل قد تناثرت فُتاتاً فى نهاية الحرب على نحو مهلك لا يقاوم . وفوهة البركان التى ظلت مفتوحة لا تزال قائمة على الرغم من وجود حشوة مستوردة مثل الديمقراطية . إنه خواء الحياة ووهنها فى مثل هذا العالم ، والغياب المخيف للاستمرارية الذى يدفع بطل أوى وراء تخوم كل ماهو جدير بالاحترام إلى قفار الجنس والعنف والتعصب السياسى . مثل هاكلبيرى فين ـ كتاب أوى المفضل ـ يدفعه عنوة المرة تلو الأخرى إلى "أن يهرول مرتحلاً فى عجلة فائقة إلى تلك القفار الخاوية" !

إنه مغامر يبحث عن الخطر ، الذى يبدو انه الحل الوحيد للخواء المميت فى العودة للوطن . وكثيراً ما كان البطل يجد ما يبحث عنه فيحطمه . وقد أثار اسلوب أوى كثيرا من الجدل والخلاف فى اليابان . فأسلوبه يطا خطاً رفيعاً بين التمرد البارع والجنوح المجرد . وهذه هى الإثارة ولكن فى نفس الوقت أدى ذلك إلى صعوبة بالغة عند ترجمته .

ويتسم اسلوب اوى بالميل إلى الغموض الذى يعتبر متاصلاً فى اللغة اليابانية . انه ينتهك ايقاعاتها الطبيعية ، ويدفع معانى الكلمات إلى اقصى حدودها المقبولة . باختصار ، انه يقوم بتطوير لغة خاصة به ، لغة يمكنها أن تلائم الحدة التى فى خياله وتستوعبها مما أثار عليه بعض النقاد اليابانيين الذين اتهموه بالإساءة إلى اللغة اليابانية وتعكير صفوها بتركيبات من اللغات الغربية . وبالفعل ، فاذا كان أوى قد خرج عن الأسلوب التقليدى النمطى لروح اللغة اليابانية ، فقد كان هذا طبيعيا ومتوقعا منه حيث اتخذ ذلك اساسا للهجوم على القيم النمطية . فبطله القصصى يبحث عن ذاته فى قفر محفوف بالمخاطر ، ومن المناسب أن تكون لغته كما هى عليه : وحشية ، غير قاطعة ، ولكنها لابد أن تكون مفعمة بالحيوية .

وقد اعترف جمهور القراء بادب "أوى كنزابورو" ، واجمعوا

على انه اعظم كاتب ديناميكى ثورى ظهر فى اليابان منذ نهاية الحرب . وقال عنه يوكيوميشيما : "لقد وصل "اوى كنزابورو" إلى ذروة جديدة فى الأدب القصصى اليابانى .. إنه يقف بمفرده كالناطق الرسمى بلساننا جميعا" .

وفى عقده الأول ككاتب نشرت اعماله فى ستة مجلدات ، اثنان منها يحتويان على المقالات التى اغلبها سياسى مع عشرات من القصص القصيرة وما لا يقل عن ثمانى روايات . ولقد بيع منها تسعمائة الف نسخة ، وهذا يعطى دلالة واضحة على شهرته التى حصل عليها مبكراً .

وتخص شهرة اوى التى لم يسبقه إليها أحد فى انه بلاشك أول كاتب يابانى عصرى حقا . ففى فترة السنوات العشر الأولى من حياته الأدبية حقق منزلة لم يصل إليها معاصره الأكبر الموهوب خصيب الإنتاج "يوكيو ميشيما" .

لقد حرر الأدب اليابانى من جذوره المتأصلة ، ونمطه السليقى الثابت وحركه نحو المسار الحيوى السائد للأدب العالمى . لقد تأثر اوى بالغرب كثيراً خاصة بهنرى ميللر ، ونورمان مالر ، وجان بول سارتر . وكانت الرواية المفضلة لديه فى الأدب الغربى فى مطلع حياته الأدبية (هاكلبيرى فين ـ Huckleberry Finn) ـ لمارك توين .

ومعظم اعمال أوى تتعامل بطريقة أو باخرى بالخواء المعاصر وبعدمية إنسان هذا العصر . لقد هوجم من بعض النقاد بسبب معالجته للمشاكل الصعبة او البغيضة ، وبسبب العنف وصراحته فى تناول الجنس .

وتعتبر روايته "هموم شخصية ـ Personal Matter" البزوغ الأول لنجم كاتب بالغ الاهمية فى العالم اجمع .

لقد اختار فى هذه الرواية موضوعاً صعباً معقداً على الرغم

من عالميته وهو : كيف يواجه المرء وكيف يكون رد فعله ، عندما يولد له طفل غير طبيعي . فالبطل "بيرد" أو "عصفور" شاب فى السابعة والعشرين من عمره ، له ميول غير اجتماعية ، القى بنفسه اكثر من مرة ، عندما واجهته مشكلة ، فى عالم الخمر . لكنه لم يواجه أبدا محنة خطيرة تمسه مثل إمكانية الحياة مسجونا فى قفص طفله المسخ حديث الولادة . هل يجب أن يحتفظ به ؟ هل يجرؤ على أن يقتله ؟

وقبل أن يتخذ قراره النهائى يثب ماضى "بيرد" أو "عصفور" كله أمامه ، فيكشف له عن كابوس من خداع الذات .

والأمانة الشديدة التى رسم بها اوى بطله او بطله الزائف ـ تجعل "بيرد" أو "عصفور" أحد الشخصيات التى لا تنسى فى الأدب المعاصر .

وفوز الأديب اليابانى "اوى كنزابورو" بجائزة نوبل للآداب لعام ١٩٩٤ يعتبر مفاجأة له . وما جاء فى حيثيات قرار الأكاديمية السويدية يبين سبب اختياره بانه عُرف منذ بداية حياته الأدبية فى الخمسينيات بالشخصية المناضلة المدافعة عن حقوق الإنسان ، المعارضة للتسلح النووى ، والمعالجة للقضايا التى تتعلق بالعلاقات الإنسانية .

وأسلوب "أوى كنزابورو" شاعرى قوى مؤثر ، ابدع به ادبا يصور عالماً خيالياً يجمع بين الأسطورة والواقع اثناء تشريحه للإنسان فى العالم المعاصر .

ونجح أوى فى تقديم الإنسانية بشكل واضح فى كل اعماله وبرع فى مزج ماهو عام بعمق تجربته الشخصية . فجاء نتاجه الأدبى معبرا عن أهم مرحلتين فى حياته .

المرحلة الأولى هى التى عبر فيها أوى عن طفولته التى عاشها فى ظل فترة انهيار اليابان بعد الحرب العالمية الثانية والاحتلال

الامريكى وكارثة هيروشيما ، مع الظروف الماساوية التى عاشتها اليابان فى تلك الفترة القاتمة .

والمرحلة الثانية فى ادب "اوى كنزابورو" منذ عام ١٩٦٤ ، يوم ان رزق بطفل معوق احدث فى قلبه عظيم الأثر ، الأمر الذى انعكس على اعماله .

واذا استعرضنا سيرته الذاتية ، فسنكتشف إلى اى مدى اثرت حياته على اعماله الإبداعية فى القصة .

ولد "اوى كنزابورو" فى ٣١ يناير عام ١٩٣٥ فى قرية أوشى بجزيرة شيكوكو بغرب اليابان . ولد فى قلب ظلام اقسى تجربة عرفتها الإنسانية ، وهى إلقاء القنبلة الذرية على مدينتى هيروشيما ونجازاكى . ومع ما نسفته الانفجارات فيمن حوله من بشر وأماكن نسفت فى روحه الكثير ، فشاهد وسط اشلاء الأهل كرامته وكرامة بلاده ، وشظايا كل ما كان يصدقه ويؤمن به قبل الحرب . فامتلأ قلبه بالغضب من كل من آمن بهم فخذلوه . ولكننا نجده يستمد ، من الغضب ومن الخوف ومن الجنون طاقة الإبداع ليكتب باحثا عن الخلاص والبديل والمنقذ لمواجهة ضياع الذات .

وقد نشرت قصصه الاولى فى عام ١٩٥٧ وهو لا يزال طالبا وكتب نحو ١٢ رواية غير القصص القصيرة والدراسات والمقالات إلى جانب تخصصه فى الأدب الفرنسى بجامعة طوكيو ، وكان له اهتمام خاص بادب جان بول سارتر وفولتير وروسو .

وظهرت اولى رواياته عام ١٩٥٨ : "اقطف الزهور واطلق النار على الصبية ـ Pluck the Flowers, Gun the Kids" . وفى عام ١٩٥٩ تسبب ظهور روايته : "عصرنا Our Age" فى هجوم النقاد عليه ، حيث استهجنوا التشاؤم القاتم للرواية فى وقت كان

المفروض فيه ان يتفاعل بالعصر المشرق لتاريخ اليابان الحديث .

واثناء اضطرابات عام ١٩٦٠ ، سافر اوى إلى بكين ممثلاً للكتّاب اليابانيين الشبان ، وتقابل هناك مع الزعيم الصينى ماوتسى تونج .

وفى عام ١٩٦١ ، سافر إلى روسيا واوربا الغربية ، والتقى بسارتر فى باريس ، وكتب سلسلة مقالات عن الشباب فى الغرب .

وفى عام ١٩٦٢ ، نشر روايته "صرخات ـ Screams" . وفى عام ١٩٦٣ ، نشر رواية "المنحرفون ـThe Perverts " ، وكتابا يحيى ذكرى هيروشيما اسمه "مذكرات هيروشيما" .

وفى عام ١٩٦٤ نشر اوى رواية : "مغامرات فى الحياة اليومية ـ Adventures in Daily life" ، ورواية : "هموم شخصية ـ Personal Matter" ، وفاز بجائزة شينتشوشا Shenchosha الادبية . ويبدو ان تجربته القاسية مع ابنه اخمدت نيران المغامرة والتمرد التى كانت مشتعلة فى الأعمال التى سبقت ميلاد ابنه . ولكنه عاد وبنفس الحرارة للبحث عن الملاذ فى السمات الأصيلة والقيم النبيلة لمجتمع ما قبل الحرب ، فظهرت فى اعماله الأساطير القديمة والقيم التى تؤدى الى السعادة والسكينة واليقين . ومع ذلك لم يكف عن الاتصال بالواقع ، والتعبير عن آلامه واضطراباته وعجز الأنظمة السياسية والاقتصادية عن الانقاذ . وكانت كتاباته عن اختلال الوضع الإنسانى نبوءة صادقة بما كشفت عنه الأحداث فيما بعد من فساد سياسى واقتصادى وتفشى الرشوة فى بلده وسقوط اكثر من وزارة بسبب التلاعبات المالية .

وفى صيف عام ١٩٦٥ شارك فى مؤتمر كيسنجر الدولى بجامعة هارفارد .

وفى عام ١٩٦٧ ، اكمل روايته : "وقت لكرة القدم ـ Football

"in the First Year of Mannen" ، وحصل على جائزة تانيزاكى
Tanizaki .

ومن اشهر اعماله : "الطوفان الذى غمر نفسى" ، "سبعة عشر عاماً" ، "رسائل الى سنوات الحنين" ، "ثلاثية الشجرة المتوهجة" - "كيف تقتل شجرة" ، "علمنا ان نتجاوز جنوننا" ، "كبرياء الموتى" ، "يوم يمسح دمعى بنفسه" ، "الفتى الذى وصل متاخراً" .

ولقد رفض ترشيح الحكومة اليابانية له لنيل جائزة الآداب الرفيعة ، التى اسسها الامبراطور اليابانى عام ١٩٣٧ . وقال اوى فى تبرير رفضه للجائزة : "اعتبر نفسى من المناضلين الديمقراطيين فى زمن الحرب ، واعتقد ان الديمقراطية والامبراطورية لا تتفقان" .

ومما لا شك فيه ان دخول الرواية اليابانية دهاليز النفس البشرية يعد خطوة متقدمة واجتياز عائق صعب ، لاسيما ان اليابانيين فى حياتهم الاعتيادية منغلقون على انفسهم وكابتون لما يعتلج فى داخلهم على عكس الغربيين الذين يعدون النفس حجر الزاوية فى تجاربهم اليومية .

لقد كان للروايات الغربية ذات المناحى النفسية المختلفة مع انتشار النظريات والتطبيقات السيكولوجية آثارها الكبرى فى توجيه نشاط الروائيين اليابانيين إلى هذه المناحى النفسية المجهولة ، وكان أصدق من دخل هذه الحلبة اديبنا صاحب هذه الرواية "أو كنزابورو" ، ثانى يابانى يفوز بجائزة نوبل ، بعد ياسونارى كاواباتا فى عام ١٩٦٨ ، الذى تعتبر هذه الرواية "هموم شخصية" انعكاسا لتجربته الذاتية ومعاناته الشخصية بالنسبة لولده ، فجاءت درة ادبية إنسانية صادقة ليس فى الأدب القصصى اليابانى فحسب بل فى الأدب الإنسانى بصفة عامة .

• المتـرجـم •

خنق الأستاذ عصفور تنهيدة قصيرة وهو يلقى نظرة محدقة على خريطة أفريقيا الهاجعة داخل خزانة العرض مع الرشاقة المتشامخة لغزال برى . ولم تلق البائعات ، ذوات الأذرع والأعناق التى تكشف عنها "بلوزات" زيهن الرسمى ، أى انتباه .

كان المساء يغوص فى أغواره ، وحمى الصيف المبكر مثل احترار مارد ميت قد سقطت تماما من الغطاء الهوائى . وتحرك الناس وكأنهم يتلمسون طريقهم فى عتمة اللاوعى لأن ذكرى حرارة الظهيرة العالقة فى الجلد ثقيلة الوطأة ، فتنفث الناس تنهدات غامضة . يونيو .. السادسة والنصف .. والآن لم يكن فى المدينة إنسان يتصبب عرقاً . لكن زوجة عصفور كانت ترقد عارية على حصيرة من المطاط ، مغلقة عينيها بإحكام مثل طائر جميل ذبيح ساقط من السماء ، وأثناء ما كانت تئن بألمها وقلقها وترقبها ، كان جسدها ينز كرات من العرق .

أنعم عصفور النظر فى تفاصيل الخريطة وهو يرتعش . كان المحيط المكتنف أفريقيا ملوناً بمداد فى زرقة سماء الشتاء الدامعة عند الفجر . ولم تكن خطوط الطول وخطوط العرض خطوطا متماثلة للبوصلة ، فضربات الفرشاة الجسورة قد استصرخت تقلبات الفنان ونزواته . والقارة نفسها تشبه جمجمة إنسان قد شنق رأسه . كإنسانٍ ذى رأسٍ كبير وعينين حزينتين مسدلتين تتفرسان فى أستراليا ، أرض حيوان الكوال والبلاتبوس ، الحيوان المائى الثديبى البيوض ، وحيوان الكنجر . وكان الرسم المصغر لأفريقيا الذى يبين توزيع السكان فى الركن السفلى من الخريطة يشبه رأس ميت فى طريقه للتعفن ، وآخر ، معرّق بطرق المواصلات يشبه رأسا أجرد به شعيرات رفيعة ومعروضة بشكل موجع .

وكلتا هاتين الافريقيتين الصغيرتين توحيان بموت غير طبيعى ، فج ، وعنيف . وسألت البائعة عصفور :

– هل أخرج الأطلس من الخزانة ؟

فقال عصفور :

– كلا ، لا تهتمى . إننى أبحث عن خرائط ميشلان لطرق غرب أفريقيا ووسط وجنوب أفريقيا .

وانحنت الفتاة فوق دُرج ملىء بخرائط ميشلان وبدأت تبحث بهمة .

فأرشدها عصفور ، الذى أحست البائعة انه خبير قديم بأفريقيا ، قائلاً :

– المجموعات رقم ١٨٢ و ١٨٥ .

كانت الخريطة التى تنهد عليها عصفور – تلهفاً – عبارة عن صفحة من أطلس مفرط الثقل مغلف بالجلد ، القصد منه أن يوضع كتحفة تزين مائدة للقهوة . ولقد استفسر عن ثمنه منذ بضعة أسابيع ، وعلم أن ثمنه يكلفه مرتب خمسة أشهر فى مدرسة التقوية التى يدرس فيها . واذا ضم النقود التى يستطيع تحصيلها كترجمان فى بعض الأوقات فقد يغطى ثمنه فى ثلاثة أشهر . لكن عصفور عليه أن يعول نفسه وزوجته ، وحاليا الكيان الذى فى طريقه للحياة بين لحظة وأخرى . كان عصفور رب أسرة !

اختارت البائعة خريطتين من ذوات الغلاف الورقى الأحمر ووضعتهما أمامه على النضد . كانت يداها صغيرتين ومتربتين ، وتدعو ضآلة أصابعها للذهن صورة أرجل حرباء متسلقة احدى الشجيرات العشبية . وسقطت عين عصفور على علامة ميشلان التجارية من تحت أصابعها .. وجعله رجل المطاط ، الذى يشبه الضفدع البرى والذى يدحرج اطار العجلة المطاطى هابطاً به الطريق ، جعله يشعر بأن الخرائط ماهى الا صفقة حمقاء . لكن هذه الخرائط سيترتب عليها استخدام مهم .

وسأل عصفور فى شوق قلق :

– لماذا الأطلس مفتوح على صفحة أفريقيا ؟

وتحفظت البائعة ولم تجب . لماذا هو مفتوح دائما على صفحة أفريقيا ؟ هل يفترض المدير أن خريطة أفريقيا أجمل صفحة فى الكتاب ؟ لكن أفريقيا كانت فى عملية تغيير مستمر يصيب المرء بالدوار وبذلك تصبح عديمة القيمة بسرعة عن أى خريطة أخرى . وطالما أن التآكل الذى بدأ بأفريقيا قد يأكل الكتاب كله ، ففتح الكتاب على صفحة أفريقيا بمثابة دعاية عن الاهمال فى الباقى . فالخريطة المطلوبة هى التى لا يمكن أن تتغير بسبب استقرار الأوضاع السياسية . اذن ، فهل تختار أمريكا ؟ أقصد أمريكا الشمالية ؟

وقاطع عصفور ما يدور فى نفسه ليدفع ثمن الخرائط ، ثم تحرك قاطعا الممشى نحو السلالم ، ماراً بعينين عابستين بين شجرة مزروعة فى أصيص وتمثال عار مصقول من البرونز . كان بطن التمثال البرونزى ملطخاً بالزيت من الكفوف العابثة .. انها تبرق بشكل مبتل مثل أنف كلب . اعتاد عصفور نفسه ، عندما كان طالبا أن يجرى أصابعه عبر هذا الكرش أثناء مروره . واليوم لم يستطع أن يجد الشجاعة حتى يتطلع الى التمثال فى وجهه . لقد تطلع عصفور بنظرة خاطفة الى الطبيب والممرضات وهم يفركون أذرعهم بالمطهر بجانب المنضدة التى كانت ترقد عليها زوجته عارية . وكانت ذراعا الطبيب ملبدتين بالشعر .

دس عصفور خرائطه داخل جيب سترته بحرص وضغطهم تجاه جنبه أثناء تدافعه ماراً بقسم المجلات وتوجه للباب . وكانت هذه هى الخرائط الأولى التى اشتراها للاستخدام الفعلى فى أفريقيا . وتساءل فى قلق اذا كان سيأتى اليوم الذى يضع فيه بالفعل قدمه على تربة أفريقيا ويحدق من خلال النظارة الشمسية الداكنة فى سماء أفريقيا . أم أنه يفقد ، فى هذه اللحظة نفسها والى الأبد ، أية فرصة سانحة للشروع فى رحلة الى افريقيا ؟ هل هو مجبر أن يقول وداعاً ، مرغما ، للمناسبة الأخيرة والوحيدة للجذبة الباهرة فى شبابه . وماذا لو كنت كذلك ؟ فلا يوجد أى شىء أستطيع فعله !

واندفع عصفور عبر الباب وخطا فى شارع أمسية صيف مبكر . وبدا رصيف المشاة مكبلا بالضباب . بسبب تلوث الهواء وضوء النهار الغارب .

وتوقف عصفور ليحدق فى نفسه فى نافذة العرض المظلمة العريضة . كان عمره يقاس بسرعة عداء المسافات القصيرة . عصفور عمره سبعة وعشرون عاما وأربعة شهور . لقد لقب بـ "عصفور" عندما كان فى الخامسة عشرة ، وأصبح عصفوراً منذ ذلك الوقت . وطاف الشكل على نحو أخرق مثل جثة غارقة فى البحيرة الحبرية لزجاج النافذة ولا يزال يشبه عصفوراً . كان صغيرا ورفيعا . لقد بدأ أصدقاؤه يزدادون وزنا منذ تخرجهم فى الكلية وحصولهم على عمل .. حتى هؤلاء الذين ظلوا نحافا قد سمنوا عند زواجهم ؛ أما عصفور فلقد ظل جلداً على عظم كما كان دائما ، فيما عدا كرشاً هزيلاً فى بطنه . كان يتراخى للأمام عندما يمشى ويضم كتفيه حول عنقه ؛ وكان يأخذ نفس الوضع عندما يقف ساكناً .. مثل رجل عجوز ضامر كان رياضيا من قبل .

لم يكن فقط لأن كتفيه محنيتان فتشبهان جناحين مطويين ، فملامحه بوجه عام كانت تشبه العصفور . فأنفه الأملس المدبوغ بالسمرة يبزغ من وجهه مثل منقار معقوف بحدة تجاه الأرض . وعيناه المشعتان بضوء جامد كليل فى لون الغراء وتكادان لا تبديان عاطفة ، فيما عدا فتحهما وقفلهما بين الفينة والفينة وكأنه فى اندهاشة لطيفة . وكانت شفتاه الرفيعتان الجامدتان ممطوطتين دائما بإحكام فوق أسنانه .

ويرسم الخطان من عظمتى الوجنتين إلى ذقنه رقم "٧" بحدة . والشعر الشارد نحو السماء مثل ألسنة اللهب . هذا وصف أمين لعصفور عندما كان فى الخامسة عشرة من عمره ولم يتغير أى شىء فى العشرين . والى متى سيظل يشبه العصفور ؟ ولم يكن له خيار فى أن يعيش بنفس الوجه والشكل العام من الخامسة عشرة الى السادسة والعشرين . ثم هاهى الصورة التى كان يلاحظها فى النافذة الزجاجية ماهى الا توليفة من حياته كلها . فارتعد عصفور ، واستولى عليه القرف بشكل جعله يوشك على التقيؤ . ياله من انعكاس يكشف عنه هذا الزجاج ، فعصفور مرهق مع حشد من الأطفال والكبار والشيوخ ..

وفجأة تقدمت امرأة من نوعية خاصة بلا ريب ، خارجة من البحيرة

المعتمة فى النافذة وتحركت ببطء نحو عصفور . كانت امرأة كبيرة لها كتفان عريضتان ، طويلة لدرجة أن وجهها بز انعكاس رأس عصفور فى الزجاج واعتلاه . واستدار عصفور للخلف ، أخيرا ، عندما أحس كأن وحشا مهولا يطارده من الخلف . فوقفت المرأة أمامه وأمعنت النظر فى وجهه برصانة . فنظر عصفور اليها محملقا . وفى لحظة رأى الإلحاح الثاقب فى عينيها يزول فى مياه اللامبالاة الحزينة ، كانت المرأة على وشك اكتشاف وشيجة من الاهتمام المتبادل على الرغم من أنها لم تكن تعرف كنهها بالضبط ، وأدركت بشكل مفاجىء أن "عصفور" ليس الشريك المناسب لهذه الوشيجة . وفى نفس اللحظة لاحظ عصفور الغرابة على وجهها المحاط بالشعر الوفير المجعد فذكره بأحد الملائكة .. ولاحظ بصفة خاصة الشعيرات الشقراء التى غفلتها ماكينة الحلاقة فوق شفتها العليا . احدثت الشعيرات صدعاً مع حائط سميك من مساحيق التجميل فكانت ترتعش وكأنها مكروبة .

قالت المرأة الضخمة فى صوت ذكرٍ مدو :
ـ هـاى !

حملت التحية ذعراً على غلطتها المتهورة . وكأن شيئاً فاتنا يصدر منها . أسرع عصفور ورسم ابتسامة على وجهه ورد التحية : "هاى" ! فى صوت أجش مزقزق كان خاصية أخرى كعصفوريته .

واقتضت غرابة ارتداء ملابس الجنس الآخر منه ان يلف نصف دورة على حذائه عالى الكعبين ، ويمشى الهوينا فى الشارع . وراقبه عصفور لبرهة ، ثم سار مبتعداً فى الاتجاه المعاكس . واختصر الطريق عبر زقاق ضيق ، وشرع بحذر واحتراس فى السير فى شارع واسع يموج بقضبان الترولِلى . حتى أن الحذر الهستيرى الذى كان يستولى على عصفور بين حين وآخر يصيبه بنوبة تشنج لا إرادى تجعل الطائر الضعيف شبه مخبول من الخوف .. كان اللقب ينطبق عليه تماماً .

عندما رأتنى هذه المرأة غريبة الأطوار أراقب صورتى المنعكسة فى الزجاج وكأننى فى انتظار شخص ما ، أساءت الظن بى وحسبتنى منحرفا

جنسيا . غلطة مخزية ، ولكن عندما أدركت المرأة خطأها لحظة ما استدار عصفور ، استرد عصفور احترامه . وأخذ الآن يضحك على فكاهة المواجهة . هاى !.. ليست هناك تحية أفضل تناسب الحادثة ، ولابد أن منحرفة المزاج كان لديها عقل فوق كتفيها أو بالأحرى كتفيه .

شعر عصفور بجيشان عاطفى من أجل الشاب المتنكر كامرأة ضخمة . هل كان سينجح فى تحويل منحرف الليلة واعادته لطريق الصواب ؟ ربما كان علىّ أن أجد الشجاعة فى الذهاب معه بنفسى .

كان عصفور لا يزال يتخيل ماذا كان سيحدث لو ذهب مع الشاب الى أحد مواخير المدينة ، عندما خطا الى رصيف المشاة المقابل وانعطف الى شارع مزدحم بالمطاعم والحانات الرخيصة . ربما تمددنا عاريين كأخوين حميمين ، وتحدثنا . سأكون عاريا أيضا حتى لا يشعر الشاب بأى حرج . ربما أخبرته أن زوجتى ستلد الليلة ، وربما كنت اعترفت له بأننى أردت الذهاب إلى أفريقيا لسنوات ، وأن حلم أحلامى أن اكتب وصفاً تفصيليا لمغامراتى عند عودتى اسميه "سماء فوق أفريقيا" . ولعلى قلت أيضا أن ذهابى الى أفريقيا بمفردى قد يصبح مستحيلا اذا حبست فى القفص العائلى عند مجىء الطفل (لقد كنت فى القفص منذ زواجى لكن حتى الآن كان الباب يبدو مفتوحا دائما ، ولعل الطفل وهو فى طريقه للعالم يغلق هذا الباب) . وقد أتكلم عن كل أنواع الأمور ، وسيتحمل الشاذ مشقة اختيار بذور كل أمر يهددنى ، وقد يجمعها واحدة واحدة ، وبالتأكيد سيفهم . لأن الشاب الذى حاول جاهدا أن يكون مخلصا للغلاف الذى فى داخله حتى ينتهى به الأمر الى تنقيب الشارع باحثا عن منحرفين ، لابد لشاب مثل هذا أن يكون لديه قلب وآذان وعيون شديدة الحساسية للخوف المتأصل فى خلفية اللاشعور .

وغدا صباحاً قد نحلق سويا بينما نسمع الأخبار من الراديو ، ونشترك فى صبانة واحدة . كان ذلك المنحرف فتى صغيرا لكن ذقنه كانت تبدو كثيفة و ...

قطع عصفور سلسلة خياله الجامح وابتسم هامسا لنفسه : ماذا لو تم

قضاء ليلة سويا فهل يكون تمادياً زائداً ، لكن ماذا لو كان قد دعا الشاب إلى شراب ؟ كان عصفور فى شارع تتراص فيه الحانات الرخيصة والدافئة . وكان الزحام الذى من حوله مليئا بالسكارى . وأحس بحلقه جافا فأراد شرابا ، حتى لو تناوله بمفرده ، وبإدارة رأسه بسرعة على محور عنقه الطويل الهزيل ، عاين الحانات على جانبى الشارع ، وفى الحقيقة لم تكن له أى نية فى الوقوف فى أى منها . وتصور عصفور ماذا سيكون رد فعل حماته اذا وصل بجانب فراش زوجته وطفله المولود حديثا ، تفوح منه رائحة الويسكى . لم يكن يريد من حماه وحماته أن يرياه تحت سيطرة الخمر مرة أخرى .

كان حمو عصفور مدرسا فى كلية خاصة صغيرة الآن ، لكنه كان رئيس قسم اللغة الانجليزية فى جامعة عصفور إلى أن تقاعد . ولم يكن بفضل حسن الحظ كما هو بفضل توصية حماه الطيبة التى مكنت عصفور فى سنّه أن يحصل على وظيفة مدرس فى مدرسة تقوية . انه أحب الرجل العجوز وكان يجله . ولم يصادف عصفور مسنا فى سخاء حماه وسماحته ، ولم يكن يريد أن يخيب ظنه مرة أخرى .

تزوج عصفور فى شهر مايو عندما كان فى الخامسة والعشرين ، وفى ذلك الصيف الأول ظل مخموراً لمدة أربعة أسابيع متواصلة . وبدأ فجأة ينجرف فى بحر الخمر ، وأصبح روبنسون كروزو المسلوب العقل ، مهملاً جميع الالتزامات كطالب فى الدراسات العليا ، ووظيفته ، ومذاكرته ، نابذا كل شىء بلا تفكير . كان عصفور يجلس طوال اليوم الى ساعة متأخرة كل ليلة فى مطبخ شقته بعد أن يطفىء النور ، مستمعا للتسجيلات ومحتسيا الويسكى . وبدا له الآن وهو ينظر للخلف الى تلك الأيام التى لم ينشغل فيها بأى نشاط إنسانى واحد باستثناء الاستماع للموسيقى وشرب الخمر واستغراقه فى نوم مخمور مزعج . بدا له انه لم ينشغل بأى نشاط إنسانى آخر . وبعد أربعة أسابيع عاد عصفور إلى وعيه من سكر مؤلم مدته سبعمائة ساعة ليكتشف فى نفسه الرصينة بتعاسة ، خراب مدينة التهمتها نيران الحرب . كان يشبه العاجز ذهنيا مع تغيير طفيف نحو الشفاء . ولكن كان عليه أن يعيد ترويض ليس فقط التيه الذى بداخله . ولكن التيه الخاص

بعلاقاته مع العالم الخارجي أيضا . فانسحب من الدراسات العليا وطلب من حماه أن يجد له وظيفة في التدريس . والآن ، وبعد سنتين ، يجد نفسه منتظرا أن تلد زوجته طفلهما الاول . دعه يظهر في المستشفى ملطخا دمه بسموم الكحول مرة ثانية فسيجد حماته تفر وكأن كلاب جهنم تتعقبها .. وربما سحبت معها ابنتها وحفيدتها المولودة .

كان عصفور يحترس من الرغبة ، الملحة الغامضة المترسبة في الأعماق ، التي لا تزال عنده نحو الخمر . ومنذ تلك الأسابيع الأربعة التي قضاها في جحيم الويسكي ، وكثيرا ما كان يسأل نفسه لماذا ظل مخموراً لمدة سبعمائة ساعة ؟ ولم يصل إلى اجابة شافية أبداً .

ومادام سقوطه في هاوية الوسكي ظل لغزا ، فهناك خطر قائم في أنه قد يعود فجأة .

في أحد الكتب عن افريقيا التي قرأها عصفور بنهم شديد صادفته هذه الفقرة : "ان عربدة السكر التي أشار اليها المستكشفون كثيرا ما زالت شائعة في القرية الافريقية اليوم . وهذا يوحي بأن الحياة في هذه البلاد الجميلة لا يزال ينقصها شيء جوهري . ولا يزال الاستياء الأساسي يقود القرويين الافريقيين الى اليأس والانغماس في الملذات" . وفي اعادته لقراءة الفقرة التي تشير الى القرى الصغيرة في السودان ، ادرك عصفور أنه كان يتجنب التفكير في النواقص والمضجرات الكامنة في حياته الشخصية . ولكنها كانت موجودة ، وكان على يقين من ذلك ، لذا كان حريصا على أن يحرم نفسه من الكحول .

وجد عصفور نفسه فجأة في الميدان خلف حي الحانات والملاهي الليلية الرخيصة ، حيث الصخب والحركة . وكانت الساعة المضيئة فوق المسرح الذي في منتصف الميدان تومض معلنة السابعة مساءً .. الوقت الذي عليه أن يسأل عن زوجته . كان عصفور يتصل بحماته تليفونيا في المستشفى كل ساعة منذ الثالثة بعد الظهر . وألقى بنظرة عجلى حول الميدان . عدد وفير من التليفونات العامة ، لكنها كانت مشغولة جميعها . لم يكن جل تفكيره في زوجته التي في المخاض بل في أعصاب حماته التي

كانت تحوم حول التليفون المخصص للمرضى . فمنذ اللحظة التى وصلت فيها الى المستشفى مع ابنتها وفكرة أن العاملين يحاولون اهانتها مسيطرة عليها . لو كان شخص آخر من الاقارب ينتظر على التليفون .. وانقلب عصفور على عقبيه مفعما بالأمل ادعاء ، متطلعا نحو الحانات والمقاهى ، ومحلات الشعرية الصينية ، ومطاعم شرائح اللحم المشوى ومحلات الأحذية . كان يستطيع دائما أن يخطو داخل هذه الأماكن ويستخدم التليفون . لكنه كان يريد تجنب الحانة قدر المستطاع ، ولقد تناول غداءه من قبل . لماذا لا يشترى مسحوقا ليهدىء معدته ؟

وأخذ عصفور يبحث عن صيدلية ، عندما اعترضت سيره مؤسسة همجية غريبة . وكان فوق باب المؤسسة اعلان عملاق لراعى بقر رابض ومعه مسدس مشتعل . وقرأ عصفور اسم المؤسسة : "ركن المسدس" الذى يتلألأ فوق رأس هندى مثبت أسفل مهماز راعى البقر .

وكان فى الداخل تحت أعلام ورقية للأمم المتحدة واشرطة من ورق الكريب الحلزونى الأخضر والأصفر ، جمهور من الشبان الأصغر من عصفور بكثير . وكانوا يدورون حول الألعاب متعددة الألوان على شكل صناديق تملأ المكان من أوله الى آخره . وتحقق عصفور خلال الأبواب الزجاجية المحفوفة بالأشرطة الزرقاء والنيلية من وجود تليفون مثبت فى أحد الأركان فى المؤخرة . فخطا داخل ركن المسدس ، ماراً بماكينات الكولا ، وصندوق الموسيقى الصادح بألحان "الروك أند رول" التى أصبحت موضة قديمة ، وشرع يعبر الأرضية الخشبية الموحلة . وعلى الفور أحس وكأن صواريخ تفجرت فى أذنيه . وشق عصفور طريقه بصعوبة عبر المكان وكأنه كان يسير فى متاهة ، مارا بماكينات لعبة الكرة والدبابيس "فليبرز" ، ولعبات السهام المريشة ، وغابة مصغرة زاخرة بالغزلان والارانب والضفادع البرية الخضراء الضخمة التى تتحرك على حزام كهربائى . واثناء مرور عصفور اصطاد صبى من طلاب المرحلة الثانوية ضفدعاً على مرأى من العيون المعجبة لصديقاته وسجل بذلك خمس نقاط ظهرت بفرقعة داخل طاقة بجانب اللعبة .

وفى النهاية وصل عصفور الى التليفون ، وبعد أن أسقط العملة فى آلة

التليفون ، أدار رقم المستشفى من الذاكرة . وسمع بإحدى اذنيه رنين التليفون ، وامتلات الأخرى بموسيقى "الروك آند رول" المدوية ، وضجة تشبه صوت هجوم عشرات الآلاف من السرطانات البحرية .. انهم المراهقون المنتشون فوق لعباتهم الآلية يحكون الأرضية الخشبية بنعال أحذيتهم الايطالية ذات الجلد الناعم مثل جلد القفاز . ترى ماذا ستقول حماته عن هذا الضجيج ؟ ربما عليه أن يقول شيئا عن الضجة عندما يعتذر عن اتصاله المتأخر .

رن التليفون أربع مرات قبل أن يجيب صوت حماته الذى يشبه صوت زوجته الأكثر شبابا . وسأل عصفور عن زوجته على الفور ، دون الاعتذار عن أى شىء .

ـ لا شىء بعد . انه لا يريد أن ينزل ؛ البنت تعانى حتى الموت والطفل لا يريد النزول !

وحملق عصفور بلا كلام للحظة فى سماعة التليفون السوداء . وكان السطح يشبه سماء الليل مقنطرة بنجوم سوداء تتغبش وتصفو مع كل نفس يستنشقه .

وقال بعد برهة :

ـ سأتصل مرة أخرى الساعة الثامنة .

ثم وضع السماعة وتنهد .

كانت لعبة قيادة السيارات مثبتة بجانب التليفون ، وصبى يشبه الفلبينيين جالس وراء عجلة القيادة . وكان يوجد تحت تمثال سيارة جاجوار مثبتة على اسطوانة فى منتصف اللوح الخشبى حزام مرسوم لمنظر ريفى يدور باستمرار ، ويجعل السيارة تبدو مسرعة للأبد فى طريق رئيسى رائع . وعند منحنيات الطريق ، تظهر فجأة معوقات باستمرار لتشكل خطراً على السيارة الصغيرة : مثل الأغنام ، والأبقار ، مع صفوف من البنات والصبيان . ومهمة اللاعب أن يتجنب التصادمات . وكان الفلبينى منحنيا فوق عجلة القيادة فى تركيز حانق ، وتجعدات عميقة بين حاجبيه الداكنين . واستمر فى القيادة ، قارصاً على شفتيه الرفيعتين بأنياب حادة ونافثا

الهواء برذاذ لعابه الأصفر ، وكأنه مقتنع بأن الحزام سيتوقف فى النهاية عن الدوران ويأتى بالسيارة الجاجوار الى نهاية الرحلة . لكن عقبات الطريق المنتشرة أمام السيارة الصغيرة لا تنتهى ، ومن حين لآخر عندما يبدأ الحزام يهدىء من سرعته ، يدس الفلبينى يده فى جيب بنطلونه ، ويخرج عُمَلَة ليدخلها فى العين المعدنية للماكينة . وتوقف عصفور فى مكانه منحنيا خلف الصبى ، وراقب اللعبة لبرهة . وفى الحال زحف احساس بتعب لا يحتمل فى قدميه . وأسرع عصفور تجاه الباب الخلفى ، وخطواته تسفع الأرضية وكأنها صفيحة معدنية . وفى مؤخرة الرواق واجه زوجا من الماكينات العجيبة .

كانت اللعبة التى جهة اليمين محاطة بعصبة من الشباب فى سترات حريرية متشابهة مطرزة بأشكال التنين بخيوط فضية وذهبية ، الهدية التذكارية من هونج كونج المصممة بمختلف الأشكال للسياح الأمريكيين . وكانوا يصدرون ضجيجا عاليا غير مألوف يشبه التصادمات الثقيلة . اقترب عصفور نحو اللعبة من جهة الشمال لخلوها من الصبية . كانت أداة تعذيب من القرون الوسطى ، مقصلةٌ حديديةٌ .. طراز القرن العشرين . وعذراء جميلة من الصلب بالحجم الطبيعى مع أشرطة حمراء وسوداء ميكانيكية تحمى صدرها العارى بذراعيها السمينتين المكتوفتين . واللاعب يحاول سحب ذراعيها بعيدا عن صدرها من أجل نظرة خاطفة لنهديها المعدنيين المختبئين ، وتظهر قبضاته وسحباته كأرقام فى النافذتين وماهما الا عينى العذراء . وكان فوق رأسها جدول زمنى لمعدل القبضات والسحبات .

دس عصفور قطعة العملة فى الشق الذى بين شفتى العذراء . ثم شرع فى إبعاد ذراعيها عن نهديها . وقاومت العذراء الصلب بعناد . وأخذ عصفور يسحب بقوة أكبر ، وتدريجيا انجذب وجهه الى صدرها الحديدى . وحيث إن وجهها كان مرسوما بتعبير واضح من الهلع ، فكان لدى عصفور الإحساس بأنه يغتصب الفتاة . وظل مشدودا بإحكام حتى بدأت كل عضلة فى جسمه تؤلمه . وفجأة صدر صوت قرقعة فى صدرها أثناء استدارة الترس ، وظهرت الأرقام على اللوحات ، وانبثق لون الدم الرطب داخل عينيها الغائرتين . وذهب عصفور منهكاً لاهثاً وتفحص سجل نقاطه فى

جدول المعدلات . ولم يكن من الواضح ما تمثله الوحدات ، لكن عصفور قد سجل ٧٠ نقطة مقابل القبضات و ٧٥ نقطة مقابل السحبات . ووجد عصفور فى عامود بالجدول تحت ٢٧ سنة ، القبض : ١١٠ ، والسحب ١١٠ . وأمعن النظر فى الجدول بانكار واكتشف أن نتيجته كانت فى معدل رجل فى الأربعين ، اربعون !..

وسقطت الصدمة مباشرة الى معدته فأصدر فجأة تجشوءاً .. العمر سبعة وعشرون عاما وأربعة أشهر والنتيجة لا تزيد على نتيجة رجل فى الأربعين من عمره .. ياعصفور !

لكن كيف ذلك ؟ فوق كل شىء ، يمكنه أن يقول إن الوخز الذى فى كتفيه وخصرتيه قد يتطور إلى ألم عضلى مستعص . وصمم عصفور أن يرد شرفه ، فاقترب من اللعبة جهة اليمين . وتحقق مندهشا أنه فى حماس مفرط حاليا ازاء لعبة اختبار القوة هذه .

وبتيقظ الحيوانات المفترسة التى تم غزو حدود اقليمها ، تصلب الشباب أصحاب السترات التنينية عندما تقدم عصفور ، وحاصروه بنظرات التحدى . واندفع مسرعا ولكن بمظهر اللامبالاة ، وتفحص عصفور الماكينة التى كانت فى منتصف حلقتهم . كانت تشبه فى بنيتها المشنقة التى فى افلام الغرب "الوسترن" ، فيما عدا تلك الخوذة التى من نوع خوذات سلاح الفرسان السلاف ، وكانت مدلاة من الموضع الذى سيشنق فيه الخارج عن القانون قليل الحظ . وكانت الخوذة تخفى جزئيا كيس رمل مغطى بجلد أسود . وعندما توضع قطعة العملة فى الثقب يسطع مثل عين السيكلوب "عملاق فى الأساطير اليونانية ذو عين واحدة فى وسط الجبين" فى منتصف الخوذة ، ويستطيع اللاعب أن ينزل كيس الرمل فتستقر إبرة المؤشر عند السفر . وتوجد صورة كاريكاتورية لفأر آلى فى منتصف المؤشر ، وكان يصرخ وفمه الأصغر مفتوح تماما ، وهو يقول :

ـ هذا قاتلى ! دعنا نقيس لكمتك !

عندما نظر عصفور للعبة فقط ولم يتحرك نحوها ، تقدم واحد من أصحاب السترات التنينية وكأنه يشرح اللعبة . فأسقط قطعة عملة فى

الخوذة ، وسحب كيس الرمل لأسفل ، وخطا الشاب خطوة للخلف بثقة واعتزاز بالنفس وقذف بجسمه كله للأمام وكأنه يرقص ، ووجه لكمة قوية لكيس الرمل ، جعلت الابرة تقفز لما بعد الأرقام التى فى العداد واهتزت بلا معنى . وانفجرت المجموعة فى الضحك . لقد تعدت اللكمة قدرة العداد . وأصبحت الماكينات المشلولة عاجزة عن القياس . وصوب صاحب السترة التنينية المنتصر ركلة خفيفة إلى كيس الرمل بحركة كاراتيه هذه المرة . وسقطت إبرة المؤشر إلى ٥٠٠ بينما زحف كيس الرمل عائدا للخوذة ببطء مثل سرطان البحر المنهك ، وزمجر العداد مرة أخرى .

استولت على عصفور عاطفة غير قابلة للتعليل . وخلع سترته ، محترسا ألا يغضن الخرائط ، ووضعها على منضدة القمار . ثم أسقط فى الخوذة إحدى العملات من جيبه الممتلىء ، وكان يحملها لأجل المكالمات التليفونية للمستشفى . وكان الصبية يراقبون كل حركة . وأنزل عصفور كيس الرمل وأخذ خطوة للخلف ، ورفع قبضتيه . وتذكر عصفور الأيام التى كان يدرس فيها للامتحان الذى كان يؤهله لدخول الكلية ، نعم .. كان يتشاجر مرة كل أسبوع تقريبا مع الجانحين الآخرين فى مدينته الريفية . وكانوا يهابون جانبه وكان يحيط به دائما المعجبون الشبان . وكان عصفور يؤمن بقوة لكمته . وكان مستقيم القالب ، ولم يكن يتخذ أى خطوة خاسرة . وأحال عصفور ثقل جسمه الى أطراف قدميه ، وأخذ خطوة رشيقة للأمام ، وضرب كيس الرمل بقبضته اليمنى . هل تخطت لكمته حد الرقم ٢٥٠٠ وعطلت العداد ؟ للأسف لقد وقفت الابرة عند رقم ٣٠٠ ! حدق عصفور للحظة فى العداد وهو مشدوه ، ثم تصاعد الدم الحار الى وجهه . وكان الصبية أصحاب السترات التنينية صامتين ساكنين من خلفه . ولكن كان انتباههم بالتأكيد مركزاً على عصفور وعلى العداد ، فلابد أن مظهر رجل بلكمة ضعيفة رقميا بهذا الشكل يصيبهم بالدهشة والوجوم .

وتحرك عصفور وكأنه غافل عن وجود الشبان ، وعاد الى الخوذة ، ودس قطعة عملة أخرى ، وسحب كيس الرمل الى أسفل . لم يكن الوقت يسمح للقلق ازاء الشكل الصحيح .. وقذف بوزن جسمه كله خلف اللكمة .

وتخدرت ذراعه اليمنى من الكوع إلى المعصم ووقفت الابرة عند رقم ٥٠٠ فقط .

انكفأ عصفور بسرعة والتقط سترته وارتداها فى مواجهة منضدة القمار . ثم التفت وراءه نحو المراهقين الذين كانوا يراقبونه فى صمت . وحاول عصفور أن يرسم ابتسامة متمرس ، مفعمة بالفهم والاندهاش . لكن الصبية حدقوا فيه بوجوه جامدة خالية من التعبير ، وكأنهم كانوا يراقبون كلبا . وتحول عصفور الى اللون القرمزى حتى أذنيه ، ونكس رأسه وأسرع خارجا من الرواق . وانفجرت قهقهة عالية من خلفه ، مليئة بطرب مصطنع بشكل واضح .

عبر عصفور الميدان ، وهو مشوش بخجل طفولى ، واندفع هابطا إلى شارع جانبى مظلم .. لقد فقد الشجاعة فى أن ينساق مع جمهور مليء بالغرباء . كانت البغايا يأخذن مواقفهن على طول الشارع ، لكن الغيظ فى وجه عصفور ثبط همتهن لمناداته أو التحرش به . ودخل عصفور زقاقا لا يوجد فيه بغايا ولا حتى المختبئات ، وفجأة توقف بسبب وجود سد مرتفع . وعلم عن طريق رائحة أوراق النباتات الخضراء فى الظلام أن العشب الصيفى كان كثيفا فوق المنحدر . وكانت على قمة السد قضبان سكة حديد . وأنعم عصفور النظر أعلى وأسفل مسار القطار ، ليرى ما اذا كان القطار آتيا . ولم يكتشف شيئاً فى الظلام . ونظر لأعلى إلى حبر السماء الأسود . وكانت الغشاوة الضاربة الى الحمرة التى تحوم فوق الارض عبارة عن انعكاس لأضواء النيون فى الميدان . وفجأة بللت نقطة مطر وجنة عصفور المرفوعة الى أعلى .. وأصبح العشب يفوح عطراً لأنها على وشك أن تمطر . فحنى عصفور رأسه ، وراح يتبول خلسة ، وكأنه يفتقر إلى أى شيء آخر يقوم به . وقبل أن ينتهى ، سمع خطوات أقدام مشوشة تقترب من خلفه . وفى الوقت الذى استدار فيه ، كان محاطا بالصبية أصحاب السترات التنينية .

ومع الضوء الخافت وراء ظهورهم ، كان الصبية فى ظلال ثقيلة ، فلم يستطع عصفور أن يكتشف تعبيرات وجوههم . لكنه كان يذكر نكرانهم له ،

وقسوتهم الموجعة التى كانت تكمن فى امتقاع لونهم عند "ركن المسدس" . لقد لمحت العصابة كائنا واهنا جدا ، فاستيقظت فيهم الغرائز الهمجية البدائية . وبارتعاشة حاجة طفل عنيف لتعذيب رفيق اللعب الضعيف ، تسابقت العصابة فى مطاردة الحمل الجدير بالشفقة صاحب لكمة قياسها ٥٠٠ . كان عصفور خائفا ، وبحث بهياج شديد عن مخرج . ولكى يصل الى الميدان المتألق كان عليه أن يندفع مباشرة نحو العصابة ويخترق حلقتهم فى أقوى نقطة فيها . ولكن مع قوة عصفور .. صاحب القبضة والسحبة لعمر أربعين سنة !.. كان ذلك غير وارد .. فسوف يجبرونه على الرجوع بكل سهولة .. وكان على يمينه زقاق قصير ينتهى عند سور خشبى . والزقاق الضيق الذى على يساره ، بين السد وسور من الأسلاك مرتفع حول فناء أحد المصانع ، يظهر بعيدا على الجانب الآخر عند شارع مزدحم . كانت لعصفور فرصة اذا استطاع أن يقطع تلك الأمتار المائة تقريبا دون أن يمسكوا به . وانطلق عصفور موطد العزم كأنه يجرى نحو الطريق المسدود الذى على يمينه ، ثم اندفع فجأة الى اليسار . ولكن العدو كان خبيرا بمثل هذا النوع من الحيل ، مثلما كان عصفور ، فى العشرين من عمره ، خبيرا فى ليل مدينته . وانحرفت العصابة الى اليسار غير مخدوعين ومتجمعين حتى اثناء تظاهر عصفور بالاتجاه لليمين . واستقام عصفور وانطلق مندفعا تجاه الزقاق الأيسر فتصادم بالظل الأسود لجسم منحن للخلف مثل القوس ، نفس الهجوم الذى استخدمه الشاب على كيس الرمل . ولا وقت ولا مكان للمراوغة ، أخذ عصفور القوة الكاملة لأسوأ لكمة عنيفة فى حياته وسقط للخلف على السد . وبصق ، وهو يئن ، لعابا ودما . وضحك المراهق بصخب حاد ، كما ضحك هو وعصبته عندما عطلوا ماكينة اللكم . ثم ألقوا بنظراتهم على عصفور فى صمت ، مطبقين عليه فى نصف حلقة أكثر إحكاما ، وظلت العصابة تنتظر .

وخطر على بال عصفور الخرائط ، وأنها لابد قد تجعدت بين جسده والأرض . وأن طفله قد ولد .. ورقصت الفكرة مع لذاعة جديدة للخطوط الأمامية للوعى . واستولى عليه غيظ مفاجىء ويأس مرير . وحتى الآن ، كان عصفور يحتال ، من منطلق الرعب والارتباك ، ليجد وسيلة يهرب بها فقط . ولكن لم تكن لديه أى نية فى الجرى الآن . اذا لم أحارب الآن ، فلن

أفقد فرصة الذهاب الى أفريقيا الى الأبد فقط ، بل وطفلى أيضا سوف يولد وحيدا فى العالم ليحيا أسوأ حياة ممكنة .. كان هذا مثل صوت إلهام ، وصدقه عصفور وآمن به .

رجمت قطرات المطر شفتيه المجروحتين . فهز رأسه وتأوه ، ثم نهض ببطء . وتراجعت نصف الحلقة التى شكلها المراهقون للخلف فى اغراء . ثم تقدم أضخم من فى المجموعة خطوة واثقة للأمام . فترك عصفور ذراعيه تتدليان وابرز ذقنه لأعلى ، بشكل يحاكى الارتباك الرخو لدمية الكرنفال . رفع الصبى ذو السترة إحدى ساقيه عاليا وتقوس تجاه الخلف ، مثل رامى الجلة متخذا وضعه النهائى ، ثم نصب ذراعه اليمنى للخلف قدر ما يستطيع وانطلق مهاجماً ليقتل . فتفاداه عصفور ، خافضا رأسه ، وانطلق مثل الثور الهائج نحو بطن مهاجمه . فصرخ الصبى وبدأ يتقيأ مادة صفراء ، وانهار فى صمت . ونخع عصفور رأسه لأعلى وواجه الآخرين . لقد استيقظت فيه مرة ثانية حمية المعركة ، انه لم يشعر بها منذ سنين . وأخذ عصفور والسترات التنينية يراقب كل منهما الآخر ويقومه دون تحرك . ومضى الوقت .

وعلى نحو أبتر ، صاح أحد الصبية فى الآخرين :

ـ تعالوا ، هيا بنا نذهب ! نحن لا نريد أن نقاتل هذا الشخص . انه عجوز أكثر من اللازم !

استرخى الصبية فى الحال . ورفعوا زميلهم فاقد الوعى وتحركوا تجاه الميدان ، تاركين عصفور فى حذره المتيقظ . ظل عصفور بمفرده تحت المطر . واستيقظ حس الكوميديا فى حلقه ، وضحك لمدة دقيقة فى صمت . كان يوجد دم على سترته ، لكنه اذا سار تحت المطر لبرهة ، فلن يستطيع أحد أن يفرق بينه وبين الماء . وشعر عصفور بسلام تمهيدى ، ومن الطبيعى أن تؤلمه ذقنه حيث هبطت اللكمة ، واحس بوجع فى ذراعيه وظهره وفى عينيه . لكنه كان مبتهجاً لأول مرة منذ أن بدأ مخاض زوجته . مشى عصفور منهكا هابطاً الزقاق بين السد وأرض المصنع . وفى الحال جاءت ماكينة بخارية قديمة الطراز تتقيأ نفايات متقدة محدثة صوت انفجار

قصير خافت وهى هابطة فوق القضبان . وكان القطار المار فوق رأس عصفور عبارة عن خرتيت أسود هائل يعدو مسرعاً عبر سماء زرقاء .

وأثناء انتظاره لسيارة الأجرة فى الطريق العريض المحفوف بالأشجار ، تحسس عصفور بلسانه سنّة مكسورة وبصقها فى الشارع .

الفصـل الثانـى

هجع عصفور فقوس جسمه فى شكل كرة مثل قملة الخشب المهددة ، تحت خريطة غرب أفريقيا المخططة بالوحل والدم واللعاب الأصفر ، والمثبتة بدبوس رسم على الحائط . انه فى حجرة نومهما ، حجرته هو وزوجته . ولا يزال مهد الطفل الأبيض الملفوف فى غطائه رابضا كحشرة كبيرة بين السريرين ، وأخذ عصفور يحلم ، ويئن فى احتجاج ضد لسعة الفجر الباردة .

انه واقف فوق سهل واسع مرتفع على الضفة الغربية لبحيرة تشاد شرق نيجيريا . ترى ماذا ينتظر فى مثل هذا المكان ؟ وفجأة رآه "فاكوتشوار" عملاق . وشرع الحيوان الوحشى يستعد للهجوم ، ويركل الرمل بحافره فى عنف واهتياج . لكن كل هذا لا غبار عليه !

لقد أتى عصفور إلى أفريقيا للمغامرة ، وعقد لقاءات مع القبائل الجديدة ومع مخاطر الموت ، من أجل نظرة خاطفة لما وراء أفق السكون والحياة اليومية المحبطة بشكل مزمن . لكنه لا يحمل سلاحا لمحاربة "الفاكوتشوار" . لقد وصلت أفريقيا وأنا أعزل بلا تجهيز ودون تدريب ، ووخزه الخوف . ويندفع "الفاكوتشوار" هابطا فى تلك الأثناء . وتذكر عصفور مدية الجيب التى تفتح بواسطة زنبرك التى اعتاد أن يثبتها فى ثنية البنطلون عندما كان جانحاً فى مدينته الريفية . لكنه تخلص منها ومن ذلك البنطلون منذ فترة طويلة . ومن المضحك أنه لا يستطيع تذكر اللفظ اليابانى المقابل للفاكوتشوار . فاكوتشوار ! انه يسمع مجموعة الشباب التى تركته مخذولا ولاذت بالفرار إلى منطقة آمنة ، وهى تصيح :

ـ انتبه ! اركض ! انه الفاكوتشوار !

بينما وصل الحيوان الساخط عند أجمة شجيرة منخفضة على بعد

بضعة أمتار . ولم تكن أمام عصفور فرصة للهرب . ثم يكتشف ناحية الشمال منطقة تحميها حافة زرقاء مائلة ، لابد أنه سلك من الصلب . لو كان يستطيع أن يصل إليها ويقف خلفها لكان آمنا . ويصيح الناس الذين تركوه من هناك . وشرع عصفور في الركض . لقد سبق السيف العزل ! فالفاكوتشوار يكاد يكون فوقه . لقد أتيت الى أفريقيا بلا تجهيز وبلا تدريب ؛ ولا أستطيع الفرار . وييأس عصفور ، ولكن الخوف يدفعه للنضال فيهرول مسرعاً . تراقبه عيون بلا عدد .. عيون الناس الآمنين خلف الحافة الزرقاء المائلة وهو يسابق الريح نحوهم . وتنطبق أسنان الفاكوتشوار المقيتة على كاحل عصفور .

كان التليفون يرن . فاستيقظ عصفور . انه الفجر ، والسماء تمطر لا تزال . ويضرب عصفور الأرض الرطبة بقدميه العاريتين قافزا على التليفون مثل الأرنب . ورفع السماعة وسأله صوت رجل عن اسمه دون كلمة تحية وقال :

ـ من فضلك احضر فوراً إلى المستشفى . الطفل غير طبيعي ؛ الطبيب سوف يشرح لك .

وفي الحال فقد عصفور صوابه . واشتاق للعودة الى السهل النيجيري ليلعق بقية حلمه حتى الثمالة ، ولا يهم إن كان حلماً وخيم العاقبة ، حلماً شريراً ، مزروعا بكثافة بأشواك الخوف . ولكنه تفحص نفسه وقال في صوت موضوعي للغاية ، قد يصدر عن غريب له قلب من حديد :

ـ هل الأم بخير ؟

كان عصفور لديه احساس أنه سمع نفسه يردد السؤال نفسه آلاف المرات في وقت واحد . وجاءه الرد :

ـ زوجتك بخير . من فضلك احضر حالا .

عاد عصفور لحجرة النوم عدواً مثل سرطان البحر المندفع ساعيا إلى مخبئه . وأغمض عينيه بإحكام وحاول أن يغوص في دفء فراشه . وكأنه يستطيع بإنكاره للواقع أن يتخلص منه على الفور . ولكن لا شيء تغير . وهز عصفور رأسه في استسلام ، والتقط قميصه وبنطلونه من جانب

السرير حيث ألقى بهما . وعندما انحنى أعاد الألم الذى فى جسمه الى ذاكرته معركة الليل السابقة . كان للقتال ندا لند بقوته ، وكم جعله ذلك فخوراً ! وحاول أن يسترد هذا الاحساس بالفخر ، ولكنه لم يستطع بالطبع . وتطلع عصفور الى خريطة غرب أفريقيا وهو يرتدى قميصه . وكان السهل الواسع المرتفع فى حلمه فى مكان يسمى ديفا . وكان يوجد رسم لخنزير وحشى افريقى مهاجم فوقه مباشرة .. خنزير وحشى ! ان الفاكوتشوار هو الخنزير الوحشى .

وهز عصفور رأسه ثانية ، وارتدى سترته فى ارتباك وهو يغادر حجرة النوم ، وهبط السلالم على رءوس أصابعه . فالسيدة العجوز صاحبة البيت تعيش فى الطابق الأول واذا استيقظت وجاءت الى البهو فكان على عصفور أن يجيب على الأسئلة المشحوذة على مِسنّ فضولها ونيتها الطيبة . ولكن ماذا كان سيقول ؟ حتى الآن لقد استمع فقط التصريح على التليفون : الطفل غير طبيعى ! لكن من المحتمل أن يكون الوضع سيئا للغاية . تلمس عصفور حذاءه من أرضية المدخل ، وفتح الباب الأمامى بكل هدوء ، وخطا نحو الفجر .

كانت الدراجة ملقاة على جانبها فوق الحصباء تحت السياج . فعدلها عصفور ومسح المطر اللزج من المقعد الجلدى المهترىء بكم سترته . وقبل أن يجف المقعد وثب عصفور منفرج الساقين مبعثرا الحصباء مثل الحصان الغاضب ، ومر على الأسوار المزروعة إلى أن وصل للشارع المعبّد . وأمطرت ثانية ؛ ودفعت الريح المطر فى وجهه مباشرة . واحتفظ بعينيه مفتوحتين ، مراقبا المطبات فى الشارع . وضربت قذائف المطر مقلتيه . وعند شارع أعرض وأكثر تألقاً ، انحرف عصفور لليمين . وكانت الريح الآن تلسع جانبه الأيمن فأصبح السير أسهل . ومال عصفور نحو الريح لتتوازن الدراجة . وحرك الاطاران المطاطان المسرعان ملاءة الماء المفروشة على الشارع المعبد فى اهتياج وبعثرها مثل السديم الرقيق . وعندما راقب عصفور الماء وهو يتموج مبتعداً عن الاطارين وجسده مسدد بحدة نحو الريح ، بدأ يشعر بالدوار . وتطلع حوله .. لا يوجد أحد فى

شارع الفجر على مدى بصره . كانت أشجار الجنكة التى تحف الشارع داكنة كثيفة الأوراق ، وكانت كل ورقة من تلك الأوراق التى لا تعد ولا تحصى منتفخة بالماء الذى شربته .. جذوع سوداء تحمل محيطات عميقة من الخضرة . وإذا انهارت كل تلك المحيطات مرة واحدة فسوف يغرق عصفور ودراجته فى فيضان يفوح بعطر الخضرة الخام . وشعر عصفور بالتهديد من قِبَل الأشجار . كانت الأوراق المتكتلة على أعلى قمم الفروع التى تظلله تئن فى الريح . وتطلع عصفور خلال الأشجار عند السماء الشرقية الضيقة . فكانت كلها رمادية ضاربة الى السواد ، مع أثر باهت للون الشمس القرنفلى المنبعث فى الخلف . سماء تعوزها القوة والبراعة حتى أنها بدت خجلى ، اذ انتهكت حرمتها بقسوة سحب مثل كلاب شعثاء رامحة .. وانطلقت كالسهام ثلاثة من طيور العقعق التى تشبه الغراب الأبقع طويل الذيل ، انطلقت أمام عصفور فى صفاقة قطط الحوارى وكادت تطيح به أرضا . ورأى قطرات الماء الفضية الناتئة مثل القمل على ذيولها فاتحة الزرقة .

لاحظ عصفور أنه كان يجفل بسهولة الآن ، وأن عينيه وأذنيه وحاسة الشم أصبحت حساسة بشكل حاد . فخطر فى باله بشكل مبهم أن هذا فأل سيىء .. فلقد حدثت نفس الأشياء خلال تلك الأسابيع التى ظل فيها مخموراً .

أحنى عصفور رأسه ، ورفع نفسه على دواستى الدراجة واستجمع قواه لزيادة السرعة . وعاد له الشعور بالقتال غير المجدى الذى شاهده فى حلمه . لكنه استمر فى الانطلاق بأقصى سرعة . وانتزعت كتفه فرعا رفيعا من أشجار الجنكة فجرح الطرف المكسور المرتد أذنه . ومع ذلك ، لم يهدىء عصفور السرعة . وسحجت قطرات المطر التى تطن مثل الرصاصات أذنه النابضة . كبح عصفور الدراجة للوقوف عند مدخل المستشفى فأصدرت المكبحة عويلا قد تكون صرخته هو . كان يعتصر بللا .. وينتفض لاهثا . وعندما نفض الماء من عليه ، بدأ يحس بأنه قد انطلق بسرعة مفرطة فى طريق طويل بشكل لا يصدق .

تانى عصفور أمام غرفة الفحص ليسترد نفسه ، ثم حدق داخلها وخاطب الوجوه غير الواضحة التى تنتظره فى العتمة .

وقال بصوت أجش :
ـ أنا الأب .

وتعجب لماذا كانوا يجلسون فى غرفة معتمة . ثم لاحظ حماته ، وكان وجهها شبه مدفون فى كم الكيمونو وكأنها كانت تحاول ألا تتقيأ . وجلس عصفور على الكرسى المجاور لها وأحس بملابسه تلتصق بسرعة على ظهره . وارتعش بلا عنف ارتعاشه فى الطريق ، انما فى عجز كتكوت ضعيف . وتكيفت عيناه على ظلام الغرفة .. والآن اكتشف "كونسلتو" من ثلاثة أطباء يراقبون فى صمت حريص اثناء استقراره فى الكرسى . ومثل العلم الوطنى فى المحكمة كانت لوحة التشريح التى على الحائط خلفهم راية رمزية لقانونهم الخاص .

كرر عصفور بانفعال .
ـ أنا الأب .

كان واضحا من صوته أنه يشعر بالتهديد .

فأجاب الطبيب الجالس فى الوسط بشكل دفاعى إلى حد ما :
ـ نعم ، هذا حسن .

وكأنه قد استشف نبرة الهجوم فى صوت عصفور . (انه مدير المستشفى ، لقد رآه عصفور يفرك يديه بجانب زوجته) . ونظر عصفور إلى المدير فى انتظار أن يتكلم . وبدلا من الشروع فى الايضاح ، أخذ غليونا من معطف الجراحة المتغضن ، وملأه بالتبغ . كان قصيراً ، برميلاً فى هيئة رجل ، سميناً الى حد مفرط مما أعطاه جوا من الأبهة الحزينة . كان المعطف الملوث مفتوحا عند صدره المشعر كظهر الجمل . ولم تكن شفته العليا ووجنتاه بل حتى حويصلته المدهنة المتدلية حتى حلقه إلا كالدريس بسبب ذقنه غير المحلوق . فلم يكن عند المدير وقت للحلاقة هذا الصباح . لقد كان يناضل من أجل حياة الطفل منذ بعد ظهر أمس . كان

عصفور ممتناً ، بطبيعة الحال ، لكن شيئا ما مشكوكا فيه ازاء هذا المدير المشعر الكهل منعه من التخلى عن يقظته . وكأن فى الأعماق تحت ذلك الجلد المشعر ، شيئا ما مشوها يحاول إعاقة رأسه الكث ومنعه قسراً .

وأعاد المدير أخيرا غليونه من بين شفتيه الغليظتين إلى تجويف يده . وقابل بشكل مفاجىء تحديق عصفور بتحديقة منه ، وقال :

ـ هل تحب أن ترى البضاعة أولا ؟

كان صوته عاليا بالنسبة للغرفة الصغيرة .

فسأله عصفور وهو يسعل :

ـ هل الطفل ميت ؟

ولبرهة بدا المدير مرتابا من عصفور لافتراضه موت المولود ، لكنه مسح ذلك الانطباع بابتسامة غامضة ، وقال :

ـ بالطبع لا ، فحركات الطفل نشيطة وصوته قوى .

سمع عصفور حماته تتنهد بعمق ، ورزانة ... وكانت كتلميحة واضحة . فإما كانت المرأة مرهقة وإما أنها اشارة تحذير لعصفور بعمق مستنقع المصيبة الذى وقع فى شراكه هو وزوجته .

وسأل المدير مرة ثانية :

ـ حسن اذن ، هل تحب أن ترى البضاعة ؟

نهض الطبيب الشاب الذى على يمين المدير . كان رجلا نحيلا فارع الطول ، تنتهك عيناه إلى حد ما التناسق الأفقى لوجهه . كانت احدى عينيه قلقة وهلوعة ، وكانت الأخرى رائقة صافية . وشرع عصفور فى الوقوف مع الطبيب وسقط جالسا فى كرسيه قبل أن يلاحظ أن العين الجميلة كانت مصنوعة من الزجاج . فاستفسر عصفور :

ـ هل يمكن توضيح الأمر أولا ، لو سمحت ؟

بدا عصفور مهددا بشكل أكثر ... فالاشمئزاز الذى شعر به من انتقاء المدير لألفاظه ... البضاعة ! .. كان لايزال حبيسا فى تلافيف عقله .

قال المدير :

- قد يكون ذلك أفضل .. أن تراه أولا ، انه مفاجأة تماما . حتى أنا اندهشت عندما رأيته .

وبشكل غير متوقع ، احمر جفنا المدير المكتنزان وانفجر فى ضحكة طفولية . لقد أحس عصفور بطيف مريب كامن تحت هذا الجلد المشعر ، ولقد أفصح عن نفسه أولا فى هيئة ابتسامة غامضة . وحملق عصفور فى ضحكة الطبيب فى غيظ قبل أن يدرك أن الرجل كان يضحك من الارتباك . لقد اقتلع من بين ساقى زوجة رجل آخر نوعا من المسخ خارج التصنيف . مسخ له رأس قط ، ربما ، وجسم منتفخ كالبالون ، مهما كان المخلوق ، فالمدير كان خجلا من نفسه لكونه قد ولده ، ولذلك كان يقهقه . ان اداءه بعيد عما يليق بالكرامة المهنية لطبيب مولد ومدير مستشفى ، كان ينتسب لكوميديا رخيصة .. وشخصية طبيب دجال . لقد ذعر الرجل وتحير ، والآن يعانى من الخجل .

ودون أن يتحرك انتظر عصفور المدير حتى يهدأ من نشوة ضحكه . مسخ . لكن أى نوع ؟ لقد قال المدير ، البضاعة ، وقد سمع عصفور كلمة « مسخ » وعند تقديمه لنفسه قال : « أنا الأب » وجفل الأطباء . لابد أن تردد فى آذانهم شىء آخر كلية .. أنا أب المسخ .

تحكم المدير فى نفسه بسرعة واستعاد وقاره الحزين . لكن حمرة الخجل ظلت على جفنيه ووجنتيه . تطلع عصفور بعيدا ، مقاوما دوامة ملحة من الغضب والخوف الداخلى ، وقال :

- أى نوع من الحالات هذه التى تثير دهشة كهذه ؟

- تقصد من ناحية المظهر ، كيف يبدو ؟ من الواضح وجود رأسين ! أنت تعرف معزوفة لجوزيف واجنر تدعى (تحت النسر المزدوج ؟) على أية حال إنها صدمة حقا .

كاد المدير يبدأ فى القهقهة ثانية لكنه كبح نفسه فى الوقت المناسب ، فسأله عصفور مخلوع الفؤاد :

- شىء مثل التوأم السيامى ، اذن !

- لا اطلاقا ... من الظاهر فقط وجود رأسين . هل تريد رؤية البضاعة ؟

قال عصفور متلعثما :
- ما هى بلغة الطب .. ؟
- فتق فى المخ ، كما نسميها . نتوء المخ من عيب فى الجمجمة .

لقد أسست هذا المستشفى منذ أن تزوجت ، وهذه هى الحالة الأولى التى رأيتها . حالة نادرة للغاية . يمكننى أن أقول لك إننى فوجئت بها تماما !

فتق فى المخ .. تلمس عصفور الصورة فى خياله ، ثم قال وهو يشعر بدوار :
- هل هناك أى أمل فى أن ينمو هذا النوع من الأطفال بشكل طبيعى ؟

وارتفع صوت المدير وكأنه غاضب :

- ينمو بشكل طبيعى ! نحن نتكلم عن فتق فى المخ ! قد تفتح الجمجمة ويجبر المخ على العودة لمكانه ، لكن حتى بعد ذلك ستكون محظوظا لو حصلت على كائن حى له طبيعة نباتية . على وجه الدقة ماذا تقصد بـ (الشكل الطبيعى ؟)

وهز المدير رأسه للأطباء الشبان الواقفين حوله ، وكأنه فزع من قلة ادراك عصفور . وأومأ الطبيب ذو العين الزجاجية بموافقته ، وكذلك الآخر ، رجل صموت مغلف من أعلى جبهته الى حلقه بخلو من كل تعبير عن المشاعر ، وشاحب البشرة ، وصب كلاهما عيونا متجهمة على عصفور ... وكأنهما أساتذة لايوافقون على طالب لأدائه السيىء فى الامتحان الشفهى .

قال عصفور مستفسرا :
- هل سيموت الطفل سريعا ؟

فقال المدير معلقا بطريقة تحليلية !
- ليس سريعا ، كلا ، ربما غدا ، أو قد يظل حتى لمدة أطول . انه طفل نشيط للغاية ... والآن ، ماذا تنوى أن تفعل ؟

كان عصفور صامتا فى ارتباك مخز مثل قزم مترنح من أثر لكمة . ماذا

كان يستطيع أن يفعل ، بحق الجحيم ؟ أولا يقودك الرجل هابطا زقاقا مسدودا ، ثم يسألك ماذا تنوى أن تفعل مثل لاعب شطرنج ماكر خبيث . ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ ينهار محطما ؟ أم ينتحب ويندب حظه ؟

واستطرد المدير قائلا :

ـ اذا رغبت ، يمكننى أن انقل الطفل الى المستشفى الخاص بالجامعة القومية ... اذا رغبت !

وبدا العرض مثل لغز يكمن فيه شرك . ويحاول عصفور فى توتره أن يرى خلف الغشاوة المريبة ويفشل فى اكتشاف أى مفتاح لحل هذا اللغز ، فيبقى فى احتراسه الذى لاطائل تحته ، ويقول :

ـ اذا لم يكن هناك بديل آخر ...

فقال المدير :

ـ لايوجد . لكن سيكون لديك اقتناع بأنك عملت كل ماهو ممكن .

ـ ألا نستطيع أن نترك الطفل هنا ؟

حدق عصفور بيله وكذلك الأطباء الثلاثة ازاء هذا السؤال الفظ . وكانت حماة عصفور جالسة لاتتحرك فى صورة يائسة حزينة . وتفحصها المدير مثل مثمن يحدد سعرا . وعندما تكلم ، كان شيئا قبيحا ، كان يحمى نفسه بكل وضوح :

ـ هذا مستحيل ! هذه حالة فتق مخى ، لاتنسى . مستحيل تماما !

انصتت المرأة دون أن تتحرك ، ولايزال فمها مدفونا فى كم الكيمونو الذى ترتديه .

فأعلن عصفور قائلا :

ـ اذن سوف ننقله الى المستشفى الآخر .

وافق المدير على قرار عصفور وبدأ على الفور يستعرض سلسلة من المواهب الادارية الباهرة . وعندما غادر مساعداه الغرفة على أن يتصلا بالمستشفى الجامعى وعمل الترتيبات من أجل سيارة اسعاف ، ملأ المدير غليونه ثانية وقال بنظرة ارتياح ، وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل مشكوك فيه :

ـ سوف أدع أحدا منا يركب مصاحبا فى سيارة الاسعاف ، لذا يمكنك أن تكون على يقين من أننا سنوصل الطفل بشكل آمن الى هناك .
ـ شكرا جزيلا .
ـ ومن الافضل لو أن جدتنا الحديثة مكثت هنا مع ابنتها . لماذا لاتذهب للبيت وتغير بملابسك المبتلة أخرى جافة ؟ فسيارة الاسعاف لن تكون معدة قبل نصف ساعة .

قال عصفور :
ـ سوف أفعل ذلك .

ومشى المدير اليه ، وهمس رافعا الكلفة ، وكأنه يشرع فى نكتة بذيئة :
ـ طبعا ، يمكنك منعهم من اجراء العملية اذا اخترت ذلك .

وفكر عصفور : طفل مسكين بائس !

فالشخص الأول الذى يقابله طفلى فى عالم الواقع هذا الرجل المشعر الضئيل .

لكن عصفور كان لايزال يشعر بالدوار والذهول ... فأحاسيسه بالغضب والحزن تتحطم لحظة تبلورها .

مشى عصفور وحماته والمدير معا حتى مكتب الاستقبال فى صمت متجنبين التطلع فى وجوه بعضهم البعض . وعند المدخل استدار عصفور ليقول وداعا . وردت حماته على نظرته المحدقة بعينين تشبهان عينى زوجته وكأنهما أختان ، وكانت تحاول أن تقول شيئا .

وانتظر عصفور . لكن المرأة حملقت فقط فيه فى صمت ، وانكمشت عيناها الداكنتان حتى فرغتا من التعبير . استطاع عصفور أن يحس بارتباكها ، وكأنها واقفة عارية فى شارع عام . لكن ما الذى يجعلها متضايقة لدرجة تجعلها تفقد بريق عينيها وحتى بشرة وجهها ؟ وتطلع عصفور بعيدا قبل أن تستطيع المرأة أن تخفض من حملقتها . وقال للمدير :
ـ هل المولود ولد أم بنت ؟

وانتزع السؤال جذر المدير ، فتسربت اليه تلك القهقهة الهزلية ثانية .
وقال كطبيب شاب تحت التمرين :
ـ دعنا نتيقن الآن ، أنا لا أستطيع التذكر تماما ، لكنى لدى احساس بأنى رأيت بالتأكيد ... العضو الذكرى !

خرج عصفور إلى الطريق بمفرده . لم تكن تمطر والريح قد هدأت ... وكانت السماء ساطعة وجافة . ولقد تفتق صباح منير من شرنقة الفجر المظلمة . وكانت للهواء رائحة ايام الصيف الأولى الطيبة التى جعلت كل عضلة فى جسم عصفور تسترخى وقد تباطأت نعومة الليل فى المستشفى ، وهاهو ذا الآن ضوء الصباح بانعكاساته للرصيف المبتل والأشجار المورقة وكأنها كتل جليدية واخزة فى عينى عصفور الحائرتين . كان كادحا فوق دراجته فى هذا الضوء مثل من يحفظ توازنه على لوح الغطس : وشعر عصفور بانفصاله عن اليقين الأرضى ، منعزلا وكان مثل الحجر خدرا فاقد الحس ، حشرة ضعيفة مهيأة للدغة سرطان بحرى .
يمكنك ان تسابق بهذه الدراجة الى أرض غريبة وتنقع نفسك فى الويسكى لمدة مائة يوم ... سمع عصفور صوت الالهام المريب . وأثناء هبوطه الشارع متهاديا مغسولا فى ضوء الصباح ، انتظر الصوت أن يتكلم ثانية . لكن ماكان هناك الا السكون . وفى بلادة الوتين النعسان مثل الدب الكسلان بدأ عصفور يقود دراجته ...

كان عصفور منحنيا فى ركن تناول الافطار لأخذ غيار داخلى نظيف من فوق جهاز التليفزيون عندما رأى ذراعه وتحقق أنه عار تماما وبسرعة وكأنه يلاحق بعينيه فأرا هاربا فانزلقت نظرة عجلى الى أسفل على عضوه التناسلى ، فلسعته حرارة الخجل . أسرع عصفور فى ارتداء ملابسه الداخلية ، ثم بنطلونه الفضفاض وقميصه . وكان ، الآن كذلك ، حلقة فى سلسلة الخجل التى تضم حماته والمدير . ان الجسم الانسانى الناقص ، راكب الخطر هش قابل للكسر ، ياله من أمر مخجل !

فر عصفور من الشقة مرتعدا وعيناه على الأرضية ، فرّ هابطا السلالم ، وفر عبر الرواق . وامتطى دراجته وفر من كل شىء خلفه . كان يود أن يفر

من جسده . وشعر وهو يزيد سرعة دراجته أنه يفر من نفسه أكثر مما لو كان ماشيا على قدميه .

عندما استدار عصفور داخلا الطريق الخاص بالمستشفى أسرع رجل بملابسه البيضاء هابطا السلالم ومعه مايشبه سلة من القش وشق طريقه عبر الزحام إلى المؤخرة المفتوحة لسيارة الاسعاف . وحاول الجزء الضعيف ، لين العريكة من عصفور الذى أراد أن يفر ، حاول أن يفهم المشهد ، وكأنه كان يقع على بعد سحيق وليست له أية صلة بعصفور الذى ماهو الا جوال الصباح المبكر . لكن عصفور قادر على التقدم فقط ، مثل حيوان الخلد الحفار الذى يشق طريقه بجهد منقبا فى جدار طينى خيالى عبر مقاومة لزجة عسيرة تعوقه .

نزل عصفور عن دراجته وكان يغلق سلسلة حول الاطار الأمامى عندما لسعه صوت من الخلف مروع فى استهجانه :

– انك لاتستطيع ترك هذه الدراجة هنا !

واستدار عصفور ورفع بصره الى عينى المدير المشعر المستنكرتين . ومشى رافعا دراجته على كتفه نحو الارض التى تكسوها الاعشاب والشجيرات . واتخذت قطرات المطر شكل العناقيد على أوراق الشجر فهطلت على عنقه وانزلقت الى ظهره . كان انفعاله عادة سريعا ، لكنه لم يتفوه حتى بكلمة واحدة . ومهما حدث له الآن كان يبدو جزءا من تخطيط حتمى لابد أن يقبله دون احتجاج .

طلع عصفور من الشجيرات وحذاؤه مغطى بالوحل ، وظهر المدير ليعتذر قليلا لكونه بهذه الحدة ، وقاد عصفور وهو يحيطه بذراعه القصيرة السمينة ، وقال مؤكدا ، وكأنه يفشى سرا مدهشا :

– انه ولد ! عرفت ... فلقد رأيت ذكره !

كان الطبيب ذو العين الواحدة وطبيب التخدير جالسين فى سيارة الاسعاف مع السلة واسطوانة الأوكسجين بينهما .

وحجبت ظهر طبيب التخدير محتويات السلة . لكن صوت هسيس فقاقيع

الاوكسجين الخافتة من خلال المياه التى فى القارورة كان يبلغ رسالة من ناقل سرى .

القى عصفور بنفسه على المقعد المقابل لهما .. وجلس بشكل غير مريح ... كانت نقالة قماش ممددة على المقعد . وحدق من خلال نافذة سيارة الاسعاف ، وهو يحرك مؤخرته بطريقة غير مريحة .. وارتعش . ومن كل نافذة فى الطابق الثانى وحتى من البلكونات ، كانت النساء الحاملات ينعمن النظر الى عصفور ، ناهضات من فرشهن لتوهن غالبا ، ووجوههن المغسولة منذ لحظات تسطع بياضا فى شمس الصباح . كن جميعا يرتدين ثياب النوم النايلون الرقيقة إما حمراء أو درجة من درجات الأزرق . وكانت ثياب نوم النسوة اللاتى فى البلكونات بصفة خاصة منتفخة حول كواحلهن مثل جمع من الملائكة يرقصن فى الهواء . وقرأ عصفور فى وجوههن القلق ، والترقب ، وحتى الانشراح ، ثم أسدل عينيه .

بدأت صفارة الانذار تعوى ، وسيارة الاسعاف تجرى . وزرع عصفور قدميه على الأرضية ليمنع انزلاقه من المقعد وفكر :
ـ صفارة الانذار هذه ! شىء متحرك دائما حتى الآن ... انها تقترب من على بعد ، تنطلق بقوة ، ثم تبتعد . أما حاليا فصفارة الانذار التحمت بعصفور كمرض يحمله فى جسده ... وصفارة الانذار هذه لن تنقطع .

قال الطبيب ذو العين الزجاجية ، مستديرا الى عصفور :
ـ كل شىء تمام .

كانت توجد ثقة فى موقفه ، خافتة لكن جلية ، وحرارتها تهدد فى إذابة عصفور مثل قطعة الحلوى .

فغمغم قائلا :
ـ شكرا لك .

ومحت سلبيته ظل التردد من عين الطبيب السليمة . وقبض على ثقته باحكام ودفع بها أمامه ، قائلا :
ـ هذه حالة نادرة ، بلاشك ، إنها الأولى بالنسبة لى ، أيضا .

وأومأ الطبيب لنفسه ، ثم عبر سيارة الاسعاف المترنحة برشاقة وجلس بجانب عصفور . ولم يبد عليه أنه لاحظ كم جعلت النقالة القماش المقعد متعبا .

وسأله عصفور :

ـ هل انت أخصائى مخ ؟

فقال الطبيب :

ـ أوه كلا ، انا طبيب ولادة . لايوجد رجال مخ فى مستشفانا . لكن الأعراض واضحة تماما : انه فتاق مخى ، بلا شك . وبالطبع ، كنا سنعلم أكثر لو كنا قد أخذنا عينة من النخاع الشوكى لتلك الكتلة الناتئة من الجمجمة . المشكلة فى ذلك انك قد تثقب المخ نفسه ثم تجد نفسك فى مشكلة . لذلك سنأخذ الطفل الى مستشفى آخر دون أن نلمسه . وكما قلت ، أنا فى الولادة ، لكن اعتبر نفسى محظوظا لأجد مصادفة حالة فتاق مخى ... وأملى أن أكون حاضرا عند التشريح . انك ستوافق على التشريح ، أليس كذلك ؟ قد يؤلمك التحدث عن التشريح ، لكن انظر اليه بهذه الكيفية ! ان التقدم فى الطب تقدم تراكمى ، أليس كذلك ؟ أقصد ، أن التشريح الذى نجريه على طفلك قد يعطينا مانحتاج إليه لانقاذ الطفل التالى الذى لديه حالة الفتاق المخى . علاوة على ذلك ، اذا أردت الصراحة ، اعتقد أن الطفل من الأفضل له الموت ، وكذلك لك ولزوجتك . بعض الناس لهم طريقة عجيبة بكونهم متفائلين ازاء هذا النوع من الحالات ، لكن يبدو لى أنه كلما مات الطفل أسرع كان هذا أفضل لكل من يهمه الأمر . لا أدرى ، لعله الاختلاف فى الأجيال . لقد ولدت عام ١٩٣٥ . وماذا عنك ؟

قال عصفور ، وهو غير قادر على التحول بسرعة الى التقويم الغربى :

ـ حوالى ذلك ، انى أتساءل اذا كان يعانى ؟

ـ ماذا ، جيلنا ؟

ـ الطفل !

ـ هذا يتوقف على ماتقصده بالمعاناة . أقصد ، الطفل لايستطيع أن

يرى أو يسمع أو يشم ، صح ؟ واعتقد تماما أن الاعصاب التى تبلغ الألم لاتؤدى وظيفتها ، أيضا . إنه مثل ما قال المدير ، تذكر ... نوع من الخضار . فى رأيك هل الخضار يعانى ؟

تساءل عصفور فى صمت :

ـ هل الخضار يعانى ، فى رأيى ؟ هل اعتبرت فى يوم ما أن نبتة الكرنب التى تمضغها ماعز كانت تتألم ؟

وكرر الطبيب بشغف ، ضاغطا بثقة من أجل اجابة :

ـ هل تعتقد أن طفلا من الخضار يمكن أن يعانى ؟

هز عصفور رأسه بخنوع : وكأنه يقول إن المشكلة تفوق قدرة عقله النضر على الحكم . وكان هناك وقت عندما كان لا يسلم مطلقا لشخص قد قابله لتوه ، على الأقل ليس دون الشعور ببعض المقاومة ...

وأصدر أخصائى التخدير تقريره قائلا :

ـ الأوكسجين المغذى لايقوم بواجبه جيدا !

فنهض الطبيب واستدار لفحص الأنبوب المطاطى ، وحصل عصفور على نظرته الأولى لابنه .

طفل دميم بوجه مضغوط أحمر بالغ الصغر مغطى بتجعدات وبثور شحمية . وكانت عيناه مغلقتين بإحكام مثل قوقعتين لهما مصراعان ، والأنابيب المطاطية موصلة لفتحتى أنفه ، وكان فمه مفتوحا بالتواء على صرخة بلاصوت ، ويظهر الغشاء الداخلى الوردى اللؤلؤى . وجد عصفور نفسه شبه واقف ، مشرئبا من أجل أن يلقى نظرة على رأس الطفل الملفوف بضماد . وتحت الضماد كانت الجمجمة مدفونة تحت جبل من القطن الدامى ، لكن ليس هناك مايخفى وجود شىء ما كبير وغير طبيعى .

أشاح عصفور ببصره بعيدا ، وجلس . وضغط بوجهه على زجاج النافذة ، وراقب المدينة تتلاشى . والناس فى الشارع منزعجين من صفارة الانذار ، ويتطلعون الى سيارة الاسعاف بفضول وترقب مكتوب بوضوح على وجوههم ... تماما مثلما تطلعت جماعة الملائكة الحبالى . لقد اعطوا

الانطباع بالحركة المتوقفة بشكل غير طبيعى ، مثل فيلم عالق فى آلة العرض . انهم كانوا يلمحون شرخا متناهى الصغر في السطح المنبسط لحياة كل يوم وملاهم المنظر بخوف وحيرة .

ان ابنى بضمادات على رأسه ، وكذلك كان أبوللونير « شاعر فرنسى توفى عام ١٩١٨ » عندما جرح فى ميدان القتال . فى ميدان قتال معتم ومنعزل لم أره مطلقا ، جرح ابنى مثل أبوللونير ، والآن يصرخ بلا صوت ... '

بدأ عصفور يبكى . الرأس فى ضمادات ، مثل « أبوللونير » : الخيال بسط مشاعره على الفور وقام بتوجيهها . كان يستطيع أن يشعر بنفسه تتحول الى هلام عاطفى ، ومع ذلك شعر بنفسه تحاكم وتبرأ : بل اكتشف أيضا حلاوة فى دموعه .

مثل أبوللونير ، كان ابنى جريحا فى ميدان قتال معتم ومنعزل لم أره مطلقا ، ولقد وصل ورأسه ملفوف بالضمادات . فعلى أن أدفنه كجندى مات فى الحرب .

واستمر عصفور يبكى

الفصـل الثالـث

كان عصفور جالساً على درجة من درجات الدرج أمام جناح العناية المركزة ، قابضا على فخذيه بيدين متسختين فى معركة مع التعب الذى كان يطارده منذ أن جفت دموعه ، عندما ظهر الطبيب ذو العين الواحدة من الجناح باديا عليه الاحباط . فنهض عصفور ، بينما خاطبه الطبيب قائلا :

– هذا المستشفى ، ياللعنة ، بيروقراطى للغاية ، حتى الممرضات لن ينصتن لكلمة تقولها .

لقد حل على الرجل تغيير مروع منذ ركوبهما سيارة الاسعاف معا .. كان صوته مضطرباً ، وهو يقول :

– لدى خطاب تعريف من مديرنا لبروفيسور فى الطب يعمل هنا .. انهما أقارب ! لم أتوصل حتى الى معرفة مكانه !

فهم عصفور الآن ، اكتئاب الطبيب المفاجىء . هنا فى هذا الجناح يعامل كل فرد كما لو كان طفلا : فالشاب ذو العين الزجاجية قد بدأ يرتاب فى منزلته .

وسأل عصفور ، مندهشاً هو نفسه على الشفقة التى فى صوته :

– والطفل ؟

– الطفل ؟ أوه نعم ، سوف نعرف أين نقف عندما ينتهى جرّاح المخ من فحصه . اذا كان الطفل حيا كل هذه المدة . أما اذا لم يكن .. فالتشريح سيخبرنا بالقصة كاملة . وأشك أن الطفل سيصمد لأكثر من يوم .. يمكنك أن تأتى هنا حوالى الثالثة بعد ظهر الغد . لكن دعنى أحذرك .. فهذا المستشفى يتحكم فيه بيروقراطيون حقا .. حتى الممرضات .

وكأنه كان عاقد العزم على ألا يقبل مزيدا من الأسئلة من عصفور ،

صَوب الطبيب كلتا عينيه نحو السقف ، السليمة والزجاجية سواء بسواء ، ومشى مبتعداً . فتبعه عصفور كغسالة ملابس بالأجرة ، ممسكا بسلة الطفل خاوية الى خاصرته . وعند الممر الذى يؤدى إلى الجناح الرئيسى ، انضم اليهما سائق سيارة الاسعاف وأخصائى التخدير .

وبدا على هذين الوقادين أنهما لاحظا على الفور أن المرح السابق للطبيب قد تخلى عنه . ولم يحتفظا بأى تألق بما كان لديهما عندما كانا يسابقان بسيارة الاسعاف عبر قلب المدينة وكأنها سيارة شحن منطلقة عبر أرض خلاء ، مطلقين صفارة الانذار بأعلى صوت مولول متخطين اشارات المرور التى يلتزم بها من يطبقون القانون ، وقد انتفخ زيهما الرسمى بوقار لا ريب فيه . ولكن الآن حتى ذلك قد ولى . فلاحظ عصفور من الخلف ، أن الوقَّادين كانا متشابهين مثل توأمين متماثلين . لم يعودا صغيرين ، كانا متوسطى القامة والبنية وكلاهما كان أصلع بنفس الطريقة .

قال أحدهما بعاطفة :

ـ إننا نحتاج للاوكسجين ، فى عملنا هذا ، من أول النهار لآخره .

فرد الآخر بنفس النبرة العاطفية :

ـ نعم ـ هذا ما نقوله دائما .

تجاهل الطبيب ذو العين الواحدة هذا الحوار التافه ، ولم يعرهما أى اهتمام . وأدرك عصفور ، بالرغم من أنه لم يهتم كثيرا ، أن الرجلين كانا يغذيان عبوس كل منهما ، لكنه عندما التفت إلى الشاب المسئول عن الأوكسجين أومأ بود ، فتيبس الرجل وكأنه قد سئل سؤالاً ، فنخر كالخنزير ، بعصبية :

ـ هيـه ؟

الشىء الذى اضطر له عصفور أن يتكلم ، فقال فى اضطراب :

ـ كنت أتساءل بخصوص سيارة الاسعاف .. هل يمكن أن تستعملا صفارة الانذار لفتح إشارات المرور فى طريق العودة ، أيضا ؟

ومثل توأمى الغناء الموهوبين لقسم الاطفاء ، كرر الوقادان السؤال فى انسجام :

– فى طريق العودة ؟

وتبادلا نظرة ، واحمر وجهاهما بشكل ثمل ، وأطلقا ضحكتين وسّعتا جناحى انفيهما . كان عصفور غاضبا على سخافة سؤاله وعلى اجابة الوقادين . وكان غضبه متصلا بانبوب رفيع لصهريج غضب قاتم ضخم مضغوط بداخله . غيظ لا سبيل لديه للتحرر منه كان يستفحل داخله تحت ضغط متزايد منذ الفجر .

لكن الوقادين بدا عليهما الانزواء ، وكأنهما يتأسفان على أنهما ضحكا بصفاقة على أب شاب تعيس ، وأغلق حزنهما الواضح صماما فى الخط الموصل لحنق عصفور ، حتى أنه شعر بوخزة ندم . من الذى سأل ذلك السؤال السخيف المتخاذل ، فى أول الأمر ؟ ألم يتسرب السؤال من صدع قد فتح فى مخه وحفظ فى الخل النابع من حزنه وقلة النوم ؟

تطلع عصفور داخل سلة الطفل التى يحملها تحت ذراعه . كانت حالياً مثل حفرة خاوية قد حفرت بلا ضرورة . بقيت فقط فى السلة بطانية مطوية ، وبعض القطن الماص ولفافة من الشاش . وبالرغم من أن الدم على القطن والشاش لا يزال أحمر زاهيا ، فقد فشل فى استدعاء صورة الطفل الذى كان يرقد هنا ورأسه ملفوف فى الضمادات ، مستنشقا الاوكسجين رويدا رويدا على حده من الانبوب المطاطى داخل أنفه ولم يستطع عصفور أن يتذكر بالضبط غرابة رأس الطفل ، أو الغشاء المضىء بوهن للدهن الذى يغلف جلده الملتهب . وحتى الآن ، كان الطفل يرجع القهقرى من ذاكرته بأقصى سرعة . أحس عصفور بخليط من التحرر من الذنب والخوف الذى لا أساس له . وفكر :

– قريبا سوف أنسى كل شىء عن الطفل ، الحياة التى ظهرت من ظلام مطلق ، وحام لمدة تسعة أشهر فى دولة جنينية ، وذاق بضع ساعات من الازعاج القاسى ، وهبط مرة ثانية الى الظلام والختام واللانهائية . ولن أندهش لو نسيت موضوع الطفل فوراً . وعندما يأتى موعد موتى قد اتذكر ، واتذكر ، اذا زاد علىّ الكرب والخوف من الموت ، سأكون قد وفيت قدراً ضئيلاً من التزامى كأب .

وصل عصفور والآخرون إلى المدخل الرئيسى للجناح الرئيسى . وركض الوقادان الى الباحة المخصصة لوقوف السيارات . ولما كانت مهنتهما تربطهما بالطوارىء طوال الوقت ، فلابد أن التنقل من مكان الى مكان بشكل لاهث مقطوع النفس يمثل السلوك الطبيعى تجاه الحياة . واندفع الجميع بعنف عبر الميدان الأسمنتى اللامع بأذرع متدافعة وكأن شيطانا جائعا يطبق بفكيه على مؤخرتهم . واتجه الطبيب ذو العين الواحدة الى كشك للتليفون واتصل بمستشفاه وسأل عن المدير . وشرح الموقف فى كلمات مقتضبة جداً .. فتقريبا لا توجد تطورات جديدة للابلاغ عنها . وجاءت حماة عصفور الى التليفون ، فاستدار الطبيب قائلا :

- انها أم زوجتك على الخط ، هل تريد أن تكلمها ؟

أراد عصفور أن يصيح قائلا :

- ياللجحيم ، لا !

فمنذ تلك المكالمات التليفونية المتكررة الليلة الماضية ، وقد أخذ صوت حماته ، الذى يصله من خلال الخط التليفونى كطنين البعوضة العاجز ، يطارد عصفور مثل العفريت . وضع عصفور سلة الطفل على الأرضية الأسمنتية وتناول السماعة فى اكتئاب ، وقال :

- لم يقم أخصائى المخ بفحصه بعد . لابد أن أعود غداً بعد الظهر .

قالـت :

- ولكن ما المراد من كل هذا ، أقصد ما الذى تأمل فى تحقيقه ؟

واعتصرته حماته استجواباً بنبرة صوت كان يأمل أن يتفاداها ، وكأنها تعتبره مسئولا مسئولية مباشرة .

قال عصفور :

- الفكرة أن الطفل حى إلى الآن ، وهذا حدث .

وانتحب بهاجس من الاشمئزاز خوفا من أن تتكلم المرأة ثانية . ولكنها كانت صامتة ، وجاء ، فقط من الطرف الآخر للخط ، صوت خافت لتنفس مضطرب .

فقال عصفور :
- سأحضر وأشرح لك .

وشرع فى وضع السماعة ، لكن حماته أضافت بسرعة :
- آلو ..؟ من فضلك لا تعُد الى هنا . فابنتى المسكينة تعتقد انك قد أخذت الطفل لمستشفى القلب . واذا أتيت الآن ستتشك فى الأمر . ستكون أكثر طبيعية لو جئت بعد يوم أو اثنين ، عندما تهدأ أعصابها وتقول إن الطفل قد مات من ضعف القلب . ويمكنك الاتصال دائما عن طريق التليفون .

وافق عصفور ، وكان يقول :
- سأذهب فوراً الى الكلية وأشرح ما حدث .. عندما سمع القرقعة الشديدة للاتصال وهو يتقطع بتعنت عند الطرف الآخر من الخط . وهكذا ملأه صوت حماته بالاشمئزاز أيضا . وضع عصفور السماعة مكانها والتقط سلة المولود من جديد . وكان الطبيب ذو العين الواحدة فى سيارة الاسعاف من قبل . وبدلا من أن يصعد عصفور خلفه ، وضع السلة على النقالة القماش ، وقال :
- شكراً على كل شىء .. أعتقد أنى سأرحل بمفردى .

فقال الطبيب :
- هل ستعود للبيت بمفردك ؟

فأجاب عصفور :
- نعم .. سأرحل بمفردى .

كان عليه أن يخبر حماه بظروف الولادة ، ولكن بعد ذلك قد يكون لديه وقت للتحرر . وزيارة للبروفسير ، مقارنة بالعودة لزوجته وحماته ، تحمل فى طياتها وعدا بمداواة شافية خالصة .

أغلق الطبيب الباب من الداخل وتحركت سيارة الاسعاف مبتعدة فى صمت ، ومطيعة لحد السرعة ، مثل مجرم سابق أصبح عاجزا الآن ومحروما من قوته وصوته . وخلال نفس النافذة ، التى كان يبكى منها ، من

ساعة مضت ، وهو يتطلع للمشاة فى الشارع ، رأى عصفور الطبيب وأحد الوقادين يميلان تجاه السائق . كان يعلم أنهم سيثرثرون عنه هو وطفله ، لم يضايقه ذلك . لقد جاءته إجازة غير متوقعة من المحادثة التليفونية مع السيدة العجوز ، وقتا خالصا لنفسه ليقضيه بمفرده وعلى هواه .. وضخت الفكرة دماً جديداً قوياً فى رأسه .

شرع عصفور فى عبور ميدان المستشفى ، الواسع والطويل مثل ملعب كرة القدم . وفى منتصف المسافة استدار ورفع بصره الى المبنى الذى تخلى فيه لتوه عن طفله الأول ، وليداً على حافة الموت .. مبنى ضخم بحضور مستبد متغطرس ، مثل القلعة .. متلألىء فى ضوء شمس صيف مبكر ، تجعل الوليد الذى كان يصيح بوهن فى أحد أركانه المحجوبة يبدو أضعف من ذرة رمل . وفكر عصفور :

ـ ماذا لو عدت غداً فعلاً ، قد أضيع فى متاهة هذه القلعة الحديثة وأهيم فى ارتباك ؛ وقد لا أعثر مطلقا على وليدى المحتضر أو الذى قد كان يحتضر بالفعل . حمل هذا التفكير عصفور خطوة بعيداً عن بليته . وخطا عبر البوابة الأمامية وأسرع هابطا الشارع .

★ ★ ★

الضحى .. أكثر ساعة منعشة فى يوم صيف مبكر ونسيم أحيا فيه رحلات المدرسة الابتدائية وعجل بديدان المتع الحسية الواخزة على خدى عصفور وشحمتى أذنيه المتوردتين من قلة النوم . وكلما بعدت الخلايا العصبية فى بشرته عن الكبت المتعمد شربت بتعطش أكثر حلاوة الأوان والساعة . وتصاعد فى الحال الى سطح وعيه احساس بالتحرر .

ـ قبل أن أذهب لمقابلة حماى ، سأغتسل وأحلق !

دخل عصفور أول صالون حلاقة صادفه ، فقاده الحلاق الكهل الى كرسى وكأنه زبون عادى للمحل . ولم يتبين الحلاق أى دلائل لمحنته . وكان عصفور ، بتحويل نفسه الى الشخص الذى استوعبه الحلاق ، قادراً على أن يهرب من حزنه وتوجسه . وأغمض عينيه . وأحس بمنشفة ساخنة

ثقيلة ذات رائحة مطهرة على وجهه ، عرضت وجنتيه وفكيه لبخار منعش . منذ سنوات شاهد فكاهة هزلية عن صالون حلاقة . كان لدى صبى الحلاق منشفة ساخنة جدا ، ساخنة لدرجة أنه لم يستطع أن يمسك بها ، فما كان منه الا أن ألقى بها كما هى على وجه الزبون . ومنذ ذلك الحين وهو يضحك عندما تغطى وجهه منشفة . وهاهو ذا يحس بنفسه وهو يبتسم حاليا . كان هذا زائدا عن الحد ! فارتعد عصفور ، وشتت الابتسامة وبدأ يفكر فى الطفل . ولقد اكتشف فى الابتسامة التى على وجهه دليلاً على اثمه .

موت طفل نباتى .. أخذ عصفور يتدبر فاجعة ابنه من الزاوية الأعمق وخزاً . ان موت طفل نباتى له وظائف نباتية فقط لم يكن تصاحبه معاناة . جميل ، لكن ماذا يعنى الموت لطفل كهذا ؟ أو لهذه الحياة ؟ ظهر برعم كينونة أو وجود على سهل العدم الممتد لعدد غير محدود من السنين ونما هناك لمدة تسعة شهور . بالطبع لم يكن يوجد وعى أو شعور فى الجنين ، فيلتف ببساطة فى هيئة كرة ويحيا ، مالئا تماماً عالما مخاطيا مظلما دافئا . ثم بشكل محفوف بالمخاطر يأتى العالم الخارجى . فكان عالماً بارداً جامداً خادشاً جافاً صاعق الأضواء .

كان العالم الخارجى غير محصور حتى يستطيع الطفل أن يملأه تماما بنفسه : فلابد أن يعيش مع غرباء لا يعدون . لكن من أجل بقاء طفل مثل الخضار فى هذا العالم الخارجى ، فلن يعدو هذا البقاء أكثر من بضع ساعات من المعاناة الممتنعة عن الفهم والتى لا يمكن تفسيرها .

ثم تأتى لحظة الاختناق ، ومرة ثانية ، على ذلك السهل العدمى الممتد لعدد غير محدود من السنين ، الرمل الناعم للعدم نفسه . ماذا لو أن هناك حسابا أخيرا ! تحت أى مصنف من الموتى يمكن استدعاؤه ، ومحاكمته وتوقيع عقوبة عليه .. طفل له وظائف نباتية مات حالما ولد ؟ مجرد بضع ساعات على هذه الأرض قضاها فى بكاء ، ولسانه يرفرف فى فمه الأحمر اللؤلؤى المتمدد ، ألن يعتبر ذلك أى قاض بينة غير كافية ؟ بينة ملعونة غير كافية ! وقد أستدعى كشاهد وربما لن أقدر على التعرف على ابنى إلا اذا حصلت على عينة من الورم الذى فوق رأسه . وشعر عصفور بألم حاد فى شفته العليا .

همس الحلاق ، مريحا شفرته على قصبة أنف عصفور ومتفرساً فى وجهه قائلاً :

ـ لا تتحرك ، من فضلك !

ولمس عصفور شفته العليا بطرف أصبعه وحملق فى الدم فشعر بوخزة دوار . كان دم عصفور من فصيلة « أ » ، وكذلك دم زوجته . وربما كان ربع جالون الدم السارى فى جسد طفله المحتضر من فصيلة « أ » أيضا .

أعاد عصفور يده تحت البياضة الكتانية المفرودة على صدره وأغمض عينيه ثانية . وتابع الحلاق عمله فى تردد وفى تؤدة حول الجرح الذى على شفته العليا ، ثم جز بشفرته خديه وفكيه فى عجلة مضطربة وكأنه يعوض الوقت الضائع .

ـ هل تريد غسيلا بالشامبو ؟

ـ كلا ، هذا يكفى .

فقال الحلاق معترضا :

ـ ان شعرك به كثير من التراب والعشب .

ـ اعرف ، فلقد وقعت الليلة الماضية .

ونهض من كرسى الحلاق وألقى نظرة على وجهه فى المرآة التى تلمع مثل شاطىء بحر فى الظهيرة . كان شعره ملبداً بوضوح ومتفلقا كالقش الجاف ، لكن وجهه كان ساطعاً من الوجنتين الى الفكين وردى اللون مثل بطن سمكة السلمون القزحية . لو أن نوراً قوياً كان منعكساً فى هاتين العينين صمغيتى اللون ، لو أن الجفنين المشدودين بتوتر كانا مسترخيين والشفتين الرفيعتين لا تنتفضان ، لكان عصفور أصغر وأكثر حيوية من ذلك المنعكس فى زجاج نافذة المتجر الليلة الماضية .

كان العروج على الحلاق فكرة طيبة . لقد أصبح عصفور راضيا . واذا لم يكن هناك شىء آخر ، فلقد قدم عنصراً ايجابيا واحداً فى كشف الميزانية السيكولوجى الذى مال الى السلبية منذ الفجر . وبنظرة عجلى على الدم الذى قد تجمد تحت أنفه مثل الشامة المثلثة ، غادر عصفور محل الحلاقة . وفى الوقت الذى وصل فيه الكلية كان البريق الذى تركه موسى

الحلاقة على وجنتيه قد ذبل . ولعله قد كشط بأظافره شامة الدم الذى تجمد .. ولا خطر من التأثير على حماه كشخص حزين بائس يبعث على الضحك . وكاد يبحث عن محطة اتوبيس لكنه تذكر المبلغ الاضافى الذى يحمله فى جيبه فنادى على سيارة أجرة مارة .

نزل عصفور من سيارة الأجرة فى جمهرة من الطلبة المندفعين عبر البوابة الرئيسية فى طريقهم لتناول وجبة الغداء : الثانية عشرة وخمس دقائق . وفى المدينة الجامعية أوقف شخصاً جسيماً وسأله عن الطريق الى قسم اللغة الانجليزية . ولاندهاشه رسم الطالب ابتسامة على وجهه وأخذ ينشد بحنين للماضى ، ثم قال :

– مضى وقت طويل ، ياأستاذ ، ولم نتقابل !

ارتعب عصفور ، واردف الشاب قائلا :

– لقد كنت مدرسى فى مدرسة التقوية ، فلم تصلح لى أى من المدارس الحكومية . لذا جعلت الرجل العجوز يضع بعض النقود هنا ودخلت ، كما تعلم ، من الأبواب الخلفية .

فقال عصفور بارتياح بعد تذكره للطالب :

– اذن انت طالب هنا حاليا .

على الرغم من أنه لم يكن مهندما ، كانت للشاب عينان جاحظتان كصحنى فنجان وأنف بصلى الشكل يعيد للذاكرة صور الفلاحين الألمان فى "حكايات جريم" الخرافية .

قال عصفور :

– يبدو أن مدرسة التقوية لم تكن مفيدة لك كثيراً .

– بالعكس ، ياذوق ! فالدراسة ليست مضيعة للوقت أبداً . قد لا تذكر أى شىء لكن ، تعرف ، أن الدراسة دراسة !

ارتاب عصفور من انه يسخر منه ، وحدق فى الصبى باندهاش ، لكن الطالب كان يحاول بكل جسمه الضخم أن يعبر عن نيته الطيبة .

وتذكر عصفور بحيوية هذا الطالب الذى كان بليدا بشكل واضح فى

فصل دراسى من مائة طالب . ولهذا السبب كان قادراً على أن يقر ببساطة ومرح أنه دخل كلية خاصة درجة ثانية عبر الأبواب الخلفية ، وأن يعبر عن امتنانه للفصول الدراسية التى أفادته بلا شىء . وإن كان واحدا من التسعة والتسعين طالبا الآخرين لحاول تجنب مدرسهم فى مدرسة التقوية . وقال عصفور :

ـ مع ارتفاع مصروفاتنا المعروف ، فمن الارتياح أن أسمعك تقول ذلك .

ـ أوه ، انها تستحق كل قرش . هل ستدرس هنا ؟

هز عصفور رأسه نافياً ، ووسع الطالب حديثه بلباقة قائلاً :

ـ أوه .. دعنى أصحبك الى القسم الانجليزى ؛ انه من هنا . لكن بجد ، ياذوق ، الدراسة التى قمت بها فى مدرسة التقوية لم تكن هباء . فكل ما تعلمته لا يزال فى رأسى فى مكان ما ، يترسب بشكل ما ؛ وفى يوم ما سيأتى . مجاله للاستعمال . انها مجرد مسألة انتظار للوقت المناسب .. أليست هذه هى الدراسة فى التحليل النهائى ، ياذوق ؟

تبع عصفور تلميذه القديم المتفائل النزّاع للوعظ ، وعبر ممشى محفوفا بالأشجار المزهرة وجاء الى واجهة مبنى من الطوب الأحمر ، وقال الصبى باعتزاز :

ـ القسم الانجليزى فى الطابق الثالث بالخلف . كنت فى غاية السعادة لقدومى الى هنا ، استكشفت المدينة الجامعية الى أن عرفتها مثل راحة يدى .

وتركه بابتسامة عريضة بشكل معبر عن السخرية بالنفس حتى شك عصفور فى عينيه ، وأردف الصبى قائلا :

ـ أبدو لك ساذجا الى حد كبير ، أليس كذلك ؟

ـ اطلاقا ، ليس لهذا الحد .

ـ انه لطف منك أن تقول ذلك .. حسن اذن ، سوف أراك ثانية ، ياذوق . لكن أرجو الاعتناء بنفسك .. فأنت تبدو شاحبا قليلاً !

وفكر عصفور وهو يصعد السلم :

ـ ذلك الفتى سيتدبر حياته المستقبلية ببراعة أكثر منى ، على الأقل لن

يحوم حول انجاب أطفال يموتون بفتق مخ . لكن ياله من طالب اخلاقى فريد وغريب كان فى أحد فصوله !

انعم عصفور النظر من الباب داخل مكتب قسم اللغة الانجليزية ، وكشف مكان حماه . ففي شرفة صغيرة ممتدة من الركن القصى للحجرة ، كان البروفسير مسترخياً على كرسى هزاز من خشب البلوط ومحلقا من الكوة المفتوحة جزئيا نحو السماء . المكتب يوحى بأنه قاعة مؤتمرات ، اكبر كثيرا وأكثر اضاءة عن مكاتب القسم الانجليزى فى الجامعة التى قد تخرج فيها عصفور . وكثيرا ما كان حمو عصفور يقول (راويا القصة بتهكم ، مثل نكتة مفضلة عن نفسه) إن المعاملة التى تلقاها فى هذه الكلية الخاصة شاملة تسهيلات مثل الكرسى الهزاز كانت أفضل بشكل لا يقارن بما اعتاد عليه فى الجامعة القومية . وكان عصفور يستشف من ذلك قصة أكثر منها نكتة . واذا غدت الشمس أكثر قوة ، فما كان هناك الا أحد اختيارين ، تحريك الكرسى للخلف أو إظلال الشرفة بالمظلة .

وعلى منضدة كبيرة قرب الباب كان ثلاثة مساعدى تدريس بوميض زيت على وجههم الضاربة للحمرة يتناولون فنجانى القهوة ، بعد الغداء على ما يبدو . كان عصفور يعرف ثلاثتهم جميعا بالنظر : طلاب امتياز كانوا فى فصل سابق له بالكلية . ولولا حادث الويسكى وانسحاب عصفور من الدراسات العليا ، لوجد نفسه بالتاكيد متواصلا معهم فى العمل .

قرع عصفور الباب المفتوح ، وخطا داخل الحجرة وحيا سابقيه الثلاثة فى التخرج . ثم عبر الحجرة الى الشرفة ، فالتفت حماه يراقبه أثناء اقترابه ، ملقيا برأسه للخلف ، وازنا نفسه على الكرسى الهزاز . وراقبه المساعدون أيضا بابتسامات متماثلة بلا معنى معين . حقا ، كانوا يعتبرون عصفور ظاهرة لها بعض الندرة ، ولكن فى نفس الوقت كان خارج هيئتهم التدريسية ، لذلك لم يكن موضع اهتمام جاد .. ذلك الشخص الهزلى ، غريب الأطوار الذى دخل فى صخب طويل دون سبب فى العالم وأخيراً انسحب من الدراسات العليا .. شىء من هذا القبيل .

قال عصفور :

- بروفسير !

وذلك حسب العادة الراسخة قبل أن يتزوج من ابنة الرجل العجوز . فتأرجح حماه مع الكرسى ليواجهه ، فأصدر خشب الكرسى صريراً على الأرضية ، وأجلس عصفور على كرسى دوار له مسندان طويلان للذراعين بإشارة من يده ، وسأل :

- هل تمت الولادة ؟

- نعم ، تمت الولادة ..

وجفل عصفور لسماعه صوته يذوى إلى احتجاج خافت ، فأغلق فمه . ثم أجبر نفسه على أن يقولها فى نفس واحد :

- الطفل لديه فتق مخ والطبيب يقول إنه سيموت غداً أو بعد غد ، والأم بخير !

تحولت بهدوء البشرة الدبقة لوجه البروفسير الأسدى الكبير الى اللون القرمزى . حتى الانتفاخات المرتخية على جفنيه السفليين سطع لونها ، وكأن الدم ينز خلالها . وأحس عصفور بهذا اللون يرتفع إلى وجهه هو . وأدرك ثانية كم أصبح وحيداً وعاجزاً منذ الفجر .

- فتق مخ ؟ هل رأيت المولود ؟

استبان عصفور حميمية مخفية لصوت زوجته حتى فى البحة الحادة للبروفسير ، وهذا ما جعله يفتقدها ، فقال :

- نعم ، فعلت ، كان رأسه فى ضمادات مثل أبوللينير .

جرب البروفسير الكلمات على لسانه هو وكأنه يتأمل السطر اللاذع لمزحة مقتضبة . وعندما تكلم ، لم يكن كلامه موجها كثيراً لعصفور كما هو للمساعدين الثلاثة :

- فى هذا العصر الخاص بنا من الصعب الجزم بالقول بأن كونك تحيا أفضل من كونك لم تولد من الأصل .

ضحك الشبان الثلاثة وهم يقاومون ، ولكن بصوت مسموع .. والتفت عصفور وحملق فيهم . فحملقوا فيه ، وكانت نظرات عيونهم الثابتة تعنى أنهم لم يكونوا مندهشين أن يقع لشخص مهووس مثل عصفور ، حادث

استثنائى عجيب .. فنظر عصفور بامتعاض الى حذائه الموحل ، وقال :
- سأتصل بك عندما ينتهى الأمر .

هز البروفسير كرسيه - غالبا - دون شعور منه ، ولم يقل شيئا . وخطر فى بال عصفور أن حماه قد يكون أحس بشىء من الغثيان بدلًا من الرضا الذى عادة ما يمنحه له الكرسى الهزاز .

كان عصفور صامتا ، أيضا ، واستطاع أن يشعر بأنه قال كل شىء من واجبه أن يقوله . هل سيستطيع أن يصل لهذه النتيجة الواضحة البسيطة عندما يأتى الوقت ليبوح بالسر لزوجته ؟ لا يمكن .. فستكون هناك دموع واستفسارات حمولة لورى واحساس بالعبث وعدم جدوى الحديث السريع ، وحلق موجوع ، ورأس فائر .. وفى النهاية حبل من الأعصاب الصارخة يغل السيد عصفور وحرمه .

وأخيرا قال عصفور :
- من الأفضل أن أعود ، فلا تزال هناك أوراق للتوقيع عليها بالمستشفى .

فقال البروفسير غير مظهر أية علامة لنهوضه من فوق كرسيه الهزاز :
- انه كرم منك أن تكلف نفسك بالمجىء .

واعتبر عصفور نفسه محظوظا أنه لم يطلب منه البقاء أطول من ذلك ، ووقف ، فقال له البروفسير :
- توجد زجاجة ويسكى فى ذلك المكتب ، خذها معك .

تيبس عصفور واستطاع أن يشعر بتوتر المساعدين الثلاثة . فلابد أنهم كانوا على علم ، وكذلك حماه ، بحالة السكر المشئومة ، واحس حاليا بعيونهم تشرع فى تعقب تطور الحادث . وفى تردد ، استدعى عصفور سطرا من الكتاب الانجليزى الذى كان يقرؤه مع الطلاب ؛ حيث كان شاب أمريكى يتحدث قائلا بغضب :
- أتسخرون منى ؟ اتتحدوننى وتريدون نزالى ؟

ومع ذلك ، انحنى عصفور نحو الأمام ، وفتح مكتب البروفسير وسحب

زجاجة «جونى واكر» بكلتا يديه . وأصبح قرمزى اللون حتى مقلتيه ، الا أنه شعر بفرح محموم ملتو . يطلبون من رجل أن يدوس على الصليب ليجعلوه يثبت أنه ليس مسيحياً .. حسنا ، فلن يرونه متردداً !

وقال عصفور :

ـ شكـراً .

استرخى المساعدون الثلاثة ، وانشغل البروفسير بإدارة كرسيه ببطء الى وضعه الأصلى ورأسه منتصب ووجهه لا يزال قرمزياً ورخواً . وألقى عصفور نظرة عجلى إلى الشبان وحياهم بانحناءة عجلى وغادر الحجرة .

احتفظ عصفور بقبضة حذرة على زجاجة الويسكى عند نزوله السلالم وسيره فى الفناء الحجرى ، وكأنها قنبلة يدوية . أصبح بقية اليوم ملكه يقضيه كما يحلو له .. وغاصت الفكرة فى ذهنه بصورة «الجونى واكر» (جونى الماشى) الملصقة على الزجاجة ، وأزبدت وعدا بالبهجة والمجازفة . وفكر :

ـ غدا ، أو بعد غد ، أو ربما بعد أسبوع ، تكون زوجتى قد علمت بوفاة المولود البائس . وعندئذ سنسجن نحن الاثنين فى زنزانة من اضطراب الاعصاب القاسى .

وهكذا .. تناقش عصفور بالصوت الفقاعى للادراك داخله .

لدى حق كامل فى زجاجة ويسكى وفى قليل من الحرية .

وانهارت الفقاعة بهدوء .

جميل ! دعنا نعود للشرب ، وفكر عصفور أولا فى الرجوع الى شقته ليشرب فى حجرة مكتبه ، لكن من الواضح أنها فكرة سيئة . اذا عاد ، فقد تحاصره صاحبة البيت العجوز واصدقاؤه ، بالتليفون ان لم يكن شخصياً ، مع استفسارات تفصيلية عن الولادة ؛ الى جانب ، أنه عندما يتطلع فى حجرة النوم ، سيمزق أعصابه مهد المولود الأبيض المزين مثل سمكة القرش المفترسة . وهز عصفور رأسه بفظاظة وطرد الفكرة من عقله . لماذا لا يعكف فى فندق رخيص حيث يلاقى أغراباً فقط ؟ لكن عصفور تصور

نفسه مخموراً فى حجرة فندق مغلقة فشعر بالخوف . وتفرس عصفور بحسد فى الرجل الاسكتلندى المبتهج فى سترته المخططة الحمراء ماشيا مباعداً ساقيه فى خطوات واسعة عبر ملصق جونى واكر . الى أين هو متجه بهذه العجلة ؟ وفجأة تذكر عصفور صديقة قديمة . كانت دائما ، شتاء وصيفاً ، على السواء ، مستلقية فى حجرة نومها المعتمة أثناء النهار ، متأملة فى شىء غاية فى الميتافيزيقية أثناء تدخينها المتواصل حتى يتعلق الضباب الصناعى فوق سريرها . ولا تغادر المنزل أبداً الا بعد هبوط الليل .

وقف عصفور ينتظر سيارة أجرة خارج بوابات الكلية مباشرة . وعبر النافذة الواسعة فى المقهى الواقع فى الجهة المقابلة من الشارع استطاع أن يرى تلميذا من تلاميذه السابقين مع بعض الأصدقاء حول إحدى الموائد . وانتبه الطالب لعصفور على الفور ، وشرع كجرو حنون يرسل اشارات تحية صادقة بشكل أخرق . وحدق اصدقاؤه أيضا فى عصفور بفضول بليد مبهم . كيف يقدم عصفور الى أصدقائه ؟ كمدرس لغة انجليزية أخرج نفسه من كلية الدراسات العليا بسبب السُكْر ، رجل فى قبضة هوى لا يمكن تفسيره ، أو ربما تحت تأثير خوف مجنون ؟

ابتسم الطالب نحوه بتشبث حتى أصبح داخل سيارة الأجرة . وأحس عصفور أثناء انطلاق السيارة بأنه قد تلقى لتوه صدقة أو احسانا . ومن صبى لم يتعلم ابداً ـ بعد كل الوقت الذى قضاه فى مدرسة التقوية ـ أن يميز الصيغ الانجليزية للمصدر من اسم الفاعل ، تلميذ سابق بمخ لا يزيد حجمه على مخ قطة !

كانت صديقة عصفور تقطن فوق أحد تلال المدينة العديدة ، فى حى مطوق بالمعابد والجبانات . وكانت الفتاة تعيش بمفردها فى منزل بالغ الصغر فى نهاية زقاق . التقى بها عصفور فى فصل مختلط فى أكتوبر من السنة الأولى بالجامعة ، عندما جاء دورها لتقف وتقدم نفسها ، فتحدت طلاب الفصل فى أن يخمنوا مصدر اسمها غير العادى : هيميكو .. "طفلة الاشارات النارية" . وأصاب عصفور فى اجابته بأن الاسم قد أخذ من

السجلات التاريخية لاقليم هيجو القديم .. أمر الامبراطور بحارته البارعين بالتجديف قائلا :

"هناك فى الافق اشارة نارية تحترق ، اتجهوا اليها فوراً" .

وبعد ذلك أصبح عصفور والفتاة هيميكو (من جزيرة كيوشو) صديقين .

كانت توجد نسبة ضئيلة من الفتيات فى جامعة عصفور ، مجرد حفنة فى قسم العلوم الإنسانية اللاتى جئن الى طوكيو من الاقاليم . وكلهن ، الى حد علم عصفور ، قد اجتزن تحولاً جذرياً وأصبحن شخصيات مشوهة شاذة ليس لها صنو وذلك بعد التخرج مباشرة . أخذت نسبة معينة من خلايا أجسامهن فى النمو ببطء ، وتعنقدت وتعقدت حتى أصبحت الفتيات يتحركن فى تبلد ويبدون كليلات وسوداويات . وفى النهاية أصبحن لا يصلحن بتاتا لحياة ما بعد التخرج اليومية . فإذا تزوجن ، يطلقن ؛ واذا ذهبن للعمل ، يرفتن ؛ وهؤلاء اللاتى لم يفعلن شيئاً سوى السفر لقين حوادث سيارات شنيعة ومضحكة . أما هيميكو ، فلقد تزوجت بعد التخرج بقليل من خريج مثلها ، ولم تطلق . بل حدث لها ما هو أسوأ ، فبعد الزواج بسنة انتحر زوجها . لقد اهداها حماها المنزل الذى كانت تعيش فيه مع زوجها ، ولا يزال يزودها بالمال كل شهر لتغطية نفقات المعيشة . ويأمل أن تتزوج هيميكو ثانية . ولكنها حاليا كرست أيامها للتأمل والتجول بالمدينة بسيارة رياضية كل ليلة .

لقد سمع عصفور شائعات صريحة أن هيميكو كانت لها مغامرات جنسية وانها انسلخت عن العرف والتقاليد . حتى أن الشائعات ارجعت انتحار زوجها إلى انحرافها . لقد نام عصفور مع الفتاة مرة واحدة فقط ، لكن كان كلاهما مخموراً بشكل فظيع ، ولم يكن حتى متأكداً أن الجماع قد وقع . كان ذلك قبل زواج هيميكو بوقت طويل ، وعلى الرغم من أنها قد جرفتها رغبة عارمة ولاحقت متعتها باستفحال ، فلم تكن هيميكو ، فى تلك الأيام ، أكثر من فتاة جامعية غرة ، قليلة التجربة .

نزل عصفور من سيارة الأجرة عند مدخل الزقاق حيث تقطن هيميكو . وعدّ ، بسرعة ، النقود المتبقية فى محفظته ؛ فوجد أنه لن تحدث أية

مشكلة لو جار على مرتب الشهر الذى سيقبضه بعد درس الغد .

دس عصفور زجاجة الجونى واكر فى جيب سترته وأسرع مهرولا فى الزقاق ، مغطياً عنق الزجاجة بيده . فلم يكن من المستعبد ، بعد أن عرف الجيران كلهم حياة هيميكو المنحرفة ، أن يراقبوا الزوار خفية من النوافذ هنا وهناك .

ضغط عصفور على الجرس الطنان فى المدخل ، فلم يلق اجابة . فطرق الباب عدة مرات ونادى على هيميكو برفق .. مجرد اجراء . ومشى عصفور حول المنزل فرأى فى الجهة الخلفية سيارة "إم . جى" مستعملة يعلوها الغبار مركونة تحت نافذة حجرة نوم هيميكو . وبدت الـ "إم . جى" القرمزية بمقاعدها الخاوية المكشوفة مهجورة لم تستعمل لمدة طويلة . لكن كانت دليلاً على أن هيميكو فى البيت . وارتكز عصفور بحذائه الموحل على المصد المنبعج بشكل سيىء وحمل وزنه عليه . فاهتزت الـ "إم . جى" بلطف ، مثل الزورق . ونادى عصفور هاتفا باسم هيميكو ثانية ، رافعا بصره الى نافذة حجرة النوم المغطاة بالستائر . انقشعت الستائر قليلا من داخل الحجرة عند نقطة لقياها ، وتطلعت عين من خلال الفتحة الضيقة الى أسفل نحو عصفور . فتوقف عصفور عن هز الـ "إم . جى" ، وابتسم .. كان دائما يتصرف بحرية وطبيعية أمام هذه الفتاة .

قالـت :

ـ هاى ! عصفور !..

بدا صوتها الذى تعترض سبيله الستائر وزجاج النافذة مثل تنهيدة واهنة ساذجة .

وعرف عصفور أنه قد اكتشف المكان الأمثل للشروع فى احتساء زجاجة الجونى واكر فى وسط النهار . شاعراً وكأنه قد دخل درجة واحدة أكثر بالزائد فى كشف الميزانية السيكولوجى لليوم ، ومشى عائداً الى واجهة المنزل .

قال عصفور عندما فتحت له هيميكو الباب :
ـ أرجو ألا تكونى نائمة .

قالت الفتاة مشاكسة :
ـ نائمة ؟ فى هذه الساعة ؟

رفعت هيميكو احدى يديها لتحجب عنها شمس الهاجرة بلا جدوى ؛ فالضوء القادم من وراء عصفور هبط بهياج على عنقها وكتفيها العاريتين حيث ينشق برنس الحمام البنفسجى المصنوع من قماش البشكير . كان جد هيميكو صياداً فى كيوشو . اتخذ كزوجة له فتاة روسية من فلاديفوستك ، فى الواقع خطفها . وهذا ما يفسر بياض بشرة هيميكو ؛ فيمكنك أن ترى نسيج الشعيرات الدموية تحت السطح مباشرة . وبدت فى الطريقة التى تتحرك بها ، أيضا ، شيئا يوحى بارتباك المهاجر الذى ليس على راحته تماما أبداً فى بلده الجديد .

ومع اجفالها من اندفاع الضوء خطت هيميكو للخلف فى ظل الباب المفتوح بسرعة الدجاجة الأم منفوشة الريش . كانت فى المرحلة العقيمة للأنوثة ، بين الجمال الأخاذ لفتاة صغيرة ، الذى كادت تفقده والاكتمال المتفتح للمرأة الناضجة الذى لم يأت بعد . ولعل هيميكو كانت من النساء اللاتى يقضين وقتا طويلا فى هذه الحالة المتراوحة .

وبسرعة ، لكى يحمى صديقته من الضوء البواح للمستور ، دخل عصفور وأغلق الباب وراءه . وللحظة شعر أن الفراغ الضيق للمدخل يشبه جوف قفص له غطاء . أغمض عصفور عينيه وفتحهما بسرعة أثناء خلعه حذاءه ، محاولاً أن يعود عينيه على العتمة . وحامت هيميكو فى الظلام خلفه فى تيقظ .

قال عصفور :

ـ لا أحب أن أزعج الناس فى نومهم .

فقالت له :

ـ انك هلع أكثر من اللازم اليوم ياعصفور . على أية حال لم أكن نائمة ؛ اذا غفلت اثناء النهار فلن أستطيع النوم مطلقا بالليل . كنت أفكر فى تعدديه الكون .

فكر عصفور :

ـ تعددية الكون ؟ موضوع عظيم للغاية ، يمكننا مناقشته مع الويسكى .

وتبع هيميكو محدقا حوله مثل كلب الصيد الذى يقوده أنفه نحو الأثر . وفى حجرة المعيشة وكأنها فى المساء ، والظلمة معتمة وراكدة مثل سرير من القش لمواش مريضة . حول عصفور بصره الى الكرسى القديم من خشب الأسل الهندى المتين حيث كان يجلس دائما ، وقعد باحتراس بعدما أزاح بعض المجلات . كانت هيميكو لا تشعل الانوار ولا حتى تفتح الستائر الى أن تأخذ حمامها وتغير ملابسها وتتزين ، وعلى الصحبة أن تنتظر فى الظلام . وفى زيارته الأخيرة لها ، قبل سنة ، داس عصفور على كأس من الزجاج شج ابهام قدمه .. وبتذكره الألم والهلع ارتعدت فرائصه .

كان من الصعب تحديد مكان يضع فيه زجاجة الويسكى .. كانت الفوضى محكمة من كتب ومجلات ، وصناديق وزجاجات فارغة ، وقواقع وسكاكين ، ومقصات ، وزهور ذابلة وعينات من الحشرات ، وخطابات مفتوحة ومقفلة تغطى الأرضية والمائدة كلها . بل حتى رف الكتب تحت النافذة ، وجهاز التسجيل ، والتليفزيون . تردد عصفور ، ثم مسح مساحة صغيرة على الأرضية بقدميه وحشر الزجاجة بين كعبيه .

وقالت هيميكو وهى تراقب الباب وكأنها تقوم بالتحية :

ـ لم أتعلم الترتيب بعد كما ترى .. هل كل شىء كما كان آخر مرة كنت هنا ؟

ـ اللعنة صحيح كانت هكذا ، حتى أنى جرحت قدمى أيضا !

واستغرقت هيميكو فى الذكريات قائلة :

– طبعا ، اذكر الأرضية حول الكرسى امتلأت بالدم ، أليس كذلك ؟ انه عمر ياعصفور . ولكن لا شيء تغير هنا . وأنت ؟ كيف حالك ؟

– فى الحقيقة ، وقع لى حادث .

– حـادث ؟

تردد عصفور ، فلم يكن فى تخطيطه أن يبدأ مباشرة بمشاكله ؛ فقال مبسطا الأمر :

– لقد رزقنا بمولود ولكنه مات على الفور .

– كلا ! صحيح ؟ لقد حدث نفس الشيء لصديقتين لى ! يعنى ثلاثة أشخاص أعرفهم . الا تظن أن لأثر الاشعاعات علاقة ما ؟

حاول عصفور مقارنة طفله الذى يبدو أن له رأسين بالصور التى قد رآها للتغير المفاجيء للمواليد بتأثير النشاط الاشعاعى ، وهى تحولات طارئة على الصبغيات (الكروموسومات) . لكن عليه فقط أن يفكر فى نفسه ازاء شذوذ المولود . وصعد بحدة احساس بخجل شخصى شديد الى حلقه . كيف يمكنه أن يناقش المحنة مع الآخرين ، انها متأصلة فيه !.. إنه هم لن يستطيع أبداً أن يتقاسمه مع بقية البشر . قال :

– فى حالة ابنى ، من الواضح أنها مجرد حادثة .

قالت هيميكو :

– يالها من تجربة مروعة بالنسبة لك ياعصفور !

ونظرت اليه بهدوء بتعبير فى عينيها أغشى جفونها بغمامة . لم يشغل عصفور نفسه بالرسالة التى فى عينى هيميكو ، ورفع زجاجة الجونى واكر ، وقال :

– أردت مكانا للشرب وكنت أعرف أنك لن تمانعى حتى لو كان فى عز النهار . هل لك فى نخب معى ؟

أحس عصفور أنه يتملق الفتاة مثل أى قواد فتى "چيجولو" مبتذل . لكن تلك كانت الطريقة التى عادة ما يتصرف بها الرجال الذين عرفتهم هيميكو معها . والرجل الذى تزوجته كان اكثر علانية من عصفور أو أى

صديق آخر فى تملقه لها وكأنه شقيق أصغر . وفجأة ذات صباح شنق نفسه .

قالت :

ـ أرى موت الطفل مازال عالقاً فى داخلك . إنك لم تسترد عافيتك بعد .. حسنا ، اننى لن أسألك أى شىء أكثر عن ذلك .

قال :

ـ هذا أفضل . ثم ليس هناك ما يذكر على أية حال .

قالت :

ـ هل سنشرب نخباً ؟

ـ عظيم .

ـ أريد أن آخذ حماما . لكن ابدأ أنت ياعصفور ! عندك الكئوس والابريق فى المطبخ .

اختفت هيميكو فى حجرة النوم ونهض عصفور . كان المطبخ والحمام يشتركان فى انعطافة طرف الصالة التى تبلغ مؤخرة المنزل الصغير . قفز عصفور فوق قط رابض على الأرضية ، وتحاشى أن يدوس برنس الحمام والملابس الداخلية التى نزعتها هيميكو لتوها ، ودخل المطبخ . وفى طريق عودته بابريق ماء ، وأكواب وكئوس غسلها بنفسه ، اثنين فى كل جيب ، لمح مصادفة من الباب الزجاجى المفتوح هيميكو تستحم تحت "الدوش" فى مؤخرة الحمام الأكثر عتمة من الصالة . رآها رافعة يدها اليسرى كأنها تتحسس حرارة المياه المنسكبة من العتمة التى فوق رأسها ، ويدها اليمنى مستقرة على بطنها ، ناظرة أسفل من فوق كتفها الأيمن إلى ردفيها وبطن ساقها المنحرفة قليلا ، فرأى عصفور الظهر والردفين والساقين ، وملأه المنظر بتقزز لم يستطع قمعه واقشعر جلده . شب عصفور على أطراف أصابع رجليه وكأنه يهرب من ظلام تسكنه العفاريت ، ثم ركض مرتعشا ماراً بحجرة النوم عائدا الى الكرسى المعهود المصنوع من أسل الهند . لقد اجتاحه ، لا يعرف متى ، الشعور نفسه ، والآن تيقظ ثانية فيه ، هذا النفور الصبيانى ، الممزوج بالقلق ازاء الجسد العارى . كان عصفور يحس أن اخطبوط هذا الاشمئزاز قد يمد مجساته ويطوقه بها حتى عندما يقترب

من زوجته ، الراقدة الآن فى فراش المستشفى مشغولة بالمولود الذى ذهب مع أبيه الى مستشفى آخر بسبب قصور فى القلب . لكن هل يدوم هذا الشعور طويلا ؟ هل سيتفاقم ؟

كسر عصفور الختم الذى على الزجاجة بأظافره وسكب كاسا لنفسه . كانت يده لا تزال ترتجف ، فأخذت الكأس تصطك بالزجاج مثل فأر غاضب . عبس عصفور كرجل عجوز كتوم وقذف الويسكى فى حلقه دفعة واحدة . ياالهى انه يحرق الحلقوم ! وهزه السعال ودمعت عيناه . لكن سهم المتعة الأحمر الساخن اخترق معدته فى الحال ، وتوقفت الرعدة . وتجشأ كطفل ابتلع كمية من الفراولة البرية ، ومسح شفتيه المبتلتين بظهر يده ، وملأ كأسه ثانية بيد واثقة هذه المرة . كم ألف ساعة تحاشى الشرب ؟ وبشىء يشبه الحقد ، لم يكن ضد أحد معين ، أفرغ كأسه الثانية . لم يشتعل حلقه هذه المرة ، لم يسعل ، ولم تدمع عيناه .

ورفع زجاجة الجونى واكر ليدرس الصورة التى على الملصق . وبتنهيدة جذلى شرب الكأس الثالثة .

ومع عودة هيميكو كان عصفور قد بدأ يسكر . وبدخولها الغرفة رفع الاشمئزاز رأسه ، ولكن سم الكحول خدره . ثم أن الفستان الأسود الذى كانت ترتديه قلل من تهديد الجسد الذى يغطيه .. مثل كتلة من الشعر الأشعث ، جعلها تشبه دب الرسوم المتحركة المضحك . وبعدما مشطت هيميكو شعرها أضاءت النور . أفسح لها عصفور مكاناً ووضع كوبا وكاسا وصب لها بعض الويسكى وكوب ماء . جلست هيميكو على كرسى ضخم من الخشب المحفور ممسكة ثوبها بحرص شديد حتى لا يظهر من بشرتها النظيفة النضرة أزيد من الضرورى . فكن لها عصفور الامتنان . وكان يتغلب تدريجيا على نفوره ، لكن هذا لم يكن يعنى أنه اجتزه من جذوره .

قال عصفور وهو يصب كأسه :

ـ ها نحن اذن !

قالت هيميكو وهى تنتىء شفتها السفلى مثل إنسان الغاب آخذة عينة

من النكهة ، وأخذت رشفة صغيرة من الكأس :
ـ هانحن اذن !

جلسا فى مكانهما بهدوء يلسعان الهواء بأنفاس الويسكى الحارة ، ولأول مرة التقت عيناهما . لم تكن هيميكو قبيحة وهى منتعشة بعد استحمامها ، ولعل المرآة التى جفلت من ضوء الشمس كانت أم هذه الفتاة . وأحس عصفور بالرضا . لحظات الانبعاث الروحى المذهلة لا يزال من الممكن حدوثها فى عمر هيميكو حيث قالت :
ـ فكرت فى قصيدة وأنا استحم ، هل تذكرها ؟

وهمست هيميكو بسطر من قصيدة انجليزية وكأنها تعويذة . وأنصت عصفور وطلب منها أن تعيدها ثانية .

فقالـت :
ـ الأولى أن نقتل مولودا فى المهد عن أن نرعى رغبات لا يمكن تطبيقها .
ـ مع ذلك لا يمكن قتل جميع المولودين فى مهادهم .. من الشاعر ؟
ـ وليم بليك . تذكر كانت رسالتى عنه .
ـ طبعا ، كنت مشغولة به .

أدار عصفور رأسه واكتشف لوحة لوليم بليك معلقة على الحائط المجاور لحجرة النوم . لقد رآها عدة مرات لكنه لم يكن ينظر لها باهتمام . لكنه الآن لاحظ كم هى غريبة . ساحة عامة ، محاطة بمبان على طراز الشرق أوسطى . وفى الوسط هرمان نمطيان .. لابد أنها مصر . يغمر المشهد نور الفجر .. أم أنه كان الغسق ؟ وفى وسط الساحة جثة شاب منبطحة مثل السمكة ببطن مشقوق . بجواره أمه المذهولة ، محاطة بشيوخ يحملون فوانيس ونساء يهدهدن أطفالاً . لكن المشهد كان يسيطر عليه حضور لعملاق منقض عبر الساحة بذراعين منبسطتين فوق الجميع . هل هذا بشر ؟ كان الجسد العضلى الجميل مغطى بحراشيف السمك . عيناه تنضحان بأسى منذر بسوء ؛ والفم تجويف فى الوجه عميق لدرجة أنه ابتلع الأنف .. انه فم السمندر . "حيوان من الضفدعيات" هل هو شيطان ؟

إله ؟ كان الكائن يبدو محلقاً فى العلا ، متلمسا الوصول الى شغف سماء الليل حتى اثناء احتراقها بلهب حراشيفه الخاصة .

سأل عصفور :

– ماذا يفعل ؟ هل هو تكسوه الحراشيف أم يرتدى زرداً كفرسان القرون الوسطى ؟

قالت هيميكو :

– أظن أنها حراشيف . كانت خضراء فى لوحة ألوان الرسام فكانت تشبه الحراشيف أكثر . انه الطاعون ! يفعل ما فى وسعه للقضاء على ابناء مصر القدماء !

لم يكن عصفور يعرف الكثير عن الكتاب المقدس ؛ ربما كان مشهدا من الخروج – لبنى إسرائيل من مصر . على أية حال ، كانت عينا الكائن وفمه متنافرة بخبث وبشاعة . فالحزن والخوف والذهول والاعياء الوحدة .. بل ونذر من ضحك كانت تتفجر بلا حدود من عينيه الفحمتين وفم السمندر .

قالت هيميكو :

– الا ترى أنه بارع ؟ ! كان رساما يميل لأعمال الحفر .

– انك تحبين الرجل ذا الخراشيف ؟

– طبعا . وأحب أن أتخيل ما كنت سأشعر به لو كنت أنا شبح الطاعون .

قال عصفور متطلعا الى فم هيميكو :

– لعل عينيك وفمك تشبه عينيه وفمه بكل بشاعتها .

– هذا مرعب ، أليس كذلك ؟ فى كل مرة ينتابنى الخوف أقول لنفسى سيكون أفظع لو كنت أنا التى تسبب لغيرها الخوف .. وبهذه الطريقة أحصل على تعويض سيكولوجى . هل تعتقد أنك أخفت أحدا مرة بالقدر الذى خفت فيه أنت خلال حياتك ؟

– أتساءل .. لابد أن افكر فى الأمر .

– هذه الأشياء لا تحتاج الى تفكير ، يجب أن تعرفها .

– اذن أعتقد انى لم أخف أحداً على الاطلاق .

– أنا متأكدة من ذلك .. ليس بعد . لكن الا تعتقد أنها تجربة ستمر بها

ان عاجلاً أو آجلاً ؟

كانت نبرة هيميكو متحفظة ومع ذلك تنبؤية .

قال عصفور :
ـ اعتقد أن قتل مولود فى مهده سيرعبك أنت وغيرك أيضاً .

سكب عصفور كأسا له ولهيميكو ، أفرغ كأسه فى ازدرادة واحدة وملأها من جديد . لم تكن هيميكو تشرب بهذه السرعة ، فسأل :
ـ هل أمتنعت ؟
ـ لأنى أحسب حساب القيادة فيما بعد . ألم أصطحبك فى سيارتى ولا مرة ؟
ـ لا أظن . سنخرج معا فى يوم ما .
ـ تعال فى أى ليلة وسأصطحبك . فى النهار الأمر خطر بسبب الازدحام ؛ رد فعلى يكون أسرع بكثير فى الليل .
ـ ألهذا تغلقين على نفسك طوال النهار ؟ تعيشين حياة فيلسوف حقيقية .. فيلسوف يسابق بالـ "إم . جى" الحمراء بعد حلول الظلام .. لا بأس .. ما قصة تعددية الكون هذه ؟

لاحظ عصفور بارتياح وجه هيميكو يتوتر بهجة بسبب غرابة زيارته المباغتة ولكل الشرب الذى خطط له .. قليل من الناس غيره سيعير هذيان هيميكو آذانا صاغية ، بدأت تقول :
ـ حاليا أنت وأنا جالسان نتبادل أطراف الحديث فى حجرة ، هذا جزء مما نسميه العالم الحقيقى .

استقر عصفور ليصغى ، وازناً كأسا جديدة فى راحته باحتراس .
ـ واتفق أننا ، أنت وأنا ، موجودان فى أشكال متعددة لعوالم أخرى ، أيضا . والآن ! يستطيع كلانا أن يتذكر أوقاتا من الماضى كانت فيها فرص الحياة أو الموت مناصفة . فمثلا ، عندما كنت طفلة كدت أموت من حمى التيفويد . واذكر جيداً عندما وصلت بى الحالة إلى النقطة الحرجة ؛ كان يمكننى الغوص فى الموت أو الصعود نحو الشفاء . طبعا ، هيميكو التى تحدثك الآن اختارت الشفاء . ولكن فى نفس اللحظة ، هيميكو أخرى

اختارت الموت ! وعالم من البشر مع ذكريات عابرة لهيميكو التى ماتت بهجمة التيفويد . .هل تفهمنى ؟ فى كل مرة تجد نفسك فى مفترق الطرق بين الحياة والموت ، يكون أمامك عالمان ؛ واحد يفقد كل علاقة بك لأنك تموت ، والآخر يبقى العلاقة بك لأنك ستستمر حيا فيه . هذا كما لو أنك تنزع ملابسك ، فتهجر العالم الذى لم تعد فيه سوى جثمان وتدخل فى ذاك الذى لا تزال تعيش فيه . بمعنى أن عوالم مختلفة تنبعث حول كل منا كما تنبثق الأغصان والأوراق من جذع الشجرة .

هذا النوع من تجزؤ الخلية للكون حدث أيضا عندما انتحر زوجى . تركنى وراءه فى العالم الذى مات هو فيه ، ولكن فى عالم آخر حيث يستمر فى الحياة دون انتحار ، هناك هيميكو أخرى تحيا معه . الدنيا التى يتركها رجل وراءه حين يموت شاباً ، والدنيا التى يهرب فيها من الموت ، تستمر فى الحياة .. والعوالم التى تحتوينا تتضاعف باستمرار . هذا ما أعنيه بالتعددية الكونية .

وهل تعلم ، ياعصفور ؟ يجب ألا تكون حزينا هكذا لموت طفلك . لأن عالما آخر قد انبعث من المولود ، وفى دنيا ينمو فى ذلك العالم ينمو مولودك قويا معافى فى هذه اللحظة . فى ذلك العالم أنت أبٌ شابٌ مخموراً بالسعادة ، واننا نشرب معا احتفالا . هل تفهمنى ؟

كان عصفور يبتسم ابتسامة مسالمة . بعد أن انتشر الكحول الى ابعد الشعيرات الدموية فى جسده وأتى بمفعوله السحرى الكامل .. واستقر التوازن بين العتمة الوردية التى فى داخله وبين العالم الخارجى . مع أنه كان يعرف أن هذا الشعور لن يستمر طويلاً . أردفت هيميكو قائلة :

ـ ربما لم تفهم تماما ، لكن هل فهمت الفكرة العامة على الأقل ؟ لابد أن تكون هناك أوقات فى سنواتك السبعة والعشرين وجدت نفسك واقفا فى مفترق مبهم بين الحياة والموت . حسنا ، فى كل وقت من هذه الأوقات تابعت الحياة فى عالم وتركت جثمانك خلفك فى عالم آخر . لابد أنك تتذكر أوقاتا كهذه .

- نعم أتذكر ، فعلا . هل تقولين انى تركت جسمانى خلفى فى كل تلك الحالات وهربت حيا الى هذا العالم ؟

- بالضبط .

تساءل عصفور مغالباً النعاس :

- هل يمكن أن تكون على صواب ؟ هل هناك عصفور آخر كجسمان فى كل من تلك اللحظات الحاسمة ؟ وهل هناك تشكيلة من عصفور ميت فى آلاف عوالم أخرى ؟ تلميذ خجول هزيل ، وطالب بروح أقل تعقيدا ولكن بجسد أقوى بكثير من جسده ؟ اذن ، أى من هذه الأعداد الميتة هو عصفور المرغوب أكثر ؟ شىء واحد كان أكيداً .. إنه ليس هو ، عصفور هذا العالم .

- ولكن إذن ، هل هناك موت نهائى ؟ وقت يكون فيه موتنا فى هذا العالم يعنى أيضا موتنا فى العوالم الأخرى كلها ؟

- بالتأكيد .. والا سنعيش إلى الأبد فى عالم واحد على الاقل . الأرجح أننا سنموت نهائياً عندما نشيخ ونصل لما بعد التسعين . وهكذا نعيش كلنا فى عالم أو فى آخر حتى نموت من كبر السن فى عالمنا النهائى .. يبدو هذا معقولا ، أليس كذلك ، ياعصفور ؟

- انك مازلت تعذبين نفسك بخصوص انتحار زوجك ، أليس كذلك ؟ ولقد تخيلت كل هذه الشطحات الفلسفية لتسلبى الموت من حتميته .

- قل ما تشاء .. منذ أن تركني زوجى فى هذا العالم لم أكف عن التساؤل لماذا مات .. ليس هذا أمراً مستحباً لكنى سرت فيه خطوات ، ولا أنفى مسئولياتى ، على الأقل ليس فى هذا العالم .

- أرجوك لا تظنى اننى انتقدك ، هيميكو ، لكنى لا أحب أن أراك تخدعين نفسك .

وابتسم عصفور ، محاولا أن يخفف مذاق السم فى كلماته ، لكنه واصل كلامه قائلا :

- تحاولين أن تعطى طابعا خاصا للحتمية الأزلية لموت زوجك بالتخيل أنه لا يزال يعيش فى عالم آخر .. لكنك لا تستطيعين أن تقيمى نسبية مع

الموت كحقيقة مطلقة ، مهما استخدمت من خدع نفسية .
– ربما تكون محقا .. هل أستطيع شرب كأس أخرى لو سمحت ؟

كان صوت هيميكو جافا تعوزه المبالاة . ملأ عصفور كلا من كأسيهما متمنياً أن تنسى ما علق فى ذاكرتها من نقده التلقائى وتعود غدا الى الحلم بعالمها التعددى .

كان عصفور خائفا من أن يكون مسئولا عن كل حادث يمكن أن يحدث فى عالمنا الحالى ، وكأنه مسافر فى الوقت يزور عالماً اكتمل منذ عشرة آلاف سنة . هذا الشعور لم يكف عن التفاقم منذ عرف أن ابنه ولد مسخاً ، ولديه حاليا رغبة فى مغادرة هذا العالم لفترة ، كرجل معه أوراق خاسرة فيمرر دورة فى لعبة البوكر .

ابتسم عصفور وهيميكو فى صمت وتبادلا ابتسامات سمحة جزلة وشربا كأسيهما بعزم ، مثل خنفستين تمتصان عصارة النبات . كانت أصوات الشارع فى أمسية صيف تبدو لعصفور كأنها اشارات من بعد ناء ، اشارات غير لافتة . تحرك عصفور فى كرسيه وتثاءب ذارفا دمعة بلا معنى مثل الرضاب . وملأ كأسه مرة أخرى وأفرغه دفعة واحدة .. ليبتعد أكثر عن هذا العالم فى يسر .
– عصفور ؟

انتفض عصفور ، فسكب الويسكى على حجره ، وفتح عينيه ؛ وأحس أنه فى المرحلة الثانية من السكر .
– مـاذا ؟
– ذاك المعطف من جلد الغزال الذى حصلت عليه من عمك .. ماذا حدث له ؟

كانت هيميكو تحرك لسانها فى تأن ، محافظة على النطق المنضبط . وكان وجهها ، كثمرة طماطم كبيرة ، مستديرا وغاية فى الاحمرار .

أجاب عصفور :

ـ سؤال وجيه .. أذكر انى كنت أرتديه فى السنة الأولى فى الجامعة .
ـ كنت ترتديه أيضا فى السنة الثانية . فى الشتاء ..

الشتاء .. وقعت الكلمة خائضة فى بركة ذكريات عصفور الراكدة .

فقـال :

ـ هذا صحيح .. فرشته على الأرض المبللة فى ذلك الفناء التابع لمخزن الأخشاب ، ليلة ما نمنا معاً . وفى صباح اليوم التالى كان معجونا بالوحل ونشارة الخشب . لم أستطع ارتداءه بعد ذلك . فى ذلك الوقت كانت محلات التنظيف ترفض المعاطف المصنوعة من جلد الغزال . اعتقد أنى ركنته فى الخزانة ثم تخلصت منه للأبد فيما بعد .

تذكر عصفور ، وهو يتكلم ، تلك الليلة المظلمة فى منتصف الشتاء . فبدت الحادثة فى الماضى البعيد . كانت سنتهما الثانية فى الكلية . شربا معا ، وكانا ثملين . أعاد عصفور هيميكو إلى بيتها سيرا على الأقدام ؛ وأمسك بها فى عتمة فناء مخزن الأخشاب خلف السكن الداخلى للطالبات . واجها بعضهما بعضا فى البرد منتفضين . ظلت مداعباتهما ساذجة الى أن لمست يد عصفور سهوا بدن هيميكو . فتحركت شهوة عصفور ، فضغط هيميكو ، قبالة بعض الأخشاب المكدسة ، على سور عريض وحاول أن يدخل فيها . وبذلت هيميكو أفضل ما عندها للمساعدة لكنها كفت فى النهاية وضحكت برقة . وعلى الرغم من أن كلاً منهما كان فى حالة هياج ، الا ان العناق لم يخرج عن دائرة اللعب . ومع ذلك ، عندما أدرك أنه لن يستطيع الدخول ماداما واقفين ، وشعر بالخزى ، مما جعله يغضب . فرش معطفه المصنوع من جلد الغزال على الأرض وطرحها فوقه ، وهى لا تزال تضحك . كانت هيميكو طويلة فاستقرت رأسها وساقاها من تحت الركبتين على الأرض العارية . وبعد برهة توقفت عن الضحك وظن عصفور أنها بلغت شهوتها . ولكن حين سألها بعد قليل ، أجابت ببساطة أنها كانت فاترة لا أكثر .

قال عصفور بنبرة رجل فى العقد التاسع من عمره :
ـ كنت همجياً فى ذلك الوقت .
ـ وأنا أيضا .
ـ اتساءل لماذا لم نحاول ابداً مرة أخرى فى مكان آخر .
ـ ما حدث فى الفناء كان غير مقصود . وبدا لى فى الصباح التالى انه لا يمكن أن يتكرر أبداً .
ـ كان أمراً غير عادى ، نعم ، حادثا عرضيا ، اغتصاباً تقريباً .

صححت هيميكو قائلة :
ـ تقريباً ؟ لقد كان اغتصابا .

وبدا على عصفور الامتعاض وهو يقول :
ـ أحقاً لم تشعرى بأية متعة ؟ أقصد أنك كنت قريبة من الانتشاء .
ـ ماذا كنت تتوقع .. فضلا عن ذلك ، كانت هذه هى المرة الأولى .

نظر عصفور إلى هيميكو بذهول ، كان يعرف أنها ليست امرأة كاذبة أو مازحة . ثم تغلب حينئذ حس الضحك لديه على الضيق وانطلقت ضحكة مقتضبة من بين شفتيه . وأصابت عدوى الضحك هيميكو أيضا .

قال واحمرار وجهه لم يكن من الويسكى فقط :
ـ الحياة مليئة بالعجائب .
ـ لا تبدو محطما هكذا . حقيقة أنى لم أجرب الجنس من قبل ، لا تعنى أحدا غيرى ، هذا اذا كان لها معنى على الاطلاق ولا علاقة لها بك .

أفرغ عصفور نخباً فى الكوب بدلاً من الكأس وشربه على نفسٍ واحدٍ . أراد أن يتذكر حادثة الفناء بدقة أكثر . كان شيئا جامدا ولكنه مرن يرد بدنه المرة تلو الأخرى . لكنه اعتقد وقتها أن البرد كان السبب فى فتورها . وتساءل : ومع ذلك ماذا عن بقع الدم التى رآها على قميصه فى الصباح التالى ؟ لماذا لم يجعله ذلك يشك ؟ واستحوذت عليه رغبة ، مثل النزوة . وعض على شفتيه كأنه يغالب الألم ، وقبض على كأس الويسكى . كان يشعر فى عمق جسده بعقدة من التخوف والرغبة . رغبة شبيهة بالألم

والقلق اللذين يسبقان النوبة القلبية ، ولم يكن ما يقاسيه عصفور الآن تلك الرغبة الخنوع التى هى بالكاد شامة على وجه الحياة اليومية العابس ، نقيض حلمه الافريقى . رغبة تراوده مرة أو اثنتين فى الأسبوع يتحرر منها بمضاجعته لامرأته . لا ، لم تكن رغبة مبتذلة تنتهى فى وحل ارهاق كئيب مع دمدمة شيقة أو فاترة الهمة . انها رغبة لا يستطيع تسكينها الف تكرار للعملية . رغبة كان عصفور سيشبعها ذات ليلة شتائية فى فناء مخزن أخشاب لو عرف أنه كان يغتصب عذراء .

أراد عصفور أن يرمى نظرة مراوغة من عينيه الساخنتين بالويسكى الى هيميكو . تورم مخه محتقنا بالدم . وكانت هيميكو تحوم وسط دخان السجائر على بحر من الضباب ، تراقب عصفور بابتسامة منتشية لكن عينيها لا تريان شيئا . كانت ضائعة فى حلم من الويسكى ، وبدا جسدها أنعم وأكثر استدارة ، خصوصا وجهها الأحمر المحموم . وفكر عصفور فى حزن : لو أستطيع فقط أن اكرر مشهد الاغتصاب مع هيميكو فى ليلة الشتاء تلك . لكنه كان يعرف أن ذلك مستحيل . ماذا لو قاما به من جديد ؟ فجماعهما قد ينفخ الحياة فى بدنه الذى لمحه هذا الصباح عندما كان يرتدى ملابسه وقد استرعى انتباهه بدن زوجته الذى تأثر بعد مجهود الولادة . ستكون العملية الجنسية بالنسبة لعصفور وهيميكو متصلة بالمولود المحتضر ، وبكل تعاسات البشر ، والبؤس الذى تعافه النفس ويتظاهر من لم يبتلوا به بعدم رؤيته ، موقف يسمونه إنسانية . وتسامى الرغبة ؟ بالتخلص منها كلية . ازدرد عصفور كأسه وارتعدت اعماقه الفاترة . واذا كان يريد أن يعيد خلقها بكل توترها الرائع اللحظة الجنسية التى خطفها فى تلك الليلة الشتوية . فليس له خيار سوى خنق الفتاة حتى الموت . ورفرف الصوت منطلقا من عش الرغبة داخله قائلا :

- اسفك دمها وأضاجع جثتها !

لكن عصفور كان يعرف انه لن يقوم بمغامرة كهذه فى وضعه الحالى . اننى اشعر فقط بأنى حزين ومحروم لأنى علمت أن هيميكو كانت عذراء . كان عصفور يزدرى اضطرابه وحاول أن يتبرأ من ذلك الجزء منه . لكن

قنفذ بحر الرغبة الحارة المزعجة لن يسبح مبتعداً . اذا لم تستطع ذبحها واغتصاب جثتها . اكتشف اذن شيئا آخر لكنه كان عاجزا . كان يستطيع فقط أن يقف فى دهشة أمام جهله بالخطر والضلال . وأفرغ عصفور كأسه مثل لاعب كرة السلة الذى يأخذ شربة ماء بعد طرده من الملعب لارتكابه أخطاء كثيرة .. بمزاح سيىء ، واحتقار لنفسه ونفور واضح . وفقد الويسكى قوته وشذاه ولم يعد حتى لاذعاً .

سألت هيميكو :

ـ هل تزدرد الويسكى دائما دفعة واحدة كالشاى ؟ أنا لا يمكننى أن أشرب حتى الشاى الساخن بهذه السرعة .

تمتم عصفور قائلا :

ـ عندما أشرب ، أشرب هكذا دائما .

ـ حتى عندما تكون مع زوجتك ؟

ـ لمـاذا ؟

ـ لا يمكنك أن تشبع رغبة امرأة بعد أن تشرب بهذه الطريقة . والأكثر أهمية ، أشك فى أن تستطيع اخراج ذلك من نفسك ، مهما بذلت من جهد . سوف تنتهى بقلب طائش مثل سباح المسافات الطويلة المنهك .. وتترك مصقلاً كحولياً مثل قوس قرزح أقرب الى رأس المرأة !

ـ اترغبين فى النوم معى الآن ؟

ـ لا ، بعد أن شربت كل هذا ؛ لا جدوى من ذلك لكلينا .

ادخل عصفور اصبعا من خلال ثقب داخل جيبه واستكشف شيئا دافئاً ناعماً .. فأرا اناعسا مضحكا . وذابلا . لا علاقة له أبداً بقنفذ البحر المشتعل فى صدره .

وبثقة وتحد قالت هيميكو :

ـ لا يمكن فعل شىء ، أليس كذلك ؟

ـ قد لا أستطيع أن ابلغ الذروة ، لكنى استطيع بالتأكيد أن أستمر مثل القرد الصينى وارفعك تجاه الحائط .

ـ ليس الأمر بهذه السهولة ، تعرف .. أن ابلغ الذروة يبدو أنك لا تذكر

جيداً ما جرى عندما استلقينا على الأرض فى فناء الأخشاب . وهذا طبيعى بالنسبة لك ، لكنه بالنسبة لى كان مثل شعيره استهلالية . وكانت شعيرة باردة ، قذرة ، مثيرة للازدراء وللشفقة أيضا . ومنذ ذلك الحين وأنا أركض فى سباق المسافات الطويلة وكانت معركة طول الطريق ياعصفور !

- هل حولتك الى امرأة فاترة ؟

- إذا كنت تقصد اللذة العادية ، فلقد اكتشفتها وحدى وبسرعة . واستعنت لذلك ببعض طلاب فصلى الدراسى ، حتى قبل أن يجف وحل فناء الأخشاب تحت أظافرى . لكنى منذ ذلك الوقت وأنا أطارد لذة أفضل ، ولم أكف عن البحث عن لذة تكون أكبر .. مثل صعود مجموعة متواصلة من درجات سلم .

- أهذا كل ما فعلته بعد تخرجك فى الكلية ؟

- حتى قبل تخرجى . كان شغلى الشاغل منذ أن كنت طالبة .

- لابد أن تكونى اكتفيت لحد السأم .

- لا ، هذا ليس صحيحا ، يوماً ما سأبرهن لك على ذلك .. الا اذا أردت أن تكون ذاكرتك الجنسية عنى فقط تلك الحادثة فى فناء الأخشاب .

قال عصفور :

- وأنا أيضا سأعلمك ما قد حصلته خلال سباقى الشخصى للمسافات الطويلة . ولنكف عن نقر بعضنا البعض بمنقارينا مثل زوج من الكتاكيت الخائبة ، ولننم !..

- شربت كثيراً ، عصفور .

- أتظنين أن الجنس هو الامر الوحيد الذى يعتمد عليه ؟ انها نظرة غير ناضجة لامرأة تبحث عن اللذة القصوى .

- هل ستستعين بأصابعك ، إذن ؟ بشفتيك ؟ بجهاز ما عجيب مثل الزائدة الدودية ؟ آسفة ، هذا لا يشبعنى ؟ انه يشبه الاستمناء إلى حد كبير .

جفل عصفور قائلا :

- انك صريحة على الأقل .

– علاوة على انك ياعصفور لا تبحث عن أى شىء جنسى اليوم . انك تنظر الىّ وكأن الجنس يقززك . فلنقل أننا نمنا معاً ، فكل ما يمكنك فعله هو أن تنهار بين ساقى وتتقيأ . سيكون تقززك أقوى منك . وستلطخ بطنى بالويسكى البنى واللعاب الأصفر . حدث هذا مرة معى وكان فظيعاً .

قال عصفور بوهن :

– أظن أننا نتعلم فعلا من التجربة أحيانا ؛ كلامك صحيح .

قالت هيميكو مواسية :

– لا شىء يدعو الى العجلة .

– لا ، لا شىء يدعو إلى العجلة . عندما كنت مراهقاً كنت دائما متعجلاً . والآن اندهش لماذا ؟

– ربما لأن المرء لديه وقت قليل جداً وهو طفل . اقصد أننا نكبر بسرعة .

– نعم ، كبرت بسرعة . والآن انا أكثر شيخوخة من أن اكون أباً . لم أكن مهيئا لأكون أباً ، لذلك لم اكن كفئا ليكون لى طفل طبيعى . اتظنين انى سأصبح ابا لطفل طبيعى ؟ لست واثقاً .

– لا أحد يثق فى هذا النوع من الأمور ، عصفور . عندما يأتيك طفلك التالى معافى تماماً ستعرف عندئذ أنك أب طبيعى . وستشعر بالثقة فى استعادة الاحداث الماضية والتأمل فيها .

شعر عصفور بالعزاء وقال :

– لقد أصبحت فعلا مليئة بالحكمة ازاء الحياة ؛ هيميكو ، أريد أن أسألك .. كانت شقائق بحر النوم تغمره فى الأمواج وكان يعرف انه لن يستطيع مقاومته لأكثر من دقيقة . وتطلع الى الكأس الفارغة المهتزة فى مجال رؤياه وهز رأسه ، متسائلا اذا كان يشرب من جديد ؛ وأخيرا أذعن بأن بطنه لن يقبل نقطة واحدة أخرى من الويسكى . وانزلقت الكأس من بين أصابعه وصدمت حجره ثم تدحرجت على الأرض .

قال عصفور ناهضا للتأكد من أنه يستطيع الوقوف :

– أريد أن أسألك هيميكو ، عندما يموت مولود فى مهده إلى أى عالم يذهب ؟

ـ اذا كان هناك عالم آخر فيجب أن يكون بسيطا جداً . لكن ، ألا تستطيع أن تؤمن بكونى المتعدد ؟ سيعيش طفلك الى سن التسعين فى عالمه النهائى !

قال عصفور :

ـ آه نعم ، طيب . سأذهب إلى النوم . هل نحن فى الليل الآن ؟ أيمكنك أن تتطلعى من الستائر لو سمحت ؟

ـ انه منتصف النهار ، عصفور . اذا أردت أن تنام ، يمكنك استخدام فراشى . فسأخرج حين يحل الظلام .

ـ ستتركين صديقا يرثى له من أجل سيارة "سبور" ؟

ـ حين يكون الصديق الذى يرثى له سكران فالأفضل تركه وشأنه . والا قد يندم كلانا بعد ذلك .

ـ معك حق تماما ! أنت الحكمة مجسدة فى شخص . إذن تجولين هكذا فى السيارة طوال الليل ؟ حتى الفجر ؟

ـ أحيانا ، عصفور . علىّ أن أقوم بجولات .. مثل رسول النعاس« أو الرمال : شخص تزعم الأسطورة أنه يوقع النعاس فى عيون الاطفال بذر الرمال فيها »، الذى يبحث عن الأطفال الذين لا يستطيعون النوم !

عندما تمكن عصفور أخيرا من رفع نفسه عن كرسى أسل الهند ، مرتخيا ثقيلا كسجد رجل آخر ، لف ذراعه حول كتفى هيميكو الثابتة وتركها تقوده إلى غرفة النوم . كان رأسه شمساً من نار يرقص فيها قزم مضحك عجيب ، يبعثر مسحوق الضوء مثل الجنى الذى رآه فى حكاية «بيتر پان» . ودغدغت هذه الهلوسة قلب عصفور فضحك . وحين انهار على السرير وفّق الى القول بنبرة فيها عرفان بالجميل :

ـ هيميكو ! انك مثل جدّة حنون .

نام عصفور . وتحرك فى حلمه ، عبر ساحة الشفق ، رجل مغطى بالحراشيف وبعينين سوداوين حزينتين وفم السمندر الغائر .. لكنه طوق على الفور فى غسق دوامى أسود ضارب الى الحمرة . ثم عكر نومه الرحب العميق هدير سيارة "سبور" كانت تقلع .

ومرتين خلال الليل استيقظ عصفور ، وفى كلتا المرتين لم تكن هيميكو موجودة . لقد أيقظته أصوات مكبوحة لكنها ملحة ، كانت تنادى من خارج النافذة .

– هيميكو ! هيميكو !.

فى الصوت الأول نبرة مراهق . وفى المرة الثانية فتح عصفور عينيه ، وسمع صوت رجل فى اواسط العمر . نهض من سريره ، ورفع الستائر كما فعلت هيميكو لتنظر اليه وأنعم النظر فى زائر الليل . رأى فى ضوء القمر الشاحب رجلاً قصيراً "جنتلمان" يرتدى بذلة سهرة من الكتان تبدو ضيقة جدا ، كأنها انكمشت ؛ ورفع رأسه المستدير الى النافذة ، كان الرجل القصير ينادى اسم هيميكو بتعبير مكفهر يحمل الارتباك والنفور . ترك عصفور الستائر تنسدل وذهب يبحث عن زجاجة الويسكى فى الغرفة المجاورة . وفى جرعة واحدة شرب ما تبقى وعاد إلى سرير صديقته ، ونام فى الحال .

غزا الأنين المرة تلو المرة نوم عصفور حتى استيقظ على مضض . اعتقد فى البدء أنه هو الذى كان يئن ، وبالفعل ، عندما فتح عينيه ، وخزته شياطين لا تعد ولا تحصى فى بطنه مخترقين أحشاءه بسهام صغيرة وصعدت أنّة إلى شفتيه . لكنه سمع أنّة أخرى لم تصعد منه . وبحذر شديد دون تغيير وضع جسمه ، رفع عصفور رأسه فقط وهبط ببصره إلى جانب السرير . كانت هيميكو نائمة على الأرضية العارية ، محشورة بين السرير وجهاز التليفزيون . وكانت تئن كحيوان جريح ، مرسلة أناتها وكأنها اشارات تقوم بتبليغها من عالم احلامها . اشارات تفصح عن الخوف .

ومن خلال شرك الهواء المعتم فى الحجرة راقب عصفور وجه هيميكو الفتى المستدير الشاحب يتشنج وكأنه يتألم ، ثم يسترخى فى بلادة . كان الغطاء منزلقا حتى خصرها . فتفحص صدرها . كان صدرها نصفى كرة يبلغان حد الكمال لكنهما يتدليان على الجانبين بطريق غير طبيعية متجنباً أحدهما الآخر . وكانت المنطقة بين ثدييها عريضة ومسطحة . وأحس عصفور بألفة مع هذا الصدر الخام . لابد أنه رآه فى فناء الأخشاب ليلة الشتاء تلك . ولكن خاصرتيها وانتفاخ بطنها المستتر أغلبه تحت الغطاء لم يوقظ فيه أى حنين . وبدأ العمر يزرع تباشير سمنة كنذير لجسدها . ومسحة الرخاوة تتقاسم حياتها الجديدة . وهذا لم يكن يعجب عصفور . وقد تنتشر جذور السمنة تحت بشرتها مثل النار فى الهشيم وتبدل شكل جسمها بالكامل . وثدياها ، ايضا ، قد تفقدان الفتوة والنضارة اللتين تحتفظان بهما .

أنت هيميكو مرة أخرى وفتحت فجأة عينيها كأنها جفلت مذعورة . تظاهر عصفور بالنوم . عندما فتح عينيه ثانية كانت قد نامت من جديد .

صامتة هذه المرة ، مستلقية ساكنة كمومياء ، ملتفة بالغطاء حتى عنقها ، نائمة مثل نوم الحشرة فى بياتها الشتوى الخالى من أى تعبير . لاشك أنها أبرمت هدنة مع الغيلان فى حلمها .

أغمض عصفور عينيه فى ارتياح ثم استدار لتهديد مبتز من المعدة . وفجأة انتفخت معدته الى أن ملأت جسده واتخمت عالم وعيه كله . وحاولت نتف من الأفكار أن تنفذ الى مركز عقله :

متى رجعت هيميكو ؟.. هل بدأوا بتشريح المولود برأسه المربوط بالضمادات مثل أبولينير ؟.. هل سيكون فى حالة تسمح له بالذهاب لاعطاء درسه بالمدرسة اليوم ؟.. غير أن معدته المزعجة كانت تطرد هذه التساؤلات الواحد بعد الآخر . علم عصفور أنه قد يتقيأ فى أى لحظة وجعله الخوف يعرق .

ماذا ستقول عنى اذا وسخت هذا السرير ؟ عندما كنت سكران أيضا فضضبت بكارتها ، بل اغتصبتها تقريبا ، فى العراء ، فى قلب الشتاء ، حتى دون أن أدرك ذلك ! والآن ، بعد سنوات ، أقضى الليل فى حجرتها سكران تماما ، وأستيقظ لأتقيأ . كم قذر أنت !.. وتجشأ فى تتابع سريع عشر مرات تعبق برائحة الويسكى وبخاره وقعد على السرير منتصباً ، وجعله الصداع يتأوه . وكانت الخطوة الأولى التى هم بها من السرير مشحونة بالصعوبة لكنه أخيرا كان فى طريقه الى الحمام . فاكتشف لدهشته أنه يرتدى ملابسه الداخلية فقط .

شعر ببعض الانفراج عندما أغلق وراءه الباب الزجاجى المحبب : هل سينجح فى افراغ معدته دون أن تلاحظ هيميكو ؟ آه لو استطاع أن يتقيأ بلطف كما تفعل الجرادة .

ركع على ركبتيه وأسند مرفقيه على مقعد المرحاض ، خفض رأسه وانتظر فى ركوع صامت ، أن يصل توتر معدته إلى حده . وعرق وجهه بشدة ، ولكنه عاد وتوهج بحرارة غير طبيعية ثم تخدر فجأة وبرد ثانية .

جاءت موجة غثيانه الأولى عنيفة فعوى وتصلبت رقبته وارتفع بطنه ، صعد سائل حارق إلى حلقه وامتلأت عيناه بالدموع . وأخذ يتقيأ . ومثل

السباك الذى انهى عمله لتوه ، مسح وجهه بورق المرحاض وتمخط بقوة . وتنهد ، آه . لكنه لم ينتبه بعد ، فاضطر إلى أن يضع اصبعه فى فمه ليرغم نفسه على التقيؤ مرة أخرى . وتنهد ثانية وخفض رأسه قبل نوبة الألم المبرح . وأصبح المرحاض من الداخل قذراً بشكل مدمر . أغمض عصفور عينيه فى قرف ، وملس على رأسه ، ثم سحب السلسلة ، فزمجر فيض من الماء . أعاد عصفور وضع اصبعه فى حلقه الأحمر وأرغم نفسه على التقيؤ من جديد ، مع تأوهات ودموع خالية من أى معنى ، وشرار أصفر داخل رأسه ، والاغشية المخاطية توخزه فى أنفه . وأخيرا ، مسح اصابعه المتسخة وفمه وخديه المخططين بالدمع وانهار على المرحاض ، هل يعادل هذا أى تعويض ولو جزئيا على الأقل لآلام المولود ؟ تساءل عصفور ثم خجل من وقاحته . اذا كان هناك من ألم عقيم ، فإنما هو الكرب الذى يعقب السكر .

لا يمكنك أن تدع نفسك تشعر بالمواساة بهذه العودة الزائفة ، مادام هناك ما يخفق فى دماغك .. عاتب عصفور نفسه بطريقة المعلم الأخلاقى . ومع ذلك فإن انفراجه والهدوء النسبى للشياطين التى فى بطنه ، منحاه ، ولو مؤقتا ، بضع دقائق من الراحة منذ استيقاظه . فلديه طلاب يدرسهم اليوم واستمارات عليه أن يكملها فى المستشفى من أجل المولود الذى على الأرجح مات الآن . وعليه أن يتصل بحماته ويتفاهم معها على موعد ابلاغ زوجته . يالها من قائمة أعمال جهنمية . وهاأنذا فى حمام صديقتى منهار على المرحاض فى دوار بعد أن تقيأت كل قوتى . كان شيئا من المحال ! ومع ذلك لم يكن عصفور خائفا . فنصف الساعة هذه من العجز وعدم المسئولية التام كان له مذاق حلو من الخلاص النفسى . كان عصفور وهو متكوم على الأرضية وواع فقط بالوخز الذى فى أنفه وحلقه ، نوعاً من شقيق للمولود الذى على حافة الموت . غير أن المنة الوحيدة الباقية لى أننى لا أصيح كما يفعل المولود .

لو كان الأمر ممكنا ، لاختار عصفور أن يقفز بنفسه فى المرحاض ويشد طرادة الماء وهكذا يتدفق مع زمجرة الماء وينجرف فى جحيم التقزز .. ولكنه بصق وتحرك تاركا المرحاض على مضض ، وفتح الباب الزجاجى .

فى تلك اللحظة كان قد نسى هيميكو ، لكنه حالما خطا بقدمه الحافية فى حجرة النوم علم أنها مستيقظة . وصورت لنفسها الدراما التافهة التى حدثت فى المرحاض والسكون الغريب الذى اعقب ذلك . كانت الفتاة لاتزال مستلقية على الأرض . لكن عصفور استطاع أن يرى فى مسحوق الضوء الدقيق المنخول عبر شق بين الستائر أن عينيها كانتا مفتوحتين تماما . ولم يكن له خيار الا أن ينطلق مسرعا حول قدميها مثل الفأر ، متجها الى قميصه وبنطلونه أسفل السرير . فى هذه الأثناء حملقت هيميكو على الأرجح بعينين مثل عدسات الكاميرا المفتوحة فى بطنه الرخوة وفخذيه المشدودتين .

سأل عصفور فى صوت خائر :

ـ هل سمعتنى وأنا أتقيأ مثل الكلب ؟

قالت هيميكو بصوت ملفوف بالنوم ، متطلعة الى عصفور كأنها تتفحصه :

ـ مثل الكلب ؟ لا يوجد كلب بجهارة الصوت هذه !

قال عصفور فى خيبة أمل :

ـ انه كلب من فصيلة "سانت برنارد" فى حجم البقرة .

ـ شىء مزعج .. هل ارتحت ؟

تمايل عصفور نحو السرير ساحقا ساقى هيميكو فى الطريق فصرخت احتجاجاً ، واخيرا استطاع أن يتوصل الى بنطلونه ، وقال :

ـ نعم ، حاليا . لكنى متأكد أن هذا سيعاودنى خلال الصباح . هذا يحدث دائما . أنا لم أشرب ولم أترنح أيضا من مدة طويلة . لكن هذا أسوأ ترنح فى حياتى . فى الماضى ، حين كان يحدث لى ذلك ، كنت أطرده بمعاودة البدء بالشراب ..

ـ لماذا لا تجرب نفس الشىء الآن ؟

ـ لا ، لا يجوز أن أسكر اليوم .

ـ عصير الليمون سينعشك . يوجد منه فى المطبخ .

حدق عصفور طائعا فى المطبخ . كانت هناك نحو عشر ليمونات أو أكثر

فى المغسلة التى يضيئها شعاع شمس كأنه خارج من لوحة من المدرسة الفلمنكية .

وباهتياج شديد جاهد فى ارتداء بنطلونه وتزرير قميصه حتى العنق ، واستعاد عصفور نفسه ثانية وسأل :
- اتشترين دائما ليمونا بهذا المقدار ؟

اجابت هيميكو بلا مبالاة رائعة وكأنها تحاول التأثير على عصفور بسبب السأم الذى فى سؤاله :
- أحيـانـا .

ثرثر عصفور من جديد قائلا :
- متى رجعت ، على أية حال ؟ هل تجولت بالـ "أم . جى" حتى الفجر ؟

نظرت اليه هيميكو بسخرية دون أن تجيب ، لذا أسرع وأضاف :
- اثنان من اصدقائك جاءا فى منتصف الليل . واحد يبدو أنه شاب صغير والآخر رجل فى منتصف عمره وله رأس بشكل بيضة ؛ تطلعت اليه من خلف الستارة . لكنى لم أحيه .

قالت هيميكو بلا اكتراث :
- تحييه ؟ طبيعى لا داعى لذلك .

تناول عصفور ساعة يده من جيب سترته ونظر الى الوقت .. الساعة التاسعة . وفصله الدراسى يبدأ فى العاشرة . ان اى مدرس فى مدرسة التقوية يجب أن تكون لديه شجاعة من نوع خاص ليغيب دون أن يبلغ الإدارة ، أو حتى ليصل متأخراً . ولم يكن عصفور لا يهاب ولا أحمق بهذا المقدار . وعقد ربطة عنقه عن طريق الاحساس .

قالت هيميكو :
- نمت مع كل منهما مرتين أو ثلاثا ، ويعتقدان أن هذا يخول لهما المجيء الى هنا فى منتصف الليل . الشاب الصغير من النوع الفاسق ؛ ما يهمه ليس أن ننام معا ، بل حلمه أن يأتى ويجدنى مع شخص آخر وأن

يشارك . انه دائما ينتظر ليجد واحداً معى هنا ثم يظهر . ومع ذلك فهو غيور بشكل غريب .

– هل منحته الفرصة ليحقق رغبته ؟

ردت هيميكو بحدة :

– بالطبع لا ! هذا الصبى لديه ضعف تجاه الناضجين مثلك . اذا التقيت به مرة سيفعل أى شىء لارضائك . لكنى أراهن أنك تعرف ذلك النوع من الارضاء ! ألم يكن فى كليتك مراهقون أصغر منك يعبدونك ؟ ولابد أن يكون فى فصولك تلاميذ مخلصون بشكل خاص . رأيت فيك دائما صورة من الأبطال لهذا النوع من الصبية عديمى الأخلاق . .

هز عصفور رأسه فى انكار ودخل المطبخ . انتبه عندما لمست قدماه الارضية الخشبية الباردة إلا انه لم يرتد جواربه ، وفى ذلك عمل بغيض بالنسبة له !. لانه إذا انحنى لالتقاطها سيجازف ويتقيأ من جديد . فجفل عصفور . ثم إن ملامسة أرضية الحجرة الباردة لم تكن شيئا بغيضاً . والامساك بالليمون بأصابعه المبتلة أثناء غسلها بالماء من الصنبور دغدغ يديه بلذة أيضا . وانتقى واحدة كبيرة ، وقطعها إلى نصفين وعصرها فى فمه ونزل احساس منعش كان يذكره جيداً مع عصير الليمون من حلقه تجاه معدته المستبدة .. احساس بارد لاذع . وعاد الى حجرة النوم وبدأ يبحث عن جواربه ، متحاشياً الانحناء .

قال لهيميكو ممتناً :

– يبدو أن هذا الليمون أدى مفعوله .

– على كل حال اذا تقيأت ثانية سيكون بمذاق الليمون ، وهو أفضل .

راقب عصفور الرضا والاطمئنان اللذين جلبهما له العصير وجعلاه منتصبا مثل الشراع أمام مهب الريح .

سألت هيميكو :

– عمَّ تبحث ؟ انك تبدو مثل دب يصطاد سرطان بحر ، همهم عصفور فمنظر قدميه الحافيتين جعله يعتقد أنه مثار للسخرية ، وقال :

– جواربى .

ـ إنها فى حذائك . وهكذا لا يكون عليك أن تنحنى سوى مرة واحدة عند مغادرتك .

نظر اليها عصفور مرتابا بينما هى مستلقية على الأرضية داخل غطائها . لاشك أنها تتخذ دائماً هذا الاحتياط حين يندس واحد من عشاقها فى فراشها ، ليستطيع الانسحاب بسرعة من المنزل بأقدامهم الحافية اذا ظهر شخص آخر بغتة أقوى وأعنف .

قـال :

ـ الأفضل أن أذهب . لدى فصلان هذا الصباح . شكراً جزيلاً على الليلة الماضية وهذا الصباح .

ـ هل ستأتى ثانية ؟ ربما يحتاج احدنا الى الآخر ، عصفور .

لم يكن عصفور سيندهش أكثر لو سمع أخرس يصرخ . وكانت هيميكو تنظر اليه بوقار . فقال :

ـ لعلك على حق . ربما يحتاج أحدنا الى الآخر .

شق عصفور طريقه مذعوراً فوق نباتات شائكة ونتف أسلاك خامشة فى فوضى حجرة المعيشة الغارقة فى الظلام ، مثل كشاف يتخبط فى مستنقع . وعندما انعطف أخيرا نحو بهو المدخل أسرع فى ارتداء جواربه وحذائه خائفا أن تعود اليه نوبة الغثيان ، وصرخ قائلا :

ـ إلى اللقاء ! نامى جيدا !

وكانت هيميكو كالحجر الأصم .

بدا ضوء شمس الصباح لعصفور لاذعا كالخل . لاحظ وهو يعبر أمام سيارة الـ "ام . جى" القرمزية ، أن المفتاح لا يزال معلقا فى لوحة القيادة . سيكون من حظ السارق أن ينطلق بها فى يوم ما بلا متاعب . أحزنته الفكرة . هيميكو ! كيف تحولت هذه التلميذة المجتهدة ، اليقظة ، الذكية إلى شخصية متصدعة وامرأة بلا هوى ؟ تزوجت الفتاة لتجد زوجها الشاب ينتحر ، وحاليا ، بعد التنفيس بالتجول ليلا بسيارتها ، ترى أحلاماً تجعلها تنوح من الرعب .

اتجه عصفور ليأخذ المفتاح من لوحة القيادة . لكن اذا عاد للحجرة حيث تستلقى صديقته فى العتمة ، متجهمة فى صمت وعيناها مغلقتان باحكام فمن الصعب الخروج مرة أخرى . صرف عصفور النظر عن المفتاح وتطلع حوله ؛ وواسى نفسه بأنه لا يوجد لصوص سيارات يحومون فى هذه المنطقة ، على الأقل ليس الآن . كان قرب أحد اطارات السيارة عقب سيجار . لابد أن الرجل القصير الذى له بيضة عوضا عن رأسه ألقى به هناك الليلة الماضية . ان المجموعة المعتنية بهيميكو بحميمية أكثر من عصفور عددها بالتأكيد كبير .

هز عصفور رأسه بعنف وتنفس بعمق محاولاً أن يدافع عن نفسه أمام الترنح المسلح بجيش من التهديدات . لكنه لم يستطع التخلص من الشعور بالضغط والارغام . وابتعد عن الزقاق المتلألىء منحنى الرأس .

مع ذلك ، تمكن عصفور ببراعة أن يتماسك طول الطريق وعبر بوابة المدرسة . كان هناك الشارع ، والرصيف ، ثم قطار الضاحية . وكان الأسوأ هو قطار الضاحية الذى كان لابد أن يستقله للوصول إلى المدرسة . ومع ذلك صمد عصفور أمام الاهتزازات ورائحة الاجساد الأخرى المؤذية لحلقه المتيبس ومن بين جميع الركاب فى المقطورة كان عليه وحده أن ينضح عرقاً ، كأن الصيف كله قد هجم لاحتلال الميدان المحيط به هو فقط . وكل الذين يحتكون به بأجسادهم يتفرسون فيه بنظرة مرتابة . وكان هو يستطيع فقط أن ينكمش كخنزير متخم بقفص ليمون ويزفر أنفاساً حمضية . وجاب المقطورة بنظرات قلقة باحثا عن مكان يستطيع أن يهرع إليه شعر من جديد بأنه على وشك التقيؤ .

حين وصل أخيرا إلى بوابة المدرسة أحس بأنه جندى عجوز تنهكه مسافة تقهقر طويلة من المعركة . لكن الأسوأ لا يزال ينتظره ، لأن العدو كان قد طوقه وفى وضع استعداد للهجوم عليه .

تناول من خزانته كتاب القراءة وعلبة طباشير . ولمح قاموس أكسفورد أعلى الرف ، لكنه لم يجرؤ اليوم على حمله طوال الطريق الى الفصل لثقله . وهناك العديد من تلاميذه كانوا يعرفون قواعد اللغة الانجليزية

ومصطلحاتها أفضل منه . اذا صادفته كلمة يجهلها أو جملة صعبة فسيطلب من أحدهم أن يفسرها . تلاميذه رءوسهم محشوة بالمعلومات التفصيلية المعقدة مثل الرخويات مفرطة النظور : فى الدقيقة التى يحاولون فيها فهم مشكلة بشكل متكامل تتشابك الآلية فى نفسها وتحتجز . دوره هو أن ينظمها فقط ، بدمج المعنى الكلى للنص وتلخيصه . ومع ذلك كان فى شك مستديم اذا كان كفئا لتأهيل فصوله الى امتحان القبول للجامعة .

عبر عصفور من الباب الخلفى ، آملا فى تجنب لقاء رئيس القسم ، خريج جامعة ميتشجن ، الواثق من نفسه ، الذى لا يفوته شىء ، والذى قد نشأ ، كما هو واضح ، من نخبة ممتازة من الطلاب الأجانب . تفادى المصعد فى استراحة المدرسين وصعد الدرج الحلزونى العالق مثل اللبلاب متعرشا الحائط الخارجى . لم يتجاسر على النظر الى اسفل نحو المشهد الذى يتجلى تحته تدريجيا ، متحملا بالكاد تمايل السلالم مثل حركة السفينة المترنحة بسبب الطلاب الذين يتجاوزونه صعوداً وهبوطاً هازين السلم الحديدى . كان شاحبا ، لاهثا ، متجشئا كل سلمة أو اثنتين مع تنهيدة . صعد ببطء كبير حتى أن بعض الطلبة كانوا يتوقفون ليتأملوه بفضول .

حين وصل أخيراً إلى نهاية السلم تنفس بارتياح . هنا ناداه شخص باسمه وشعر عصفور مجدداً بالضيق . كان المنادى صديقا له يساعد فى رعاية جماعة دارسى اللغات السلافية ، كان عصفور قد أنشأها مع بعض مترجمين آخرين . الا أن هذا اللقاء غير المنتظر جاء غادراً بالنسبة لعصفور المشغول فى هذه اللحظة بلعبة القط والفأر مع ترنحه البغيض من أثر اسرافه فى الشراب . فتقوقع على نفسه مثل صدفة مهددة بهجوم مباغت . قال صديقه :

– هاى .. عصفور !

كانت هذه الكنية التهكمية التى ينادى بها لا تزال صالحة فى كل المناسبات ولكل فئات أصدقائه .

واردف صديقه قائلاً :

ـ منذ مساء البارحة وأنا أحاول عبثاً الاتصال بك . لهذا جئت ..

قال عصفور فى انطوائية :
ـ أوه .. مـاذا ؟
ـ هل وصلتك أخبار عن الاستاذ "ديلشيف" ؟

قال عصفور بقلق غامض :
ـ أخبـار ؟

كان الأستاذ ديلشيف ، الملحق فى مفوضية إحدى دول البلقان الشيوعية ، استاذ جماعة الدارسين التى يرعاها صديق عصفور .

ـ يبدو أنه ارتبط بفتاة يابانية ولا يريد العودة إلى المفوضية . يقولون إن هذا حدث منذ أسبوع . تريد المفوضية أن تحافظ على سرية الموضوع وتعيد الاستاذ ديلشيف والفتاة تقطن فى أكثر جزء شعبية بحىّ "شينجوكو" . انه يشبه المتاهة . ولا أحد من المفوضية يعرف المنطقة جيدا للقبض عليه . هنا وجب علينا التدخل : طلبت المفوضية من جماعة الدارسين مساعدتها . بطبيعة الحال ، نحن مسئولون إلى حد ما .
ـ مسئولـون ؟
ـ تعرف الاستاذ ديلشيف الى الفتاة فى بار نحن أخذناه اليه بعد أحد الاجتماعات ، كما تعرف "بولمان كار" وأردف صديق عصفور وهو يكتم الضحكة :
ـ الا تذكر تلك الفتاة القصيرة ذات الوجه الذى يشبه الفطيرة ؟

تذكرها عصفور على الفور فتاة قصيرة ، غريبة المظهر ، ذات وجه يشبه الفطيرة .

قال :
ـ لكنها لا تتكلم الإنجليزية ولا أى لغة سلافية والاستاذ ديلشيف بالكاد يتكلم اليابانية .. كيف أمكنهما التفاهم ؟
ـ هنا سر الموضوع .. كيف تعتقد أنهما استطاعا قضاء اسبوع كامل ، التصقا معا ، أم ماذا ؟

وبدا على صديقه الارتباك بسبب تعريضه بهما .

- وماذا سيحدث إذا لم يعد الاستاذ ديلشيف إلى المفوضية ؟ هل سيتهمونه بالانشقاق ، أو بشيء من هذا القبيل ؟

- أكيـد !

قال عصفور عابسا :

- الاستاذ ديلشيف يبحث فعلا عن المتاعب !

- يجب أن تجتمع جماعة الدارسين لايجاد حل . هل أنت حر الليلة ؟

قال عصفور وهو مرتبك :

- الليلة ؟.. أنا .. لا استطيع .

- لكنك كنت الأقرب منا جميعا للأستاذ ديلشيف . اذا قررنا أن نرسل مندوبا عن جماعة الدارسين ، كنا نأمل أن توافق على الذهاب ..

قال عصفـور :

- مندوب .. على أية حال . لن أستطيع أن أقوم بذلك الليلة .

وأجهد عصفور نفسه ليقول :

- رزقنا بمولود لكن يبدو أنه لن يعيش طويلا ان لم يكن يموت الآن .

قال الصديق فى انقباض :

- ياإلهـى !

أخذ الجرس يرن فوق رأسيهما ، وتابع صديق عصفور :

- شيء مؤسف ، مؤسف فعلا .. اسمع ، سنتدبر الأمر بدونك الليلة . لا تدع نفسك تنهار .. كيف حال زوجتك ؟

- بخير ، شكراً .

- عندما نقرر شيئا سأعلمك به .. ياالهى ، تبدو مرهقا .. اعتن بنفسك .

- شكـراً .

راقب عصفور صديقه وهو مندفع هابطاً السلم الحلزونى بسرعة وتهور كالهارب ، وأخذ على نفسه أنه لم يتكلم عن حالته . دخل عصفور الفصل .

وفى لحظة كان يواجه مائة من الوجوه التى استدارت نحوه . خفض بصره ، صعد الى المنصة محترساً أن يرفع رأسه ثانية وينظر فى وجوه طلابه ممسكا بكتاب المطالعة وصندوق الطباشير أمام صدره مثل أسلحة الدفاع عن النفس .

فتح عصفور كتاب القراءة على الصفحة التى توقف عندها فى الأسبوع السابق ، دون أى فكرة عنها . بدأ يقرأ بصوت عال وفهم على الفور أنها فقرة من هيمنجواى . كان الكتاب عبارة عن مجموعة كبيرة من مختارات للأدب الأمريكى الحديث ، اختارها رئيس القسم لانه يحبها ولأن كل نص كان ملغماً بفخاخ نحوية .

هيمنجواى ..! تشجع عصفور ، لانه كان يحب هيمنجواى ، خصوصا "تلال افريقيا الخضراء" . لكن نص الكتاب كان مقطعا من "الشمس تشرق ايضا" ، مشهداً قرب النهاية حيث يذهب البطل للسباحة فى المحيط . الراوى يسبح فيما وراء الأمواج ، ويغطس بين حين وآخر ، وعندما يصل الى عرض البحر حيث المياه هادئة ، استدار ليطفو على ظهره . كل ما يمكنه رؤيته هو السماء ، ويشعر من تحته بحركة الارتفاع والانخفاض . .

شعر عصفور فى اعماق جسده ، بداية أزمة أكيدة لا تقاوم . كان حلقه متيبساً ولسانه متورما فى فمه مثل جسم غريب . وغاص فى عرق خوفه ، غير أنه تابع القراءة بصوت عال ، راميا نظرات خاطفة نحو الباب . هل سيكون لديه الوقت للاتجاه للباب اذا جاءته الأزمة ؟ لكن كم من الأفضل لو تغلب على الأزمة دون اللجوء الى الجرى . ولكى يفكر فى شىء آخر غير معدته ، حاول أن يضع الفقرة التى يقرؤها فى سياق النص الكامل .. يستلقى البطل على الشاطىء ويعود للسباحة من جديد . عندما يعود للفندق يجد فى انتظاره برقية من خليلته التى ذهبت مع مصارع ثيران شاب . حاول عصفور تذكر نص البرقية : "أيمكنك المجىء ، فندق مونتانا مدريد ، انى فى ورطة ، بريت" ...

نعم هذا هو النص : لقد تذكرها بسهولة . انها فأل حسن ، سوف

أستطيع أن اطرد الغثيان .. انها دعوة أكثر منها فكرة . استمر عصفور فى التنظيم من جديد : يغطس البطل فى المحيط بعينين مفتوحتين ويرى شيئا أخضر ينز من أسفل . اذا ظهر هذا فى الفقرة ، فسوف تمر دون أن اتقيأ . انها رقية ساحرة . واستمر عصفور فى القراءة : عدت الى فندق بعد خروجى من الماء ، والتقطت برقيته . كانت كما تذكرها عصفور :
"أيمكنك المجيء ، فندق مونتانا مدريد ، انى فى ورطة ، بريت" .

لكن البطل قد ترك الشاطيء ، ولا كلمة عن السباحة تحت الماء بعينين مفتوحتين . اندهش عصفور ؛ هل كان يفكر فى رواية أخرى لهيمنجواى ؟ أم أن المشهد من رواية لكاتب آخر ؟ وحطم الشك الرقية وفقد عصفور صوته . وتفتح نسيج من الشقوق المتيبسة فى حلقه وتورم لسانه حتى حاول أن يتفجر من بين شفتيه . مواجها مائة رأس يطارده ، رفع عصفور عينيه وابتسم . خمس ثوان من الصمت اليائس المضحك . ثم انهار عصفور وسقط على ركبتيه ، باسطا أصابعه مثل الضفدع البرى على الأرضية الخشبية الموحلة . وبدأ يتقيأ فى توجع . تقيأ عصفور مثل قط مريض ، وعنقه يكاد ينفصل من فوق كتفيه . وكانت إحشاؤه تتلوى وتعتصر : كان أشبه بشيطان سقيم يتلوى تحت قدم ملك مهول . كان عصفور يأمل على الأقل أن يبدى روح الفكاهة فى أسلوب تقيؤه لكن اداءه الفعلى كان أى شيء آخر الا الفكاهة . أمر واحد ، تماما كما تنبأت هيميكو ، كان طعم القيء عندما يغمر لسانه ثم يعود الى حلقه ، طعم الليمون بالضبط !

قال عصفور لنفسه محاولا أن يستعيد هدوءه :
– البنفسج يزدهر من حائط الزنزانة .

لكن مثل هذه الخدع النفسية تنهار مثل كسرة الخبز فى وجه التشنجات التى تضرب بقوة اللكمة الكاملة المركزة مثل لون فم عصفور فى توجع راعد وتصلب جسده . ونمت على جانبى رأسه عتمة سريعة مثل غمامتى الحصان فحددت مجال رؤيته . تمنى عصفور أن يلجأ الى مكان أكثر ظلمة وعمقا ، ومن هناك يعرج إلى عالم آخر .

ولحظة أخرى ، وجد عصفور نفسه فى العالم نفسه . ومع الدموع التى تبلل جانبى أنفه رمى عصفور ببصره الى بركة تقيؤه . بركة شاحبة صفراء حمراء مبعثرة مع رواسب الليمون الصفراء المشرقة . لابد أن سهول افريقيا عند مشاهدتها من طائرة منخفضة فى وقت الذبول والانزواء من العام تظهر بنفس هذا التدرج فى اللون وتحت بقايا الليمون توارت أفراس النهر وآكلو النمل والماعز الجبلى البرى .. اربط الباراشوت ، امسك بندقيتك واقفز بسرعة الجرادة .

خمد الغثيان ، فمسح فمه بيده الموحلة الملوثة بالقيء الأصفر ، ثم نهض ، وقال فى صوت اللهاث الميت :

- بسبب الظروف ، أنهى الفصل مبكراً اليوم .

بدا أن الطلاب اقتنعوا . تحرك عصفور ليلتقط كتاب القراءة وصندوق الطباشير . ولكن فجأة انتصب رأس من الرءوس المطاردة وراح يصرخ . رفرفت شفتا الصبى الورديتان ، وتوحل وجهه الفلاحى المتخنث المستدير إلى أحمر رجراج . لكن أثناء لفعه لكلماته داخل فمه كان ينزع للفأفأة . علاوة على أنه لم يكن من السهل فهم ما يجزم به ويصر عليه . وتدريجيا اتضح كل شيء . فمنذ البداية كان الصبى ينتقد طريقة عصفور غير المناسبة كمدرس . ولكن عندما رأى استجابة عصفور الوحيدة فى ابداء حالة من الارتباك ، أصبح شيطانا معاديا مهاجما . والقى خطبة عصماء بلا نهاية ، عن التكلفة العالية للمصاريف ، وقلة الوقت المتبقى لامتحانات القبول بالجامعات ، وايمان الطلاب بمدرسة التقوية ، واحساسهم بالنقمة حاليا لأن آمالهم قد خذلت .

وتدريجيا ، كما يتحول النبيذ إلى خل ، تحول ذعر عصفور إلى خوف . وانتثرت حالات من الخوف حول عينيه مثل حلقات غائرة : وشعر بنفسه يتحول إلى قرد مرعوب بمونوكل ..

تخيل سخط مهاجمه يعدى بعد قليل الرءوس التسعة والتسعين التى تطارده : وتخيل نفسه محاطا بمائة ساخط مرفوض من الجامعة . وادرك انه لم يفهم الطلاب الذين كان يعلمهم أسبوعاً وراء أسبوع . عدو غامض بقوة

مائة شخص اكرهه على الدفاع عن نفسه ، واكتشف أن موجات الغثيان المتتالية قد جرفت قوته نحو الشاطىء وغسلتها .

تصاعد هيام المدعى حتى أوصله الى حافة البكاء . لكنه لم يكن يقدر على الرد على الشاب حتى لو حاول : فبعد التقيؤ أصبح حلقه جافا كالقش بلا نقطة لعاب . وأقصى ما يستطيع عمله هو ارسال صيحة عصفور من العصافير باقتدار .

آه .. تأوه بلا صوت .. ماذا أفعل ؟ هذا النوع من المآزق المروعة دائما ما تكمن فى حياتى تنتظرنى لأتعثر فيها . ولكن هذه تختلف عن نوع الكوارث التى من المفروض أن اقابلها فى حياتى كمغامر فى أفريقيا . حتى لو أننى سقطت فعلا فى هذا الفخ ، فلن أموت موتة عنيفة . لعلى سأحملق فقط ببلاهة فى جدران الفخ الى الأبد . أننى أود أن أرسل برقية ، "اننى فى ورطة" .. لكن لمن ؟

فى ذلك الوقت وقف شاب له نظرة ذكية خاطفة من وسط القاعة ، وقال بهدوء وبلا نبرة خطابية :

ـ كفوا عند ذلك ، لو سمحتم .. اوقفوا الشكوى !

وفى الحال اختفى سراب التوتر الذى تصاعد فى كل مكان من حجرة الدراسة . وحل مكانه هيجان مضحك ، وانفجر التلاميذ فى الضحك . استغل عصفور الفرصة واضعا كتاب القراءة فوق صندوق الطباشير واتجه نحو الباب . واثناء خروجه سمع صيحات جديدة جعلته يلتفت ؛ كان الطالب الذى هاجمه منكفئاً على أربع ، حيث تقيأ عصفور ، يتشمم بركة القىء ويصرخ :

ـ رائحة ويسكى ! انك مخمور ، أيها القذر !

سأذهب فوراً إلى الرئيس وسأجعله يطردك !

هبط على السلم الحلزونى ، متحرراً من قاضيه المنكفىء على أربع . ربما مثل ما قالت هيميكو ، كان هناك حقا زمرة من المراقبين الشبان مستعدين لأن يهبوا لمساعدته عندما تتخبطه المشاكل . وللدقائق القليلة التى أخذها فى نزول السلم الحلزونى ، وعلى الرغم من عبوسه من وقت لآخر لنتانة القىء العالق بلسانه أو مؤخرة حلقه .. لمدة هذه الدقائق القليلة كان عصفور سعيداً .

توقف عصفور متحيراً عند مفترق الممرات التى تؤدى الى مكتب أطباء الأطفال وجناح العناية المركزة فى حين انحرف مريض شاب بكرسيه المتحرك ، كان بالقرب منه ، ليدعه يمر ، وأخذ يتفرس فيه ، ولاحظ عصفور أنه يضع مكان قدميه جهاز راديو كبيراً قديم الطراز ، وبالتالى فهو بلا قدمين ، ارتبك عصفور وضغط نفسه ازاء الحائط ، وتطلع إليه المريض مرة ثانية بشكل تهديدى ، وكأن عصفور يمثل كل البشر الذين يحملون أجسامهم عبر الحياة على قدمين ؛ ثم انطلق مارقا فى الممر بسرعة مذهلة .

اذا افترض ان مولوده لا يزال حيا ، فيجب عليه أن يتجه مباشرة إلى الجناح . لكن اذا كان المولود قد مات ، فعليه أن يقدم نفسه الى مكتب أطباء الأطفال لعمل الترتيبات اللازمة للتشريح وحرق الجثة .

بدت المسألة كأنها رهان ، وبدأ يمشى تجاه المكتب واضعا رهانه على موت المولود وجعله هذا الاختيار العدو الحقيقى للمولود ، عدوه الأول ، الأسوأ ، فإذا كانت هناك حياة أبدية واله يحاكم البشر ، إذن فسأعلن أننى مذنب !. لكن ذنبه الآن ، مثل الحزن الذى اجتاحه فى سيارة الاسعاف عندما ذكرته ضمادات رأس المولود بأبوللينير !

نشطت خطوته بشكل مطرد ، وكأنه فى طريقه للقاء محبوبته . تطلع عصفور باحثاً عن صوت يعلن موت المولود . عندما يتلقى الخبر سيقوم بالاجراءات اللازمة (بالنسبة الى التشريح فالأمر سهل ، لأن المستشفى ستسارع بإجرائه ؛ أما حرق الجثة ، فربما يكون عملاً مرهقاً) . اليوم سأبكى المولود وحدى ، وغداً سأبلغ زوجتى بسوء حظنا .. سأخبرها بانه مات من جرح فى رأسه وأصبح رباطا من لحم ودم بيننا .. أو شيئا من هذا

القبيل . سنحاول أن نعيد حياتنا العائلية الى الوضع الطبيعى . ثم ، نعيد الكرة ثانية ، نفس الاستياء والسخط ، نفس الرغبات الوهمية ، وتبقى أفريقيا بعيدة المنال !..

تطلع عصفور داخل نافذة الاستقبال المنخفضة وأعطى اسمه وهو محنى الرأس للممرضة التى حدقت فيه من خلف الزجاج ، وشرح لها الموقف عندما أحضر المولود الى المستشفى .

كانت الممرضة امرأة فى الاربعين من عمرها لها شعرات سوداء متناثرة حول شفتيها . قالت بابتسامة ودودة :
ـ آه ، نعم . تريد أن ترى المولود ذا الفتق المخى . عليك أن تذهب إلى جناح العناية المركزة . هل تعرف أين ؟

أجاب عصفور بصوت أجش ضائع :
ـ نعم ، أعرف . تقصدين أنه لا يزال حيا ؟
ـ طبعا ! انه يأخذ حليبه بكل لطف وذراعاه وساقاه بخير .. مبارك لك !
ـ لكن هذا فتق مخى !..

ابتسمت الممرضة متجاهلة تردد عصفور ، وقالت :
ـ بالضبط ، انه فتق مخى . هل هو طفلك الأول ؟

أومأ عصفور برأسه ، وأسرع عائدا الى الممر تجاه جناح العناية المركزة .. لقد خسر اذن الرهان .. ترى ماذا سيكون الثمن ؟.

التقى مجددا بمريض الكرسى المتحرك عند منعطف بالممر ، لكن هذه المرة مشى دون أن يتنازل له عن المرور .. بعيداً عن كونه خائفا ، لم يكن عصفور حتى واعيا بمحنة المريض . ماذا لو كان الرجل بلا قدمين . كان عصفور خاويا من الداخل كمستودع فارغ . ولا يزال الغثيان يغنى عند فم المعدة وفى رأسه من الداخل أغنية سامة متباطئة . أسرع عصفور فى الممر متنفسا بإرهاق ونفسه كريه الرائحة . كان الممر الذى يتصل بالجناح الرئيسى والأجنحة الصغيرة مقوسا لأعلى مثل الجسر ، فأثار احساس عصفور بعدم التوازن . وكان الممر عبر الأجنحة مطوقا من كلا الجانبين بأبواب غرف المرضى ، يشبه ماسورة البلاعة المظلمة الممتدة تجاه ضوء

خافت بعيد ، فأسرع عصفور من خطواته بالتدريج حتى كاد يركض ووجهه فى لون الرماد .

كان الباب المؤدى الى جناح العناية المركزة يشبه مدخل حجرة التجميد "الفريزر" المصنوع من ألواح الصفيح القوى . ابلغ عصفور اسمه للممرضة الواقفة عند الباب من الداخل كأنه يهمس بشىء مشين . شعر ، من جديد ، بالارتباك الذى انتابه عندما عرف بالأمس لأول مرة بشذوذ المولود فأدخلته الممرضة بشكل غير رسمى .

واثناء اغلاقها الباب وراءه ، رأى عصفور نفسه فى مرآة بيضاوية معلقة على عمود داخل الحجرة فظهر وجهه والعرق يتصبب من الجبين الى الأنف ، وشفتان نصف مفتوحتين بالتنفس المتقطع ، وعينان مكفهرتان : انه وجه ضال . وأصابه اشمئزاز مفاجىء جعله يشيح بنظره بسرعة ، لكن وجهه قد حفر انطباعه خلف عينيه . وحس داخلى مثل وعد مقدس مس رأسه المتوهج : من الآن فصاعداً سأعانى من ذكرى هذا الوجه !

سألت الممرضة الواقفة بجانب عصفور ، كأنها تخاطب أبا أصح وأجمل مولودٍ بالمستشفى :

- أيمكنك أن تخبرنى من هو طفلك ؟

لم تكن تبتسم ، بل انها لم تبد متأثرة . حسم عصفور الموقف بأن هذه لابد أن تكون الشخصية النمطية المحيرة لجناح العناية المركزة ! لم تكن الممرضة التى سألت السؤال فقط بل أيضا ممرضتان صبيتان تنظفان زجاجات المواليد تحت سخان ماء ضخم على الحائط البعيد ، وأخرى أكبر سنا تزن الحليب المجفف ، وطبيب يتفحص بطاقات على مكتب ضيق مقابل حائط مكتظ بالملصقات المطلخة ، وطبيب بجانبه يتحدث مع رجل بدين يبدو ، مثل عصفور ، والد احدى بذور النكبات المجتمعة هنا .. كل واحد فى الحجرة توقف عما كان يقوم به والتفت فى صمت مرتقب لينظر الى عصفور .

حصدت عينا عصفور غرفة المواليد الموجودين وراء حاجز زجاجى عريض وسقط احساسه الواعى بحضور الأطباء والممرضات فى الجناح

على الفور .. وشرع يعاين المواليد خلف الزجاج مثل الأسد الجبلى باحثا فى السهل بعينيه الذابلتين عن فريسة ضعيفة من قمة ركام النمل الأبيض !

كان الجناح يفيض بالضوء المزعج فى غزارته ، حيث لم نكن فى بداية الصيف ، بل فى الصيف نفسه : كان انعكاس الضوء يصفع جبين عصفور وكان هناك عشرون سريراً صغيراً وخمس حضانات من التى تشبه الأجهزة الكهربائية ، فظهر مواليد الحضانات كمجرد أشكال ضبابية تغشى البصر ، كأن السديم قد قام بتكفينهم . أما المواليد فى الأسرّة فكانوا عرايا امام العيان . كأن سم الضوء المتوهج قد قلصهم جميعهم ، فكانوا مثل قطيع ماشية طيع !

كان بعضهم يحرك ذراعيه وساقيه قليلا ، لكن حتى على هؤلاء كانت الحفاضات وملابس النوم القطنية البيضاء تبدو ثقيلة مثل ملابس الغطس المصنوعة من الرصاص . فأعطاه ذلك المنظر الإحساس بالناس المقيدين بالأصفاد ، فبعضهم مقيدة معاصمهم بحواف أسرتهم (لمنعهم من تخديش بشراتهم الرقيقة) . والبعض الآخر مضمدون من كواحلهم بلفافات الشاش . (لحماية الجروح الناجمة عن نقل الدم) . كان هؤلاء الأطفال أكثر المسجونين صغراً وضعفاً ، فكان صمت المواليد موحَّداً . وتساءل عصفور عما إذا كان الحاجز الزجاجى هو الذى يكتم أصواتهم ؟ لا ، كانوا مثل السلاحف الحزينة بلا شهية ، فجميع افواههم مغلقة . وتسابقت عينا عصفور فوق رءوس المواليد . لقد نسى وجه ابنه ، لكنه كان مميزاً بشكل بيّن . كيف عبر عنه مدير المستشفى ، "المظهر" ؟ كان يبدو برأسين ! سمعت ذات مرة عملاً لفاجنر يدعى "تحت النسر المزدوج" .. لابد أن ابن الحرام كان مغرما بالموسيقى الكلاسيك !

لكن عصفور لم يستطع العثور على مولود برأس سوىّ ، وأخذ يدقق النظر بانفعال فى صف الأسِرّة .. وفجأة ، ودون سبب ظاهر فتح جميع الصغار أفواههم وبدأوا يصيحون ويتلوون . ذعر عصفور واستدار نحو الممرضة كأنه يسألها "ماذا حدث" ؟ لكن الممرضة لم تكن تعير صياح المواليد أى انتباه ولا أى شخص فى الغرفة ؛ كانوا جميعهم يسلطون

أنظارهم عليه فى صمت واهتمام بالغ .

قالت الممرضة التى مازالت تلعب لعبة الفزورة :

- هل خمنت ؟ إنه فى احدى الحضانات . ضمن أى حضانة هى موطن مولودك ؟

ثنى عصفور ركبتيه مطيعا ونظر شذراً فى أقرب حضانة ، وكأنه ينظر فى حوض اسماك تعتمه العوالق النباتية والرغاوى . رأى بداخلها مولوداً اشبه بالكتكوت المنتوف ، له بشرة متشققة مبقعة . كان عاريا يغلف يرقانة "قضيبه" كيس من "الفينيل" ، وحبله السُرى مربوط بشاش . انه مثل أقزام الكتب المصورة للحكايات الخرافية . وبادل نظرة عصفور بنظرة حذر قديم ، كأنه يشارك فى فزورة الممرضات . ومع أنه واضح أنه ليس ابنه ، فإن المولود الصغير الصامت ، بوجه شيخ سابق لأوانه ، أوحى لعصفور بشعور قريب للصداقة . قوّم عصفور ظهره واستقام باعداً عينيه بصعوبة عن عينى المولود المبللتين الهادئتين واستدار للممرضات وقد اعتزم ان يبلغهن أنه لن يستمر فى حل الفوازير . بعد ان جعلت زوايا الأضواء وتوزيعها من المستحيل الرؤية داخل الحضانات الأخرى .

قالت الممرضة :

- ألم تخمن بعد ؟ انه فى الحضانة الأخيرة ، قرب النافذة سأسحب الحضانة فوق عجلاتها حتى ترى المولود من مكانك .

كاد عصفور يغضب ، ثم فهم أن هذه اللعبة نوع من الشعيرة الاستهلالية لجناح العناية المركزة . وما إن تكلمت الممرضة حتى حول الآخرون من أطباء وممرضات اهتماماتهم الى أعمالهم ومحادثاتهم .

حملق عصفور فى الحضانة التى أشارت اليها الممرضة . انها تحت نفوذها منذ أن دخل الجناح ، مما أفقده امتعاضه وحاجته للراحة بالتدريج . إنه الآن هزيل مستسلم ، بل من المفروض أن يضمدوه بلفافات الشاش مثل الأطفال الذين بدأوا فى البكاء تحايلاً على كسب الرضا . زفر عصفور نفساً حاراً طويلاً ، ومسح يديه الرطبتين على مؤخرة بنطلونه ، ثم جفف العرق من جبينه وعينيه وخديه . وادار قبضتيه فى عينيه واطفأ اللهب

الصاعد . أحس عصفور وهو يترنح بأنه سوف يسقط ويقفز برأسه فى هاوية .

عندما فتح عينيه كانت الممرضة قد عبرت الى الجانب الآخر من الحاجز الزجاجى ، وأخذت تدفع الحضانة نحوه ، مثل شخص يمشى فى المرآة . واستجمع عصفور قواه ، وتيبس ، وأطبق قبضتيه . ثم نظر الى المولود . لم يعد رأسه محاطا بالضماضات مثل ابوللينير الجريح . ولم يكن مثل أى صغير آخر فى الجناح . كان وجهه أحمر مثل "الجمبرى" المسلوق ولامعا بشكل غير عادى ، كان مغطى بالنسيج اللاصق لاندمال الجروح "البلاستر" . وظن عصفور أن المولود يعانى من تعب عنيف من الطريقة التى يغمض بها عينيه ، وتخيل أن هذا التعب راجع الى الورم الناتىء الذى لا يمكن إغفاله ، مثل رأس أحمر آخر من خلف الجمجمة . لابد انه يشعر بإزعاج ثقيل مثل خطاف عالق برأسه .. هذا الرأس الطويل المستدق ! مطرقة ثبتت أوتاد الصدمة فى عصفور بوحشية أكثر من الورم نفسه . وأحدثت دواراً مختلفاً على غثيان السُكْر .. دوارا مرعبا أثر على وجود عصفور جوهرياً ، واشار برأسه للممرضة التى كانت تراقبه من وراء الحضانة كأنه يقول لها "كفاية" ! أو أن يقر بالاستسلام لشىء لا يستطيع أن يفهمه ، ودارت معركة حامية فى رأسه .. هل سينمو المولود مع هذا الورم ويستمر فى النمو ؟ الواضح انه لم يعد على حافة الموت . ولن تذيبه دموع الحزن السهلة الحلوة وكأنه حلوى رجراجة القوام "چيلى" ! مازال المولود حيا !.. ياله من عذاب مميت .. مقمط ببشرة حمراء مثل "الجمبرى" تلمع ببريق النسيج اللاصق للجروح .. مولود بدأ يعيش بضراوة ساحباً وراءه خطافاً من الورم الثقيل .. وجود نباتى ؟ ربما ؛ أم صبار مميت !

أومأت الممرضة كأنها اقتنعت بما رأته فى وجه عصفور ، وسحبت الحضانة الى مكانها بجوار النافذة . وهبت عاصفة من صراخ الصغار من جديد اهتزت لها الغرفة من خلف الحاجز الزجاجى حيث الضوء يغلى كأنه فى أتون ، وأرخى عصفور رأسه وعلقه .. فالصراخ حشا رأسه المتهالك كما يحشو البارود البندقية . وتمنى وجود سرير صغير له أو حتى حضانة :

حضانه أفضل مملوءة ببخار الماء العلق مثل الضباب ، ويستلقى هو هناك متنفساً عبر خياشيم مثل كائن برمائى أبله !

قالت الممرضة وهى عائدة اليه :
ـ عليك أن تملأ استمارات العلاج فى أقرب وقت . ونطلب منك أن تودع مبلغ ثلاثين ألف "ين" كتأمين !

أومأ عصفور بالموافقة ..
ـ انه يتناول الحليب بلطف ويحرك اطرافه بنشاط .

كان عصفور يسأل معاتبا لماذا بحق الجحيم يشرب حليباً ، ولماذا التمرينات الحركية ؟ لكنه تمالك نفسه .. وكتم انفعالاته !

قالت الممرضة :
ـ اذا انتظرت هنا قليلا ، فسأحضر طبيب الاطفال المسئول .

بقى عصفور وحده بلا نصير يهتم بأمره . كانت الممرضات حاملات الحفاضات ، وصوانى الرضاعات يدفعنه بمناكبهن دون أن ينتبهن إليه ، وكان هو الذى يعتذر . خلال ذلك ، هيمن على الجناح من هذا الجانب للحاجز الزجاجى صوت مدوٍ للرجل القصير الذى يبدو أنه يتحدى أحد الأطباء :
ـ كيف يمكنك التأكد من أنه بلا كبد ؟ وكيف يحدث ذلك ؟ لقد سمعت التفسيرات مائة مرة لكنى لم أفهم شيئاً .

لجأ عصفور إلى مكان بعيد عن طريق الممرضات المنهمكات . ووقف هناك يقطر عرقا مثل الصفصافة وتطلع الى يديه الدبقتين ! كانتا مثل قفازين من الجلد المبتل ، وتذكر يدى صغيره وهو يضعهما خلف أذنيه . كانتا كبيرتين كيديه بأصابع طويلة . ثم أخفى يديه فى جيبى بنطلونه ثم نظر الى الرجل القصير الذى اقترب من الستين الذى أظهر منطقا عنيداً فى مناقشته مع الطبيب . كان يرتدى بنطلونا داكنا وقميصاً مفتوح الصدر بكمين مطويين . كان القميص واسعاً جداً على جسمه الضامر مثل اللحم المقدد . وكان ذراعاه وعنقه محروقة مثل الجلد الداكن ، ناتئة العروق ، حيث يدل شكله على أنه عامل يدوى يعانى من ارهاق مزمن !

كان شعر الرجل المفتل يتشبث بقبعة ، مثل طبق الفنجان ، بذيئة وملوثة بالزيت ، فوق رأسه الكبير . وكان جبينه عريضاً جداً ، وعيناه بليدتين ، وصغر شفتيه وفكيه يقلب التوازن فى وجهه ، لكنه ليس مجرد عامل يدوى . الاحتمال الأكثر انه يساعد فى العمل الثقيل بينما يشحذ قوة تفكيره وأعصابه فى مسئولية الاعمال الصغيرة . وكان حزام الرجل الجلدى واسعا مثل التعويذة ، لكن من السهل توازنه مع نطاق الساعة جلد التمساح المبالغ فيه العاصم لمعصمه فى اليد التى يلوح بها فى وجه الطبيب الذى يفوق علو وجهه بحوالى ربع متر . كانت لغة الطبيب واخلاقه تنبئان عن شخصية موظف صغير ، وبدا الرجل القصير منفعلا فى محاولته لكسب النقاش لجانبه . ولكنه من حين لآخر يلقى نظرة خلفه على الممرضات وعلى عصفور ، نظرة فيها نوع من الانهزامية .

قال الطبيب بترفع :

ـ لا نعرف كيف حدث ذلك ، يمكنك أن تعتبرها حالة نادرة !

لكن الحقيقة أن طفلك بلا كبد . هل رأيت مولوداً آخر له براز كهذا ؟

أجابه الرجل القصير :

ـ رأيت كتاكيت روثها أبيض . ومعظمها لها أكباد ، أليس كذلك ؟

ـ أعرف ذلك .. لكننا لا نتكلم عن الكتاكيت .. انه مولود بشرى !

ـ لكن هل هذا فعلا غير عادى ، مولود برازه أبيض ؟

قال الطبيب مقاطعا بغضب :

ـ براز أبيض ؟ مولود برازه أبيض يعتبر غير عادى أبدا ، نعم .

ـ تمام . كل المواليد بدون كبد برازهم أبيض ، فهمت ، لكن هل معنى ذلك أن كل المواليد الذين برازهم أبيض بلا أكباد ؟

قال الطبيب بصوت غاضب يشبه صرخة أسى :

ـ لقد فسرت ذلك من قبل مائة مرة !

كان يريد أن يضحك للرجل القصير ، لكن وجهه الكبير خلف نظارته السميكة التوى ألما على الرغم منه وارتعشت شفتاه .

أصبح صوت الرجل الضئيل هادئا ولطيفا الآن وهو يقول :

- لو سمحت هل أسمعه مرة أخرى فقط ، دكتور ؟

عدم وجود اى كبد فيه ليس موضوعاً مضحكاً لابنى ولا لى أيضا . أقصد أنها مشكلة خطيرة ، تمام ، دكتور ؟

فى النهاية استجاب الطبيب ، أجلس الرجل الضئيل قرب مكتبه ، وأخرج بطاقة طبية وبدأ يشرح . وهاهو صوت الطبيب وأحيانا صوت الرجل الضئيل المحفوف بنبرة شك ينتقل بين الاثنين بنية اقصاء عصفور . وكان يحاول أن يسترق السمع ، مائلا برأسه تجاههما ، عندما وثب طبيب من الباب الى داخل الجناح وتحرك برشاقة حتى البقعة التى يقف فيها . وهتف الطبيب فى صوت عالٍ رفيع مثل أنغام موسيقى الفلوت المعدنى ، قائلا :
- هل قريب المولود الذى له فتق مخى هنا ؟

قال عصفور ، مستديرا نحوه :
- نعم ، أنا والده ...

تفحص الطبيب "عصفور" بعينين ذكرته بالسلحفاة . ليس عيناه فقط ، بل وذقنه الصندوقى وحلقه المرتخى المتجعد ذكره بالسلحفاة أيضا .. سلحفاة متوحشة نهاشة . لكن فى عينيه نظرة بيضاء لأن المقلتين لم تكونا أكثر من نقطتين بلا تعبير ، وسأله :
- هل هذا طفلك الأول ؟

واستمر فى فحص "عصفور" بريبة ، وأردف قائلاً :
- لابد أنك كنت حانقا ؟!
- نعـم .
- حتى الآن لا يوجد ما يستحق الذكر . سيأتينا مختص فى جراحة المخ لفحص الطفل فى خلال أربعة أو خمسة أيام .

انه مديرنا المساعد ، قمة فى مجاله ، كما تعلم . طبعا ، يجب أن يكون المولود قويا قبل اجراء العملية والا لا داعى لها .

نحن مزدحمون بشكل فظيع فى جراحة المخ هنا ، لذا فالجراحون يحاولون بطبيعة الحال أن يتجنبوا مضيعة الوقت .

- إذن .. توجد عملية ؟

قال الطبيب مسيئاً تفسير تردد عصفور :
- اذا كان الصغير قويا بما فيه الكفاية فسيتحمل العملية بالطبع !
- هل من الممكن أن ينمو الطفل طبيعياً بعد العملية ؟ فى المستشفى التى ولد فيها بالأمس قالوا لى حتى لو اجريت له عملية فلن يكون له سوى نوع من الوجود النباتى .
- نباتى ؟ لا أدرى ، فتفسيرى يختلف !

صمت الطبيب دون اجابة مباشرة عن سؤال عصفور .. وراقب عصفور وجهه ، منتظرا منه أن يتكلم ثانية . وفجأة اجتاحته رغبة مخزية جنونية .. دفعت الدم حاراً فى رأسه .. حين قالوا له فى مكتب الاستقبال ان مولوده لا يزال حيا . وبالتدريج اتضح له معناها وهى تتكاثر بنشاط مرعب . انتزع عصفور السؤال ورفعه ثانية الى سطح وعيه .. كيف يمكننا أن نمضى بقية حياتنا الزوجية ، أنا وزوجتى ، مع مولود مسخ راكب فوق ظهرينا . يجب أن اتوصل إلى التخلص من هذا المسخ . آه ، وإلا كيف يمكننى الذهاب الى افريقيا ؟ وفى توهج الدفاع عن النفس ، وكأن المولود المسخ فى حضانته طارده عبر الحاجز الزجاجى ، فاستجمع عصفور قواه للمعركة . وفى نفس الوقت احمرّ وجهه وعاد يتصبب عرقاً ، خجلاً من الدودة الشريطية للأنانية التى علقت به . أذنان أصابهما الصمم من زمجرة اندفاع الدم خلالها ، وعينان احمرتا تدريجيا كأنهما قد تلقيا لكمة ثقيلة غير مرئية . وأهاج الاحساس بالخجل النار الحمراء التى فى وجهه وأسرع بإسالة الدموع فى عينيه .. آه ، لو أستطيع فقط أن اتحرر من حمل المولود النباتى البشع . لكنه لا يستطيع أن يقول افكاره للطبيب ، فحمل خجله كان ثقيلا . ومع قنوطه أحمر وجهه كالطماطم ، ونكس رأسه بيأس !

قال الطبيب :
- الا تتمنى اجراء عملية للمولود قد تشفيه ، على الأقل جزئياً ؟

ارتجف عصفور : شعر كأن اصبعا خبيرا قد مس جزءاً معيباً فى جسده واكثرها حساسية للمتعة ، مثل صفنه الذى يحمل خصيتيه . وتكلم عصفور بعد أن احمر وجهه فى صوت حقير لم يتحمله هو نفسه :

- حتى بعد العملية ، ان لم يكن هناك أى حظ فى أن يصبح طبيعياً .. هل سينمو كطفل طبيعى ؟..

شعر عصفور بأنه اتخذ أول خطوة فى هبوط منحدر الخسة .. وما كان عليه الا أن يركض هابطا المنزلق بسرعة كاملة ، وستزيد خسته بسرعة مثل كرة الثلج حتى أثناء مراقبته لها . ارتجف عصفور من جديد ، مسلماً بقدره ، واستحالة تفاديه !. ومع ذلك ، فحاليا كما حدث من قبل كانت عيناه المحمومتان المغشيتان بالغمام تتوسلان الى الطبيب .

أعاد الطبيب نظرة عصفور بتعال وبومضة تقزز فى عينيه ، وهو يقول :
- أظنك تعرف أنه من السهل على اتخاذ خطوات مباشرة لانهاء حياة المولود !

اسرع عصفور قائلا :
- طبعـا ..

قالها وكأنه سمع شيئاً إدًا . ثم أدرك أن مرواغته لم تخدع الطبيب . فأصبح الخزى مزدوجاً ، ولم يحاول عصفور فى استيائه أن يبرىء نفسه .
- من الواضح انك أب شاب .. وماذا عن عمرى ؟

أدار الطبيب رأسه السلحفائية بتمهل وحملق فى أعضاء هيئة المستشفى الآخرين بجانبه من الحاجز الزجاجى . ارتاب عصفور فى أن الطبيب يحاول الاستهزاء به ، وكان مرعوبا . إذا حاول أن يلعب بى ، همس فى مؤخرة حنجرته بتبجح عقيم ، وسبح رأسه ، سأقتله ! لكن الطبيب نوى أن يتعامل مع خطة عصفور المخزية . وقال فى صوت مكتوم لا يقدر على سماعه أحد آخر فى الجناح :
- دعنا نحاول تنظيم حليب المولود . يمكننا حتى اعطاؤه ماء محلى بديلاً . وسنرى حالته فى غضون أيام . لكن اذا لم يضعف ، فليس أمامنا الا إجراء العملية ..

قال عصفور فى تنهيدة مريبة :
- أشكـرك .
- العفـو .

جعلت نبرة صوت الطبيب "عصفور" يتساءل من جديد عم اذا كان الطبيب يسخر منه .

ثم قال الطبيب بلطف مسكن كأنه بجانب أحد الأسرة :
ـ ارجع بعد أربعة أو خمسة ايام . لا يمكن أن تتوقع تغييراً ملموساً على الفور ولا داعى لانهاء العمل وتعجل الأمور .

قال هذا وهو يطبق فكيه ، مثل ضفدع ازدرد ذبابة !

انحنى عصفور بعد أن حول بصره عن الطبيب ، واتجه نحو الباب لكن لاحقه صوت الممرضة قبل أن يستطيع الخروج :
ـ من فضلك ، استمارات العلاج فى اسرع وقت ممكن !

أسرع عصفور قاطعاً الممر الكئيب ، كأنه يهرب من مكان الجريمة ، فباغتته حرارة الممر المفاجئة . وانتبه لأول مرة إلى أن الجناح كان مكيفاً . أول هواء مكيف بالنسبة له فى هذا الصيف . ومسح خفية دموع الخجل والقهر الساخنة . لكن رأسه كان يمور بانفعالات أكثر سخونة من الهواء المحيط به وأسخن من دموعه ! واصل سيره فى الممر مرتعشاً بخطوة تماثل للشفاء غير واثقة . ورأى اثناء مروره على نافذة مفتوحة لجناح المرضى ، مرضى لا يزالون يصرخون ، مثل الحيوانات المتسخة مستلقين أو جالسين فى السرير ، ينظرون اليه بوجوه خشبية . خمدت نوبة البكاء عندما وصل لمنطقة الغرف الخاصة . لكن الاحساس بالخجل أصبح نواة تقطن خلف عينيه مثل المياه الزرقاء (الجلوكوما) . ليس خلف عينيه فقط ، بل كانت تتحجر فى كل أعماق جسده العديدة . التصق به الاحساس بالخجل .. وأحس عصفور بهذا الجسم الغريب ، لكنه لم يكن يستطيع التفكير فيه ؛ فلقد احترق مخه ، وانطفأ وخمد .

كانت احدى غرف المرضى مفتوحة وبداخلها وقفت صبية نحيلة عارية تماما كأنها تحرك مزلاج الباب . بدا جسدها ، فى العتمة الضاربة الى الزرقة ، غير كامل النضج ، راحت يدها اليسرى تعانق النتوء الهزيل لثدييها كأنها تشفق عليهما . وأسقطت الفتاة يدها اليمنى لتضرب بطنها المستوى وتشد عانتها ، ثم دفعت قدميها جانباً حتى تباعدت ساقاها

متحدية "عصفور" بعينين تلمعان ولامست باصبعها الاطراف الذهبية لفخذيها . واصل عصفور سيره على الرغم من أن حنوّاً غير مختلف عن الحب حركه نحو الفتاة . وعبر الباب المفتوح دون أن يعطى للمصابة بالغلمة الوقت لتصل الى ذروة لذتها المنفردة . كان الاحساس بالخجل شديداً جدا بالنسبة له ، فلم يعد يهتم بأى وجود آخر غير وجوده هو .

عندما ولج الممر الذى يؤدى الى الجناح الرئيسى للمستشفى لحق به المنطقى القصير بحزامه الجلدى الذى يشبه التعويذة ، ونطاق الساعة جلد التمساح ، ومشى بجانبه . مشى بنفس التحدى المتغطرس الذى استعرضه فى الجناح ، قافزاً كالكرة على قدميه فى محاولة لتغطية الفارق فى طولهما . وعندما بدأ فى الحديث ، رافعا بصره الى وجه عصفور ، بنفس الصوت المدوى :

– يجب أن تدخل معهم فى معركة ، أنت تعرف ، ناضل ! ناضل ! ناضل ! انه نضال مع المستشفى خصوصا الأطباء .. لقد اعطيتهم اليوم مافيه الكفاية فعلاً ، لابد انك سمعتنى .

انصت عصفور فى صمت ، ثم أبدى موافقته ، متذكراً "البراز الأبيض" للرجل القصير ، الذى قال :

– ابنى بلا كبد ، لذا علىّ أن أناضل وأظل أناضل وإلا سيقطعونه حيا ! لا وحق الله ! إذا شئت أن تسير الأمور على مايرام فى مستشفى كبير يجب أن تعرف كيف تناضل أولاً ! لا ينفع السلوك الهادىء اللطيف ، فأنت تأخذ مريضا على حافة الموت ، انه أهدأ من جثة عمرها سنة . لكننا نحن أقارب المريض لا يمكن أن نكون لطافاً . ناضل ! دعنى أقول لك ، انه نضال . مثل ما قلت لهم ، منذ أيام قليلة ، اذا لم يكن للمولود كبد اذن هيا اصنعوا له واحداً . يجب أن تعرف بعض التكتيك اذا أردت النضال ، وهكذا قرأت . وأخبرتهم ، انهم يصنعون شروجا صناعية ، لذلك يجب أن تصنعوا أكباداً صناعية ! علاوة على هذا ، قلت ، إن الكبد مستواه أعلى من فتحة شرج عادية !

وهنا بلغا بوابة المستشفى . أحس عصفور بأن الرجل الضئيل كان يحاول أن يضاحكه ، لكنه بالطبع لم يكن فى حالة تسمح له بالضحك .

فسأله عصفور بدلا من أن يعتذر عن حالة الأسى والاكتئاب التى هو فيها :
- هل سيشفى المولود على الخريف ؟
- يشفى ؟ ابنى ليس له كبد ! لا ، اننى فقط أحارب الفى موظف فى هذا المستشفى الطويل العريض !

كانت لمحة الحزن الفريد وكرامة الضعيف فى اجابة الرجل الضئيل كافية لأن تهز عصفور . ورفض عرضه ليوصله الى المحطة بشاحنته الصغيرة . ومشى الى موقف الاتوبيس بمفرده . وفكر فى الثلاثين الف "ين" التى يجب أن يدفعها للمستشفى . كان يعرف من أين يأتى بهذا المبلغ ، ولهذا أحل غضبا يائساً محل شعوره بالخجل ، وهذا ما جعل "عصفور" يرتعد ، فالمبلغ المطلوب كان يدخره فى البنك كوديعة من أجل رحلته لأفريقيا ! وحاليا ، هذا المبلغ الذى كان يجسد أملاً ، عليه أن يتنازل عنه . ولن يبقى من رحلته الى أفريقيا سوى خريطتى الطرق . تدفق العرق من كل جسده ، وشعر عصفور ببرودة رطبة كريهة على شفتيه وأذنيه وأطراف أصابعه . وأخذ مكانه فى نهاية الصف على موقف الأتوبيس ، وفى صوت مثل أزيز الباعوضة قال :
- "أفريقيا ؟.. ياللسخرية" !

فاستدار الرجل العجوز الذى أمامه مندهشاً وأعاد رأسه الأصلع الكبير ببطء كما كان . فلقد أصيب كل فرد بالتبلد من الصيف الذى هجم على المدينة مبكراً !

وأغلق عصفور عينيه فى وهن ونضح عرقا بارداً . وخيل اليه أن رائحة مقززة تنبعث من جسده . لم يأت الأتوبيس ، والطقس حار . فانتشر ظلام ضارب الى الحمرة فى رأس عصفور الذى كان الخجل يطوقه وكل دوامات الغضب تقصف به . ثم تفتح برعم الرغبة الجنسية عبر الظلام ونما أمام نظره مثل شجرة مطاط صغيرة . وأغمض عينيه ودس يده فى جيب بنطلونه وتحسس عضوه المنتصب . وشعر بأنه بائس ، حقير ، كئيب . وتشوق لأقصى جنس معادٍ لمصلحة المجتمع . نوع من الجماع يعرّى الخجل الذى يتسلل فيه ويكشفه للنور .

ترك عصفور الصف وبحث عن سيارة أجرة بعينين جعلهما الضوء وحشين كاسرين ، فرأى بهما الميدان وكأنه صورة سلبية فيها الألوان السوداء والبيضاء معكوسة ..

سيعود لحجرة هيميكو ، حيث لا يدخل نور النهار . وفكر حانقا ، كأنه يضرب نفسه بالسوط : اذا تمنعت ، سأضربها بلا وعى وأضاجعها بعد ذلك !

تنهدت هيميكو قائلة :
ـ تعرف ، عصفور ، انك دائما فى أسوأ حالاتك عندما تحاول أن تنام معى . أنا لم أرك أبداً اقل جاذبية مثل الآن !

كان عصفور صامتا بعناد ، واستكملت كلامها :
ـ لكنى سأنام معك إذا كنت ترغب فى ذلك . فأنا لم أعد شديدة الحساسية إزاء الأمور الأخلاقية منذ انتحار زوجى . فاذا اردت أن تحصل على أحط أنواع الجنس معى ، فأنا متأكدة من أنى ساكتشف شيئا ما اصيلا فيما نفعله .

أصيل .. صادق ، حقيقى ، واقعى ، نقى ، طبيعى ، مخلص ، جاد ؛ يرتب مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة التقوية ترجمة الكلمات داخل رأسه . وفى حالته الحالية ، فكر عصفور أن أى معنى من هذه المعانى لا ينطبق عليه .

واردفت قائلة :
ـ استلق انت فى الفراش اولا ؛ أريد أن أغتسل .

خلع عصفور ثيابه المشبعة بالعرق على مهل واستلقى على البطانية البالية . أسند رأسه على قبضتيه وتطلع الى الكرش الهزيل الذى حول بطنه والى بدنه الذى يميل الى البياض وشبه المنتصب . وكانت هيميكو قد تركت باب الحمام الزُجاجى مفتوحاً وجلست على مقعد المرحاض ، وفتحت ساقيها تماما وغسلت نفسها بالماء من إبريق كبير كانت تمسكه فى يدها . راقبها عصفور من السرير لفترة وتصور أنها قد حصلت على هذه المعرفة من العلاقات الجنسية مع الأغراب . ثم عاد للنظر بهدوء الى بطنه وبدنه وانتظر .

ونادت هيميكو وهى تفرك نفسها بنشاط بمنشفة كبيرة ؛ وكان الماء قد تناثر حتى صدرها :
- عصفور .. اليوم خطر علىّ بالنسبة للحمل ؛ هل معك ما يلزم ؟
- لا ، ليس معى أى شىء .

حَمْل ، وخزت الأشواك الملتهبة عصفور ففلتت منه نعم !

وخرجت آهة حزينة من فمه . وتوغلت الأشواك حتى وصلت الى الأعضاء الحيوية واستمرت فى الاحتراق هناك .

قالت هيميكو :
- اذن علينا أن نفكر فى شىء ما ، عصفور .

انزلت هيميكو الابريق الى الارضية بضجة مثل دوى المسدس ، وعادت بجانب عصفور متابعة تنشيف جسمها بمنشفة الحمام . وامسك عصفور بدنه الذاوى فى ارتباك ، وقال :
- لقد فقدته بغتة ، هيميكو ! أنا لا أصلح لأى شىء الآن . حدقت هيميكو فى عصفور واستمرت فى تنشيف جانبيها وصدرها . وبدت تفكر فى المعنى الخفى فى كلمات عصفور . واثارت رائحة جسدها ارهف ذكريات لأيام الكلية فى فصول الصيف فأمسك عصفور عن التنفس : انها رائحة تحمص البشرة فى الشمس . وجعدت هيميكو أنفها مثل الجرو وضحكت ضحكة ساذجة . فأصبح عصفور قرمزياً .

قالت هيميكو بلا مبالاة :
- تظن أنك لا تصلح .

تركت المنشفة تسقط عن جسدها ، وتحركت لتغطى جسد عصفور بجسدها ، فانغرس نهداها الصغيران مثل النابين . وسقط عصفور ، مثل الطفل أسيرا لغريزة الدفاع عن الذات ؛ وهو لا يزال قابضا على بدنه بيد ، وواضعا يده الأخرى على بطن هيميكو . وبغوص يده فى لحمها الناعم تخدرت بشرته .

وقال فى تبرير سريع :

- صياحك بكلمة "حامل" سبب لى ذلك .

فاعترضت هيميكو بنظرة حانقة :
- انا لم ارفع صوتى عاليا ..
- كلمة "حامل" هى الكلمة الوحيدة التى لا يمكننى تحملها فى هذه اللحظة ، انها أثبطت كل عزيمتى !

غطت هيميكو نهديها وبطنها بذراعيها ، ربما بسبب أنه أخفى بدنه بعناد ، مثل المصارعين القدماء الذين كانوا يتصارعون عرايا ، فأول ما يدافعون عنه هو اجزاؤهم الأكثر حساسية بأيديهم ثم يقفون على أرضهم ناظرين بعضهم للبعض بحذر .

قالت هيميكو دون غضب ، فلقد ادركت شيئا فشيئا ثقل الموقف :
- ما الخطب ، عصفور ؟
- فكرت فى الحمل .. وانهرت تماما .

ضمت هيميكو ساقيها وجلست ملاصقة لفخذ عصفور . فابتعد ليفسح لها مكانا فى السرير الضيق . انزلت هيميكو الذراع التى كانت لا تزال تغطى نهديها ، ولمست برفق يده التى لا تزال تقبض على بدنه .

قالت بهدوء ولكن باقتناع :
- استطيع أن أجعلك تنتصب . تعلمت الكثير من بعد ليلة فناء الأخشاب .

غرق عصفور فى شعور من الظلام ، والعجز القاسى ، وتحمل دغدغة أصابع هيميكو على يده . هل يقدر على شرح حالته باقناع ؟ كانت لديه شكوكه . لكن كان عليه التفسير ، أن يقفز حائط مأزقه .
قال مشيحاً بنظره عن المنظر الجاد المحزن لنهدى هيميكو :
- إنها ليست مسألة براعة . المشكلة هى الخوف !
- الخوف ؟

وبدت هيميكو تقلب الكلمة فى ذهنها على أمل اكتشاف مغزى المزحة !

قال فى محاولة تفسيرية لها مسحة المزاح ، بفشلها يغرق فى كآبة أعمق :
ـ أنا أخاف من الأماكن المخفية التى خلق فيها ذلك المولود المسخ . عندما رأيت المولود برأسه المربوط بالضمادات ، فكرت فى أبوللينير .. يبدو هذا مرهفا ، لكنى شعرت لو أن المولود قد جرح فى رأسه أثناء معركة حربية مثل أبوللينير .. لكن مولودى تلقى ضربة فى معركة منعزلة داخل فتحة محكمة مظلمة لم أرها أبداً .

واثناء حديثه ، تذكر عصفور العرق ودموع التفكير التى ذرفها فى سيارة الاسعاف .. لكن دموع الخجل التى ذرفتها فى ممر المستشفى اليوم تفوق اى تكفير .. "لا أستطيع أن ادخل نفسى فى أرض هذه المعركة" !

قالت هيميكو :
ـ لكن ألا يقتصر هذا عليك وعلى زوجتك ؟ اقصد أليس هذا الخوف المفروض أن تعانيه عندما تدنو زوجتك منك جنسياً بعد استرداد صحتها ؟

تداعى عصفور المهموم مسبقاً بلحظة الذعر التى لا يزال حدوثها بعد اسابيع .
ـ اذا أعدنا الكرة من جديد .. أعرف اننى سأشعر كأنى أسافح ابنى الوليد علاوة على خوفى هذا . وبعد كل هذا ألن يذوى ذلك حتى البدن الفولاذى ؟
ـ مسكين عصفور . اذا تابعت الاستماع اليك ستخلق مائة عقدة وعقدة لتبرر عجزك .

وبعد مزحتها هذه ، رقدت على بطنها فى المسافة الضيقة بجانب عصفور الذى انكمش فوق السرير الذى هبط ، مثل الارجوحة الشبكية ، تحت الوزن الاضافى ، منصتا الى تنفس هيميكو المكتوم القريب من أذنه . اذا تملكتها الرغبة حاليا فسيكون مجبراً على فعل شىء ما لها .

لكن ايلاج بدنه الهش فى جوف مغلق معتم وراء تلك الطبقات العديدة شديدة الرطوبة .. أمر لا يستطيع فعله . مست شحمة أذن هيميكو صدغ

عصفور بحرارة . وعلى الرغم من أنها مستلقية فى صمت مضنٍ ، كان جسدها يبدو تحت رحمة ملايين من ذباب الرغبة . فكر أن يشفى دون أن يجامعها . لكن ألم تفش له ليلة أمس أن ذلك ما تنفر منه كالاستمناء . فلو عرض عليها الأمر من جديد ورفضت بنفس الكلمات ، فكلاهما سيشعر كأنه ركل الآخرة بقسوة ، هناك شىء يمكن عمله اذا كانت هيميكو مصابة ببعض السادية . سيحاول أى شىء على ألا يشمل الامر اى جماع حقيقى بها . يمكن أن تضربه أو تركله أو تهشمه وسوف يتحمل ذلك بهدوء ؛ بل لن يتردد فى ارتشاف بولها . ولأول مرة فى حياته يكتشف الماسوشية فى نفسه . وكان هذا بعد ما انغرس فى مستنقع الخجل الذى ليس له قرار ، بل شعر حتى بانجذاب لطريقة انتقاص الذات لتلك المخزيات الجديدة التافهة .. وهكذا ، كما يظن ، ينحرف المرء نحو الماسوشية . ولكن لماذا لا يقول الكلام على نفسه ويكون صريحاً ازاء ذلك ؟

بعد بضع سنوات من الآن ، عندما يصبح ماسوشيا فى الأربعين ، ربما سيتذكر هذا اليوم كمولد لاهتدائه للدين . سعى عصفور للالتزام : وأن الانحلال انحلال النفس ، ولا مكان لشىء آخر للتركيز عليه .

ـ عصفـور .

نعـم ؟

أجابها بصوت مستسلم ؛ وهكذا بدأ الهجوم أخيراً !

ـ يجب أن نتغلب على المحظورات الجنسية التى خلقتها لنفسك ، وإلا ستنهار حياتك الجنسية .

قال عصفور :

ـ أعرف . كنت أفكر لتوى فى الماسوشية .

وبازدراء كافٍ كان يتوقع هيميكو أن تثب على الذبابة التى ألقى بها لتقدم قاعدة قياس خاصة بها مع إجابة حزينة بأنها فكرت من جانبها كثيراً فى السادية . كان عصفور تنقصه حتى الأمانة الطائشة لمنحرف طموح . فمن الواضح أن سموم الخجل قد أتت به الى تطرف خادع .

ولكن عندما تكلمت هيميكو بعد ذلك الصمت المحير ، لم يكن رداً على

أحجية عصفور :

– إذا كنت تريد السيطرة على خوفك ، فعليك أن تعزله ، بتحديد باعثه بالضبط .

ظل عصفور صامتا ، لعدم تأكده مما تقصده هيميكو ، وأردفت هى قائلة :

– أهو المهبل والرحم فقط ؟ أم أنت خائف من كل ماهو أنثوى ؟ منى كلى بصفتى امرأة ، مثلاً ؟

فكر عصفور لحظة ، وقال :

– أظن من المهبل والرحم . بما أنك شخصيا لا علاقة لك بمصيبتى ، أتصور أن عجزى عن مواجهتك وأنت عارية سببه انك تملكين واحدا .

– فى هذه الحالة لماذا لا تتجاهلهما ؟

وأضافت هيميكو فى نزاهة حذرة :

– اذا امكنك أن تحصر خوفك فى المهبل والرحم ، اذن فعدوك الذى تحاربه يعيش فقط فى ذلك العالم . ما سر خوفك اذن ؟

– إنه هذا الشىء الذى كنت اتكلم عنه . لدى انطباع بأن هناك ما تسميه عالما آخر . انه مظلم ، لا نهائى ، انه يعج بكل ماهو غير إنسانى : عالم مسخ . وأخاف ان دخلته ، أن أسجن فى نظام زمنى لبعد آخر بحيث لا يمكننى العودة .. ان خوفى يتشابه بخوف الفضاء الوهمى الذى يعانيه رواد الفضاء .

شعر عصفور بأن منطق هيميكو يؤدى إلى شىء ما سيزيد من احساسه بالخجل ، فكان يختبىء وراء ساتر اللغة ، ليتحاشى ذلك . لكن هيميكو كانت متشبثة برأيها .

– أتظن أنك ستكون أقل خوفاً من جسد المرأة لو كان بلا مهبل ولا رحم ؟

تردد عصفور ، ثم قال بخجل :

– هذا ليس مهماً بهذا القدر ، لكن هناك أيضا الثديين ..

ـ تقصد أنك لن تخاف إن دنوت منى من الخلف ؟
ـ لكـن ..
ـ عصفور ، لطالما فكرت أنك من النوع الذى يرغب الصبيان فى التوله به . ألم تضاجع واحدا من الصبية الصغار ؟

كانت الخطة التى رسمتها هيميكو أكثر من كافية للتغلب على حساسية عصفور الشديدة ازاء اخلاقياته الجنسية . بهت عصفور ، وأخذ يفكر ، لا يهم كيف سيكون الأمر بالنسبة لى ، متحرراً للحظة من الانشغال بنفسه . قد تتحمل ألماً كبيراً ، ومحتمل أن يحدث لها تمزق ، وقد تنزف . وسيلطخنا القذر والفحش ! لكنه فجأة ، تلوى فى تقززه مثل حبل طويل ، وشعر برغبة جديدة متدفقة . وهمس فى صوت به بحة الرغبة . وكان هذا تعبيراً نهائياً للمقاومة .

ـ ألن تشعرى بعدها بالمهانة ؟
ـ لم أشعر بالمهانة عندما غطانى الدم والوحل ونشارة الخشب فى ليلة شتاء فى فناء الأخشاب .

قال عصفور :
ـ لكن أية لذة فى ذلك بالنسبة لك ؟
ـ حاليا ، أنا مهتمة بعمل شىء ما من أجلك ياعصفور .

ثم أضافت بلطف كبير ، كأنها تبعد عنه كل حرج :
ـ كما قلت لك من قبل ، يمكننى اكتشاف ما أدعوه شيئاً أصيلاً فى أى شىء جنسى نفعله .

صمت عصفور ، وراقب هيميكو دون أن يتحرك من على السرير وهى تأخذ شيئًا ما من مدينة القوارير الصغيرة التى على منضدة الزينة وتمشى الى الحمام وتأخذ منشفة كبيرة نظيفة من الدُرج . ويرتفع مد القلق ببطء ، محاولا اغراقه . التقط زجاجة الويسكى من جانب السرير وتجرع من الزجاجة . وتذكر كيف تشوق لممارسة جنسية فاحشة حافلة بالخزى والعار ، وهو عند موقف الأتوبيس أمام المستشفى تحت شمس الظهيرة .

لقد أصبح تشوقه ممكناً . أخذ عصفور جرعة أخرى من الويسكى وسقط ثانية على السرير . فهو الآن يحس بالتوقد ، ينبض بحرارة . تجنبت هيميكو عينيه عند عودتها الى السرير ، وتعبير أكمد نواح على وجهها . هل كانت هى الأخرى فريسة رغبة استثنائية ؟ لم يستطع عصفور أن يمنع نفسه عن الابتسام . فكر : لقد تخطيت الحائط الأعلى أولا ، يجب أن أقدر على ازالة حواجز الخجل الآن ، مثل مقتفى الأثر فى وقت لا متناه .

قالت هيميكو مسيئة الظن بمشاعره :

ـ عصفور ، ليس هناك ما يدعو للقلق . لا تفكر فى أى مخاطر ..

فى البداية كان موسوساً من هيميكو . لكن بعدما تابع الفشل فشل غيره بدأ يشعر بأن الأصوات المضحكة والرائحة الخاصة كانت نوعا من التهكم ، وحرمه امتعاضه بالتدريج من كل المشاعر فيما عدا انهماكا أنانيا فى نفسه . وبعدها بقليل نسى عصفور هيميكو . واللحظة التى شعر فيها بأنه نجح ازداد انكبابا بشكل محموم . وتفجرت نتف من الأفكار الشاردة كشظايا قذيفة عبر ذهن عصفور : كان هذا مقدمة استهلالية للمتعة . كراهية النهود الرخوة واعضاء الحيوانات التناسلية الفظة ، رغبة فى لذة منفردة أنانية ، تحاشى عيون النساء المتفرسة فى وجهك ، القلق ازاء لذة المرأة أثناء الجماع . تسجيل المسئولية فى ذهنك بعدما تحمل . كل هذا يضع الأغلال حول عنقك . واقتلع عصفور صرخة حرب من خلف رأسه الملتهب : اننى حاليا اجامع امرأة بأحط طريقة مخزية ! أنا قادر على كل ماهو منحط وتافه ، أنا الخجل نفسه . وما يمزقه بدنى الآن هو فى الواقع أنا ، وشاط رغبة عارمة وسفعته لذة تهيج جنسى بشدة يدور لها رأسه .

انتفض عصفور من المتعة ، وكل انتفاضة تقتلع صرخة توجع لذيذ من هيميكو . كان يسمعها شبه غائب . وفجأة ، كأن كراهيته لم تعد تحتمل ، عض عنق هيميكو عند التقائها بالكتف . فصرخت من جديد . ورأى حين فتح عينيه نقطة دم تقطر على عنقها نحو خدها . وتأوهت مرة أخرى .

انتبه عصفور مرعوباً لما فعله فقط بعدما مرت اللذة ، وشعر بأنه تحول الى حجر . وتساءل بعد هذا الجماع اللاإنسانى ، هل ستعود الإنسانية الى

علاقتهما ؟ ورقد على بطنه كالصخرة ، لاهثا ، متمنياً أن يخمد نفسه ويموت . لكن هيميكو كانت رائعة لتهمس به بصوت عذب غنى بالسلام :

ـ تعال الى الحمام كما أنت ؛ سأتولى أمرك .

وباندهاش جاء العون والتحرر . وتولته هيميكو كأنه عاجز مشلول بينما كان مشيحا بوجهه المشتعل . وغاص الاندهاش فى عصفور واستقر بالتدريج . ولم يكن هناك شك فى أنه كان فى ايد خبيرة جنسيا . على أى نمط اجتازت هذه الصديقة الطريق الطويل منذ تلك الليلة الشتوية ؟ وقابل عصفور اعتناءها به بأنه نظف بالمطهر الجروح التى تركت أسنانه أثرها على كتفها . قام بتنظيف العضات الثلاث المبعثرة بطريقة خرقاء ، كطفل خجول . وبعد الاحساس بالخلاص ، لاحظ عودة اللون بهدوء الى وجنتى هيميكو وجفنيها .

أبدلت هيميكو ملاءات السرير ، واستلقيا مرة أخرى على السرير جنبا الى جنب . وأصبح تنفسهما الآن عادياً . أقلق صمت هيميكو عصفور ، لكن هدوء تنفسها وعينيها وهى تحملق فى العتمة . أعادت اليه الطمأنينة . وكان هو نفسه يشعر بسلام عميق ، بعيدا عن أى ميل للبحث النفسى وطرح الأسئلة . كان يستمتع بتذوق الامتنان . وليس مقصوراً على هيميكو وحدها انما امتنان للسلام الذى اكتشفه ، وبالرغم من أنه لن يدوم طويلا بالتأكيد ، بسبب دوامة الاضطراب العظيم من حوله مع فخاخها الفاسدة الشريرة . ومع ذلك كانت حلقة الخجل التى تطوقه مازالت تزداد حتى الآن . كان رمز هذا الخجل قابعا من قبل فى جناح مستشفى بعيد . لكن عصفور كان مضطجعاً فى حوض دافىء من السلام . ولاحظ أن الحاجز الداخلى قد تلاشى بعد أن تغلب عليه .

قال :

ـ هل نحاول من جديد ، الطريقة الطبيعية ؟ لا أظن أننى سأعود للخوف بعد الآن .

ـ شكراً لك ياعصفور . لماذا لا تأخذ نوماً ، اذا كنت فى حاجة اليه ، ولننام بضع ساعات ؟ إن لم تكن خائفاً بالفعل حين تستيقظ ..

وافق عصفور ، وشعر بأنه لا يحتاج لمنوم فى حالته الراهنة .

قال ببساطة :

ـ انك راحة لى .

ـ أحاول أن أكون . أراهن أنك لم تجد الراحة منذ بدأ كل هذا . فى أوقات كهذه يجب أن يكون هناك شخص ما يعينك ويريحك على الأقل مرة . والآن ستجد نفسك عاجزاً عندما يتطلب الأمر استجماع الشجاعة والانفلات من الظلمة !

ـ الشجاعة ؟ ومتى سأحتاج لاستجماع الشجاعة ؟

قالت هيميكو بلا مبالاة ، ولكن بقوة مقنعة فى قوتها :

ـ أوه ، سترى . ستحتاج ذلك كثيرا ومن الآن .

وجد عصفور نفسه ينظر إليها كأنها مقاتل قديم حنكته غزوات الحياة اليومية بخبرة أكثر منه بشكل لا يقارن . لم تكن خبيرة فى الجنس فقط ، بل تمتد خبرتها لكثير من أمور الحياة فى هذا العالم الواقعى . وأقر بأنه بدأ يقع تحت تأثيرها . إنما بفضل مساعدتها تغلب لتوه على واحد من مخاوفه . هل شعر من قبل بمثل هذه البساطة وهو يتحدث مع امرأة بعد الجماع ؟ لا يظن . فبعد الجنس ، حتى الجنس مع زوجته ، كان عصفور يقع أسيراً لمشاعر رثاء الذات والاشمئزاز . قال ذلك لهيميكو دون ذكر زوجته .

ـ رثاء الذات ؟ اشمئزاز ؟ اذن لم تكن بلغت النضج الجنسى . ولا النساء اللواتى عاشرتهن ، أيضا . أراهن أنك لم تشبع رغبتك تماما ، أليس كذلك ؟

شعر عصفور بالحسد والغيرة أيضا . فلابد أن ذلك الشاب والكهل المتأنق الذى يشبه غولاً له رأس بيضة ، اللذين ناديا على هيميكو من خارج نافذتها فى منتصف الليل ، لابد بكل تأكيد أنهما أقاما علاقة جنسية معها مشبعة تماما . ولما ظل عصفور فى صمته النكد ، قالت هيميكو ، بلا مبالاة من جديد ، على الرغم من أن استياءها كان واضحا :

ـ لا شىء أكثر حماقة وغباء من فعل الجنس مع احداهن ثم تشعر

بالأسف نحو نفسك . يبقى الاشمئزاز أفضل .
ـ معك حق . ولكن عموما الذين يحدث لهم ذلك لا يكون لهم شريك خبير مثلك .

شعر عصفور بأنه يستلقى على وسادة محلل نفسى ، وعندما أفرغ مافى نفسه من حديث بلا خجل وانغماس ذاتى بدأ ينجرف للنوم ، متسائلاً كيف لشاب يتزوج هذه المراة الذهب وينتحر . وفى العتمة المتبلدة خلق فيروس النوم فكرة تسلقت فى رأسه : هل بسبب علاقتها مع غيره ؟ لقد شنق زوجها نفسه فى هذه الحجرة ، بعد أن نهض من هذا السرير عارياً تماماً مثلما يفعل عصفور الآن . وباستدعاء تليفونى ، فى ذلك اليوم ، من هيميكو ، فك رقبة الشاب الميت من الحبل وساعد فى انزاله الى الأرضية ، كجزار يقوم بإنزال جانب من عِجْل مذبوح من غرفة تبريد . وفى الحلم الباهت الذى يأتى مباشرة تحت مظهر النوم الخارجى ، رأى عصفور نفسه والشاب المنتحر سواء بسواء ! وبالجزء الذى يمثله وكان واعيا أمكنه أن يشعر بيدى هيميكو وهى تجففه ، بينما وعى داخل حلمه حركة يديها المرتعشتين على جسده اثناء تطهيرها للشاب الميت . أنا الشاب الميت ، فكر عصفور ، والصيف الآتى سيكون سهل الاحتمال ، لأن الجثة مثلجة مثل شجرة الشتاء ! وارتعش وهو يصارع متجها نحو سطح حلمه . وهمس لكنى لن أقترف الانتحار ! وغرق فى عتمة نوم أعمق !

كان حلم عصفور الذى أيقظه مزعجا ، الوجه المقابل للحلم البرىء الذى أدخله فى النوم ، شىء مدرع بالأشواك الذى يوحى بالكرب . كان النوم بالنسبة لعصفور كقمع دخله من الجهة الواسعة السهلة وعليه أن يخرج منه من المخرج الضيق . كان جسده المنتفخ مثل المنطاد يعبر ببطء مساحة معتمة لا تنتهى . لقد تم استدعاؤه ليمثل أمام محكمة وراء الظلمات ، وكان يبحث عن طريقة يعميهم بها عن مسئوليته عن موت الطفل . ومع يقينه أنه سيعجز عن خداع المحلفين ، الا أنه كان يشعر فى نفس الوقت بأنه يود أن يستأنف الدعوى .. فالجناة .. هم موظفو المستشفى ! ألا توجد طريقة أستطيع به الهروب من العقاب ؟ ولكن معاناته ازدادت حدة عندما استمر فى دفع منطاد صغير !

استيقظ عصفور ، وعضلاته كلها تؤلمه ، كأنه نائم فى مكان تكوينه الجسمانى يختلف عنه . وشعر بجسمه كأنه ملفوف بطيات من الجص . ترى أين يمكن أن أكون .. فى وقت حاسم كهذا ! فى وقت يتعارك فيه مع مولود مسخ ! وتذكر حديثه مع الطبيب فى الجناح ، وافسحت احاسيسه بالخطر المجال لاحاسيسه بالعار . ولم تختف الأولى ولكنها تكيست فى مثانة الثانية : أين أنا بحق الجحيم .. فى وقت حرج هكذا !

رفع عصفور صوته قليلا وأحس بأنه أصبح منقوعاً بالخوف نفسه !. وهز رأسه كأنه فى حالة تشنج .. باحثا عن مفتاح طبيعة فخ الظلام المأسور فيه .. وارتعد !

كان عاريا كمولود بلا حماية ، ومما زاد الطين بلة أن جسداً آخر عارياً كان نائما بجانبه . هل كان نائما عاريا مع زوجته دون أن يخبرها بسر المولود المسخ الذى ولدته ؟ آه ، لا يمكن ! فمد يده ولمس رأس المرأة العارية ، وأثناء لمسه بيده الأخرى على كتفها وخاصرتها (كان الجسد كبيراً وفيراً ، مع نعومة بشكل يختلف عن جسد زوجته) . لفت المرأة جسدها ببطء ولكن بثبات حوله . واتضحت الرؤية باستيقاظ عصفور وتعرفه على حبيبته هيميكو ، واستعاد رغبته المتحررة من عقدته . وتناسى الألم الذى فى ذراعيه وكتفيه واحتضن هيميكو مثل دب يعانق عدوه . وبعد مداعباته استيقظت هيميكو ، وابتسمت لعصفور بعد أن أدارت رأسها نحوه ، وقبلته بشفتيها الحارتين الجافتين . ودون أن يغيرا وضعيهما انساقا بلطف فى اتحاد جسمانى .

– هل يمكنك أن تصمد حتى أبلغ لذتى ؟

كان صوت هيميكو نائما . لابد أنها اتخذت احتياطها إزاء خطر الحمل ، لأنها قد أخذت خطوتها الأولى بلا رجعة نحو متعتها الشخصية .

– استطيع الصمود بالتأكيد .

قال عصفور برجولية ومشدوداً كملاح اخبروه تواً بقدوم عاصفة . وأدى مهمته باحتراس متمالكا نفسه بعزم كى تبلغ اللذة ، أملا أن يصلح حاليا ما أفسده بأدائه المؤسف فى فناء الأخشاب .

اطلقت هيميكو صرخة لفظت فيها اسمه ، تستدر الشفقة وتناسب وجهها الطفولى المشدود لأعلى عبر الظلام :
- عصفـور !

استعد عصفور مثل جندى مصاحب رفيقه فى الجيش نحو معركة خاصة ، بالثبات وضبط النفس ، بينما تلوت هى بشدة من جماعهما الذى وصفته بالشىء الأصيل وكان كله ملكها . وبعد اللحظة الجنسية ارتعش جسمها كله ولفترة طويلة . ثم ازدادت رقة وعجزا ورهافة بطريقة أنثوية مطلقة . وأخيرا ، أفرجت عن تنهيدة مكبوتة مثل حيوان وليد مشبع وعادت الى النوم حيث كانت . وشعر هو كأنه ديك يسهر على دجاجة . ظل لا يتحرك مسنداً ثقله على مرفقيه خوفا من ارهاقها بثقله ، ومستنشقا رائحتها الطيبة التى انبعثت من رأسها شبه المدفون تحت صدره ، ولم يرد قطع نومها الطبيعى .

لقد تخلص عصفور من عقدته من كل شىء أنثوى كان يحتل ذهنه منذ بضع ساعات . وعلى الرغم من أنها أكثر أنوثة الآن عن أى وقت مضى ، لم يعد يخشاها إطلاقا . أحست شريكته الفطنة بهذا وسمع عصفور تنفسها يعود لطبيعته وعلم أنها سقطت فى النوم . ولكنه عندما حاول الانسحاب من جانبها ، شعر بشىء على ذكره مثل قبضة يد دافئة رقيقة . كانت هيميكو تمارس محاولتها لاستعادة طفيفة لما حدث بينهما . كان عصفور فى غاية الرضا جنسياً . ابتسم فى سعادة ونام فى الحال .

ومرة أخرى كان النوم مثل القمع . دخل عصفور بحر النوم بابتسامة ، لكن عند العودة لضفاف الواقع استولى عليه حلم خانق فيه الخوف من الأماكن الضيقة . ففر من حلمه صارخا . وعندما فتح عينيه كانت هيميكو مستيقظة تحملق بقلق فى دموعه !

عند صعود عصفور السلالم المؤدية إلى غرفة زوجته بالمستشفى ، حاملاً حذاءه بيد وكيسا من الجريب فروت تحت ذراعه ، التقى بالطبيب الأعور الذى كان يسبقه بعدة سلالم ، فسأله :

ـ ما الأخبـار ؟

فقال عصفور :

ـ لا يزال حياً .

ـ والعمليـة ؟

قال عصفور شاعراً باحمرار وجهه :

ـ انهم يخافون أن تسوء صحته ويموت قبل أن يستطيعوا اجراء العملية .

ـ لعل هذا أفضل !

ازداد احمرار عصفور بشكل ملحوظ ، وظهرت ارتعاشة على جانبى فمه ، الشىء الذى أشعر الطبيب بالخجل ، فقال متحدثا فى الهواء من فوق رأس عصفور :

ـ لم نخبر زوجتك عن مخ المولود . انها تعتقد بوجود خلل عضوى . بالطبع ، المخ عضو ، اذن فهذه ليست كذبة . فلو بدأنا بالكذب فلن ننتهى .

قال عصفور :

ـ نعـم .

ـ حسنا اذن ، لا تتردد فى الاتصال بى اذا احتجت لأى شىء . تبادل الاثنان تحية باحتشام وافترقا على السلالم متحاشيين النظر احدهما للآخر . لقد قال الطبيب أن هذا سيكون على الأرجح أفضل للجميع . أن

يضعف ويموت قبل اجراء العملية . يعنى هذا الهروب من مسئولية المولود النباتى ، ولا حاجة إلى تلطيخ يدك بقتله . كل ما عليك أن تفعله هو انتظار موته فى مستشفى حديث . وحاول ألا تفكر فيه . وشعر عصفور بتجدد الاحساس بالعار المظلم العميق فيه وبأن جسمه يتيبس .

مشى بخطوات قصيرة حذرة كالنساء الحبالى أو الناقهات اللواتى يلتقين به بملابس النوم متعددة الألوان بالممشى . كان هو نفسه حاملاً فى رحم مخه ، جسداً يتلوى . انه احساس بالخجل . وبدون سبب حقيقى كانت النسوة فى الممر ينظرن اليه بتعال . انهن النسوة اللاتى راقبنه يغادر المستشفى فى سيارة الاسعاف مع مولوده المسخ . انهن الملائكة الحبالى أنفسهن . وللحظة كان متأكدا انهن على علم بما حدث لابنه منذ ذلك الحين . وربما مثل المتكلمين من بطونهم يتمتمن من خلف حناجرهن . آه ! اذا كنتن تقصدن ذلك الوليد ، فلقد أودع فى حضانة آمنة فى سلخانة الصغار الجدد ، تسوء حالته الى أن يموت .. وهذا أفضل على الأرجح !

حاصر عصفور عويل العديد من الصغار مثل الزوبعة . سقطت عيناه الزائغتان على صفوف من المهاد فى جناح الأطفال . وفر مهرولاً فى الممر وكان لديه شعور بأن العديد من الصغار يتطلعون عليه .

تشمم عصفور بحرص يديه وذراعيه وكتفيه وحتى صدره أمام باب غرفة زوجته . لا داعى للقول كيف ستتعقد حالته اذا اكتشفت زوجته بحاسة شمها المشحوذة بحدة رائحة هيميكو عليه ، فيكفيه ما يعانيه من تعقيد الأمور !

واستدار كأنه يريد الهروب ، الا أن الممر كان يعج بنساء يرتدين ملابس النوم وينظرن اليه فى العتمة . لكنه تراجع ودق على الباب بحياء . واستعاد دوره كزوج شاب اصابه بلاء مفاجىء .

حين دخل الغرفة كانت حماته واقفة وظهرها للخضرة المورقة فى النافذة ، وكانت زوجته تحملق فى اتجاهه ، رافعة رأسها مثل "العرساء" خلف ركام البطانية التى تغطى فخذيها المنبسطتين بدت المباغتة عليهما

وهما فى الضوء الوفير المائل للخضار ، ولاحظ عصفور أنهما فى لحظات المباغتة والحزن ، كانت رابطة الدم بين الاثنين تظهر فى كل ملامحهما حتى أدق ايماءة .

- لم أود أن أروعكما .. طرقت الباب ، ولكن برفق ..

تأوهت زوجته :

- أوه ، عصفور !

وثبتت عليه عينيها اللتين ملأتهما الدموع . كانت بوجهها الخالى من المساحيق وبشرتها الداكنة تشبه من جديد لاعبة التنس ذات النظرة الصبيانية التى تعرف عليها عصفور منذ عدة سنوات . أحس عصفور تحت نظراتها ، وهو يضع كيس الجريب فروت على البطانية ، بأنه هش وتسحب كأنه يخفى نفسه ووضع حذاءه تحت السرير . وتمنى لو أمكنه فقط أن يتكلم من الأرضية ، زاحفا مثل سرطان البحر !.

لكن لا حيلة ، ونهض مرغما نفسه على الابتسام .

وقال بصوت كالغناء مجاهدا أن يحتفظ به خفيفاً :

- اذن ، هل انتهى الألم الآن ؟

- مازلت أتوجع من حين لآخر . مع انقباضات تشنجية مثل التقلصات . وحتى عندما لا أتوجع لا أشعر بأنى طبيعية ، وعندما أضحك أتوجع .

- هذا مؤسف .

- ماذا بالطفل ؟

- ماذا به ؟ ألم يشرح لك الطبيب صاحب العين الزجاجية ؟ واثناء حديثه حاول أن يحتفظ بالصوت الغنائى ، ونظر بسرعة فى اتجاه حماته ، كملاكم لا يثق فى نفسه يطلب مساعدة من مدربه . كانت حماته تنقل له اشارات سرية باهتياج شديد من وراء رأس زوجته فى المساحة الضيقة بين السرير والنافذة . لم يستطع عصفور فهم المعنى المقصود ، الا أنه أدرك أنها لا تريده أن يتكلم .

قالت زوجته فى صوت حزين موحش :

- لا أحد يريد أن يخبرنى .

عرف عصفور أن شياطين الشك الداكن قد ساقتها مئات المرات لهمس نفس هذه الكلمات بنفس هذه النبرة العاجزة ، فقال لها :

ـ عنده عضو به خلل . لم يعطنى الطبيب التفاصيل . الأرجح أنهم وضعوه تحت المراقبة .. هذا المستشفى الجامعى بيروقراطى للغاية !

شعر عصفور بخواء كذبته وهو يقولها :

ـ لابد أن الأمر يتعلق بقلبه ، هذا كل ما أعرفه ، لكن لماذا له قلب ضعيف ؟

جعله الرعب الذى أحسه فى صوت زوجته يشعر كأنه مبعثر فوق الأرضية . لكنه ارغم نفسه على التكلم بصوت أجش كمراهق شكس :

ـ مادام هناك اختصاصيون يهتمون به لماذا لا ندع لهم التشخيص ؟ وكل التخمينات فى العالم لن تفيدنا !

أعاد عينه المذنبة الى السرير فرأى أن زوجته قد أغمضت عينيها بإحكام . وتساءل قلقا ، وهو ينظر اليها بتفرس ، اذا كانت ستعود إلى ما كانت عليه . فهاهى ذى الآن جفناها ذابلان ، وأنفها متورم ، وفمها يبدو أكبر من كل النسب . كانت تبدو على وشك النوم ، وفجأة سالت دموع غزيرة من تحت جفونها المقفلة ، وقالت دون فتحهما :

ـ عندما ولد الطفل صرخت الممرضة "أوه" ! فعرفت أن شيئا غير طبيعى قد حدث . لكنى سمعت عندئذ المدير يضحك بسعادة ، أو ظننت ذلك ، فلم أفهم الحقيقة من الحلم .. وحين استعدت وعيى كانوا قد أخذوا الطفل فى سيارة الاسعاف .

هذا المدير المشعر .. عليه اللعنة ! وانسد حلق عصفور من الغضب . لقد ضحك مقهقها حتى أن مريضا تحت التخدير قد سمعه ، إذ كان من عادته أن يفعل ذلك عندما يندهش ، فسأرقد له فى العتمة ومعى عصا غليظة وأجعل هذا الأبله يضحك حتى ينخلع رأسه ! لكن غضب عصفور ماهو الا غضب طفل ، محدود باللحظة . يعرف أنه لن يمسك بأى عصا مطلقاً ، ولن يرقد منتظراً فى العتمة . كان عليه أن يعترف أنه فقد احترام الذات الأساسى لتوبيخ غيره .

قال كأنه يعتذر :
- احضرت لك "جريب فروت" .
- جريب فروت ! لماذا ؟

وأدرك خطأه فى الحال ، وقال :
- اللعنة ! نسيت انك تكرهين رائحة "الجريب فروت" .
- ربما لأنك لم تكن تفكر فىّ أو فى المولود ، أيضا .. عصفور ، هل فكرت مرة فى شىء غير نفسك ؟ ألم نتشاجر بسبب الجريب فروت عندما كنا ننظم قائمة الطعام فى حفل الزفاف ؟ حقا ، كيف يمكنك أن تنسى ياعصفور ؟

هز عصفور رأسه فى حيرة . ثم هرب من الهستيريا التى تحكمت بعينى زوجته بالتدريج ، والتفت نحو حماته التى لا تزال ترسل اشارات من الكوة المثبتة بين السرير والحائط . وناشدت عيناه مساعدتها .
- كنت احاول شراء بعض الفاكهة ، وكان لدى شعور بأن "الجريب فروت" يعنى شيئا خاصا بالنسبة لنا . لذلك اشتريت بعضا منه دون حتى أن أفكر فى الشىء الذى جعله خاصا . ماذا سأفعل به ؟

لقد ذهب عصفور الى محل الفاكهة مع هيميكو ، ولاشك أن حضورها قد ألقى ظلاله على شىء خاص قد شعر به . من الآن فصاعداً ، سيسقط ظلاله بثقل على تفاصيل حياته .
- لابد أنك تعرف انى لا أستطيع أن أكون فى الغرفة نفسها مع حبة جريب فروت واحدة !

وتساءل عصفور بفهم سريع ، اذا كانت قد اكتشفت ظلال هيميكو بالفعل .

قالت حماته :
- لماذا لا تأخذ الكيس كله وتعطيه للممرضات ؟

واعطت له اشارة جديدة . واحاط الضوء ، المصفى عبر الخضرة المورقة فى النافذة التى خلفها ، عينيها الغائرتين وجانبى أنفها المرتفع

بهالة من اللون الأخضر المرتعش . وأخيرا فهم عصفور . فهذا الشبح الاشعاعى لحماته كان يحاول أن يقول له إنها ستنتظره فى الممر عندما يعود من مكتب الممرضات .

وقـال :

ـ سأعود حالا . هل المكتب أسفل ؟

قالت حماته مع نظرة طويلة :

ـ بجانب غرفة الانتظار .

دخل عصفور الممر المعتم بكيس من "الجريب فروت" تحت ذراعه . حتى وهو يمشى بدأت الفاكهة تنفث عبيرها ، وبدت تداعب أنفه بذرات الشذى ، وأحس عصفور بأن رائحة "الجريب فروت" يمكن بالفعل أن تثير ازمة لمصابى الربو . وفكر فى زوجته الراقدة طريحة الفراش وتلك المرأة ذات الهالات الخضراء فى أغوار عينيها ، مرسلة الاشارات مثل ما يحدث فى رقصة الكابوكى . وماذا عنه هو نفسه ، ساخراً بالعلاقة بين الأزمة الربوية و"الجريب فروت" ! كان كل ذلك فصلاً فى مسرحية سيئة ، أما المولود ذو النتوء فوق رأسه فهو الواقعى الوحيد : الطفل الذى كانت تسوء حالته لأنهم يطعمونه الماء المحلى بدلا من الحليب . لماذا الماء المحلى ؟ حرمان المولود من الحليب أمر مفروغ منه ، لكن أن يحلى البديل بأى شىء ، ألن تجعل هذه العملية الغريبة كلها مثل حيلة جديدة بالازدراء ؟

قدم عصفور كيس الجريب فروت للممرضات اللواتى وجدهن فى المكتب وشرع فى تقديم نفسه لهن . وفجأة عادت له الثأثأة التى ابتلى بها وهو تلميذ . ووجد نفسه عاجزاً على لفظ كلمة واحدة . وانحنى فى صمت وأسرع مبتعداً . وارتفعت من ورائه ضحكات الممرضات المتألقة . كله تمثيل زائف . لماذا كل شىء غير حقيقى ؟ عبس وجهه وأصبح تنفسه عسيراً ، وصعد السلالم ثلاثاً ثلاثاً واجتاز جناح الأطفال باحترام ، خائفاً ان يقع بصره على ما بداخله .

كانت حماته تنتظره منتصبة باعتزاز أمام مطبخ خدمة أقارب ومرافقى

المرضى ، وفى يدها غلاية . رأى عصفور عند اقترابه خواء بائسا بدلا من هالة النور المصفاة عبر الأوراق الخضراء ، فارتعد . ثم لاحظ أن انتصابها ليس له صلة بالاعتزاز : فالارهاق واليأس قد سلبا جسمها من طراوته الطبيعية .

تبادلا حديثا بسيطا ، دون أن تفارق عيونهما باب غرفة زوجته التى تبعد خمسة أمتار . حين تأكدت حماة عصفور أن المولود لم يمت ، قالت معاتبة :

– ألا تستطيع أن تجعلهم يعملون اللازم حالاً ؟ ستجن تلك الطفلة إذا رأت مولودها .

صمت عصفور مهدداً .

تأوهت حماته قائلة :

– لو ان عندنا طبيب فى العائلة .

فكر عصفور : لسنا سوى قطيع من الهوام ، زمرة بائسة تدافع عن نفسها . ومع ذلك قال بصوته الهادىء ، حذراً من المرضى الذين قد يكونون رابضين مثل الهوام الخرساء خلف الأبواب المغلقة المصفوفة بالممر ، وآذانهم مشتعلة بالفضول :

– قللوا حصة المولود من الحليب ، ويعطونه عوضا عنه ماء محَلّى . قال لى الطبيب المسئول إنهم سيرون النتيجة خلال أيام .

عندما انتهى من كلامه ، رأى حماته تتضاءل ، وبدت غلاية الماء ثقيلة للغاية على ذراعها . وهزت رأسها ببطء وقالت بصوت عاجز وكأنها فى حاجة ماسة للنوم :

– أوه ، أعرف . نعم أعرف . عندما ينتهى كل هذا سنحتفظ بمرض المولود سراً بيننا .

وعدها عصفور من غير أن يذكر أنه أخبر حماه ، فأضافت :

– والا فابنتى الصغيرة لن ترغب فى طفل آخر ياعصفور .

أومأ عصفور بالموافقة . ودخلت حماته المطبخ ، وعاد هو إلى غرفة

زوجته بمفرده . لكن ألن تكشف لعبتهم الساذجة ؟ الموضوع كله تمثيل فى تمثيل ، وكل الاشخاص فى هذه المسرحية مخادعون .

ادرك من وجه زوجته التى تطلعت اليه عند دخوله الغرفة أن هستيريا الجريب فروت قد نسيت . جلس على حافة السرير ، فقالت له زوجته وهى تلمس خده بمودة :

ـ تبدو مرهقا .

ـ فعلا .

ـ بدأت تشبه فأر البالوعات الذى يريد العدو الى جحره .

جاءته الصفعة وهو غافل . قال والمرارة على لسانه :

ـ هكذا ، مثل فأر البالوعات !

ـ أمى خائفة أن تعود الى الشراب من جديد بطريقتك المعهودة ، بلا توقف ليلاً ونهاراً ..

تذكر عصفور أحاسيس السُّكر طويلة المدى ، الراس المتوهج ، الحلق الجاف ، المعدة المتوجعة ، الجسم الثقيل ، الأصابع فاقدة الحس ، المخ الرخو المثقل بالويسكى . وأسابيع من الحياة كساكن الكهوف مسجونا فى كهف الويسكى !

وأضافت زوجته :

ـ اذا عدت الى الشراب فستنتهى حياتك مخموراً ، ولن تكون نافعا لأحد وسيكون طفلنا فى حاجة ماسة اليك ، فكر ياعصفور .

قال :

ـ لن أشرب بهذه الطريقة ثانية .

حقا إن نمر الترنح الضارى قد أغمد أسنانه فيه ، لكنه أبعد نفسه متمزقا دون اللجوء الى الخمر ثانية . لكن ماذا كان حاله دون مساعدة هيميكو ؟ ألم يكن قد شرع فى الانحراف الى بحر الظلام والأحزان على مدى عشرات من الساعات ؟ لم يكن متأكداً ، وبما أنه لا يستطيع ذكر هيميكو لزوجته ، فكيف يقنعها بقدرته على مقاومة اغواء الويسكى ؟

قـالـت :

ـ أريد مخلصة أن تكون سعيداً ياعصفور . أخاف دائما حين يطرأ أمر خطير أن تعود إما الى الشراب أو أن تهرب الى أحلامك الحمقاء وتهيم عاليا فى السماء ، مثل عصفور حقيقى .

ـ مضى كل هذا الوقت على زواجنا ولا تزالين تشكين فى زوجك ؟

تكلم بلهجة ممازحة ، لكن زوجته لم تنخدع بكلامه ، فهى بعيدة عن ذلك ، وزلزلته على كعبيه قائلة :

ـ هل تعلم أنك تحلم دائما بالسفر الى أفريقيا ، وتصيح بكلمات باللغة السواحيلى ..؟ التزمت الصمت ، ولم أحدثك عن ذلك كل هذه المدة . ولكنى أعرف أنك لا ترغب فعلا فى أن تعيش حياة هادئة محترمة مع زوجتك وطفلك . أليس هذا صحيحا ياعصفور ؟

حملق عصفور فى يدها المرهقة التى تريحها على ركبته ، ثم قال ، مثل طفل يحتج بضعف على التوبيخ رغم اعترافه بسوء تصرفه :

ـ تقولين انى أصيح بالسواحيلى ، ماذا أقول ؟

ـ لا أذكر ياعصفور . عادة أكون شبه نائمة ، ثم إنى لا أعرف اللغة السواحيلى ؟

ـ اذن كيف عرفت انها سواحيلى ؟

ـ كلمات تبدو مثل صرخات الوحوش لا يمكن أن تأتى من لغة متحضرة .

فكر عصفور فى صمت فى اعتقاد زوجته الخاطىء عن طبيعة السواحيلى ، وقنط حزينا .

قالـت :

ـ عندما أخبرتنى أمى أنك فى مستشفى آخر ، فكرت أنك عدت للشراب أو فررت الى مكان ما . حقا لدى شكوكى ياعصفور .

ـ كنت فى حالة يرثى لها لا تسمح لى أن أفعل هذا .

ـ لكن أنظر كيف يحمر وجهك !

قال بخشونة :

ـ لأنى مجنون . لماذا سأهرب ؟ بينما كنت ولدت الطفل لتوك ، وكل

شيء ..
ـ لكن عندما أخبرتك إنى حامل كدت تجن . هل كنت ترغب فى طفل فعلاً ياعصفور ؟

فتهرب قائلا :
ـ على أية حال ، كل هذا يمكن تأجيله الى أن يشفى الطفل . وهذا ما يهمنا الآن .
ـ كل شيء يهمنا ياعصفور . وشفاؤه من عدمه يعتمد على المستشفى الذى اخترته انت وعلى مجهودك . فأنا لا أستطيع أن أغادر السرير ولم يخبرونى بما به . ولا أعتمد الا عليك .
ـ هذا جميل ، اعتمدى على .
فلاحقته زوجته :
ـ كنت أحاول أن أقرر اذا كنت أستطيع الاعتماد عليك فى الاعتناء بالطفل ، وبدأت أفكر أننى لا أعرفك جيداً . هل أنت من النوع الذى يتحمل المسئولية من أجل الطفل حتى درجة التضحية ؟ هل أنت شجاع بقدر كاف لتتحمل مسئولياتك ؟

كثيراً ما فكر عصفور ، أنه لو اشترك فى الحرب لكان قادراً على الأقل أن يجزم إن كان شجاعاً حقاً . لقد حدث هذا له فى أى شجار دخله وفى دخوله الامتحانات بل وفى زواجه . وكان يأسف دائماً لعدم قدرته على الاجابة بالتحديد . حتى أن تشوقه للسفر إلى أدغال أفريقيا لاختبار نفسه لعله يكتشف فى هذه الأثناء حربه الشخصية . أما فى هذه اللحظة فلديه احساس يعرفه بلا اعتبار للحرب أو السفر الى افريقيا ، إنه ليس هو الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه : انه نموذج للجبان !..

انقبضت يد زوجته التى كانت تريحها على ساقه ، ساخطة من صمته . وشرع عصفور يغطى يدها بيده .. وبدت يدها ساخنة كأنها تغلى بالعداوة والمرارة منه ..
قالـت :
ـ اتساءل ما اذا كنت من نوع الرجال الذين يهجرون من يحتاج إليهم ، كما هجرت ذاك الصديق القديم لك .. كيكو هيكو ؟

كيكو هيكو ! صديق من أيام الصبا . كان صبيا مشاكساً فى مدينة من مدن الأقاليم . كان كيكو هيكو أصغر منه ويتبعه أينما ذهب . وذات يوم ، حدثت معهما مغامرة غريبة فى بلدة مجاورة ، وافقا على البحث عن مجنون هارب من مستشفى للأمراض العقلية ، وأمضيا الليل بطوله يجوبان المدينة على الدراجة . ولأن كيكوهيكو ملّ بسرعة من البحث ، بدأ يلعب دور المهرج ، وأخيرا فقد الدراجة التى استعارها من المستشفى . أما عصفور فزاد اقتناعه عندما أنصت لأهل المدينة وما حكوه عن المجنون وظل مواصلاً بحثه المتحمس طوال الليل . كان المجنون مقتنعا بأن العالم الحقيقى هو جهنم ، وكان يرتعب من الكلاب التى يرى فيها شياطين متخفية . وقرروا – إن لم يجدوه حتى الفجر – اطلاق مجموعة الكلاب الالمانية من المستشفى تقتفى أثره . والكل وافق انه سيموت من الخوف . لذا تابع عصفور بحثه حتى الفجر بلا توقف . حينما أصر كيكوهيكو على التخلى عن البحث والعودة الى المدينة ، عنّف عصفور الصبى . وأخبره انه كان يعرف عن مغامرته مع الأمريكى الشاذ جنسيا الذى يعمل فى المخابرات . وفى طريق عودة كيكوهيكو فى قطار الليل الأخير رأى "عصفور" ، لا يزال يركض بدراجته فى بحثه النشط عن المجنون . فأخرج رأسه من النافذة وصاح به فى صوت باك !

– عصفور ، كنت خائفا !

لكن عصفور هجر صديقه المسكين وواصل البحث .

وفى النهاية نجح فقط بأن عثر على المجنون مشنوقاً على تلة فى وسط البلدة ، لكن التجربة سجلت نقلة فى حياته . وفى ذاك الصباح وهو جالس بجانب سائق سيارة الشحن الصغيرة التى كانت تنقل جثة المجنون ، حدس عصفور بأنه سيودع قريباً حياة الصبى الجانح . وفى الربيع التالى التحق بجامعة طوكيو . وكانت حرب كوريا مشتعلة ، وأرعبته بعض الاشاعات عن تجنيد شباب مدن الأقاليم العاطلين وارسالهم بحراً إلى كمبوديا . لكن ما الذى جرى لكيكوهيكو بعدما هجره عصفور فى تلك الليلة ؟ وكأن شبح صديق قديم قد طفا من ظلام ماضيه وقال له هاللو .

– لكن ما الذى جعلك تذكرنى بماضٍ قديم مثل كيكوهيكو ؟ اننى لا

اذكر أنى أخبرتك بذلك .

قالت زوجته :
ـ كنت أقول لنفسى اذا رزقنا بولد يمكننا أن نسميه كيكوهيكو .

نسميه ! جفل عصفور وهو يقول فى داخله ، كأن هذا الطفل المسخ سيكون له اسم ..

قالت زوجته :
ـ اذا تخليت عن ابننا ، أعتقد أنى سأطلب الطلاق .

لاشك أنها قلبت هذه الجملة عدة مرات فى رأسها وهى فى السرير ، ورفعت ساقيها للأمام ، وتفرست فى الخضرة التى تملأ النافذة .
ـ طلاق ؟ لا داعى لهذا الكلام .

وفى النهاية ، فكر عصفور ، إذا تأكد من أنه جبان ولا يمكن الاعتماد عليه ، فما عليه إلا أن يمضى بقية حياته التعيسة كإنسان لا يصلح لأن يكون زوجا . وحاليا ، المولود على حافة الموت فى جناح مستشفى فخم . وأنا لا أنتظر غير هذا . لكن زوجتى تعلق مستقبل حياتنا الزوجية على تحملى المسئولية الكافية لعلاج المولود .. إنى أخوض لعبة خسرتها سلفاً . وفى الوقت الحالى ، لا يستطيع عصفور الا أداء واجبه .

قال فى غم له أوجه عديدة :
ـ لن يموت المولود .

عادت حماته الى الغرفة مع الشاى . وبما أنها تظاهرت بنسيان حديثهما فى الممر ، وبما أن زوجة عصفور لا تريد أن تتابع نقاشها مع زوجها أمام أمها ، تناول حديثهم أثناء احتساء الشاى مواضيع عادية لأول مرة . حتى أن عصفور حاول أن يسرّى عنهما بقصة المولود بلا كبد ووالده الرجل الضئيل .

قبل أن يقترب عصفور من السيارة السبور القرمزية ، استدار ليتأكد من أن جميع نوافذ المستشفى محجوبة بأوراق الشجر . كانت هيميكو فى نوم

عميق وراء عجلة القيادة ، كأنها صُرَّة ممددة على المقعد . شعر عصفور ، وهو ينحنى ليوقظها ، أنه تحرر من أناس غرباء عائدا لعائلته الحقيقية . ونظر خلفه ، مع احساسه بالذنب ، على الفروع ذات الحفيف المرتفع عند قمم الأشجار .

قالت هيميكو وهى تنهض :

ـ أهلا عصفور !

ثم فتحت له الباب ، ودخل بسرعة الى السيارة .

سألها :

ـ هل يزعجك أن نمر على شقتى أولاً ؟ ويمكننا المرور على البنك ونحن فى طريقنا الى المستشفى الآخر .

أدارت هيميكو محرك السيارة وانطلقت فى الحال بسرعة كبيرة . فقد عصفور توازنه وأخذ يشرح لها الطريق للمنزل وظهره لا يزال مثبتا فى المقعد .

ـ هل أنت متأكدة انك استيقظت من نومك تماماً ؟ أم انك تحلمين بأنك تطيرين .

ـ طبعا أنا متيقظة ياعصفور ! حلمت أننى أمارس الجنس معك .

سأل عصفور فى اندهاش عادى :

ـ ألا تفكرين أبدا فى شىء غير ذلك ؟

ـ نعم ، بعد الذى جرى ليلة الأمس . لا ينجح الأمر غالبا هكذا . أليس شيئا رائعاً أن تعرف ما عليك أن تفعله لتجعل الأيام الرائعة تستمر وتستمر !

كاد عصفور يقول ، "لكنها ليست سوى البداية" !.. ولكن مع السرعة التى تقود بها هيميكو الـ "ام . جى" ، كانا قد وصلا أمام بيته . فقال :

ـ سأنزل بعد خمس دقائق ؛ حاولى أن تظلى مستيقظة هذه المرة . لا يمكنك أن تحلمى بالجماع فى خمس دقائق !

التقط من غرفة النوم بعض الأغراض التى سيحتاج اليها لإقامته فى

بيت هيميكو ، متحاشيا النظر إلى مهد المولود ، الذى كان يشبه تابوتاً صغيراً أبيض . وأخذ أيضا رواية باللغة الانجليزية لكاتب أفريقى . ثم انتزع عن الحائط خريطتى أفريقيا وطواهما بعناية ، وأسقطهما فى جيب سترته .

سألته هيميكو عندما لمحتهما بنظرها الحاد :
ـ هل هذه خرائط للطرق ؟

واصبحا فى الطريق من جديد ، متجهين الى البنك !

وقـال :
ـ نعم ؛ انها خرائط يمكن أن تستعمليها .
ـ اذن سأرى اذا كانت هناك طريق مختصره الى المستشفى أثناء وجودك فى البنك .

قال عصفور :
ـ إنها خرائط لأفريقيا ، أول خرائط طرق اقتنيها .

قالت هيميكو ساخرة :
ـ آمل أن يأتى اليوم الذى يتاح لك فيه استعمالها .

بعد البنك ذهبا الى المستشفى . ترك عصفور هيميكو فى السيارة شبه نائمة ، وتوجه الى المستشفى لاستيفاء الاجراءات ، لكن عدم وجود اسم للمولود خلق مشكلة ، وأجاب عصفور على اسئلة لا نهاية لها للفتاة الموجودة بالاستقبال وفى النهاية احتج قائلاً :
ـ ابنى يحتضر . وربما يكون مات بالفعل . ما الذى يجبرنى على تسميته ، هل يمكنك أن تخبرينى ؟

استسلمت الفتاة أخيرا . وشعر عصفور بأن الطفل مات ، حتى أنه استفسر عن الاجراءات الخاصة بالتشريح وحرق الجثمان !

لكن حرره من وهمه الطبيب الذى قابله فى جناح العناية المركزة على الفور :
ـ لماذا أنت فاقد الصبر هكذا ؟ التكاليف هنا ليست مرتفعة ، كما

تعرف . ولابد أن لك تأمينا صحيا . على العموم ، صحيح أن ابنك تسوء صحته لكن لا يزال يحيا جيداً . لذا لماذا لا تهدىء من نفسك قليلا وتتصرف كوالد طبيعى ؟ ما رأيك ؟

كتب عصفور رقم تليفون هيميكو على ورقة من مفكرته وأعطاها للطبيب طالبا منه الاتصال إذا طرأ شىء . ولما أحس أن الجميع فى الجناح ينظرون اليه وكأنه شىء كريه ، عاد بسرعة الى السيارة حتى دون أن يطلب رؤية ابنه . كان عصفور بنضح عرقا ، ليس أقل من هيميكو التى نامت فى السيارة المفتوحة ، بعد ركضة . فى الشمس حول ميدان المستشفى . وعادا إلى بيتها ، وتمددا عاريين على السرير فى وقت الظهيرة الحار ، منتظرين المكالمة التليفونية التى تعلن عن وفاة المولود .

لم يفكرا فى شىء آخر . وظل عصفور فى مكانه بينما ذهبت هيميكو لشراء الغداء ، خشية أن يتصلوا به أثناء غيابه وبعد الغداء استمعا الى عازف بيانو روسى فى الراديو ، ولكن بصوت خافت لا يطغى على رنين التليفون . وأخيرا نام عصفور نوماً مضطرباً ، يوقظه مراراً رنين متخيل ، حتى أنه حلم بأنه رفع السماعة وأبلغه الطبيب بموت المولود . واستيقظ مرة أخرى فى منتصف الليل وشعر بأنه محكوم عليه بالاعدام ينتظر ساعة تنفيذ الحكم عليه . ثم شعر بالرضا النفسى العميق فى حقيقة أنه موجود مع هيميكو وليس وحيداً . ولم يكن أبداً ، منذ أن بلغ سن الرشد ، فى مثل حاجته الآن لمن يسانده ويقف بجانبه .

فى صباح اليوم التالى ذهب عصفور بسيارة هيميكو الى المدرسة . أوقف السيارة فى ساحة المدرسة المليئة بالتلاميذ ، إن وجود الـ "أم . جى" القرمزية يفوح برائحة الفضيحة لكنه لم يهتم . منذ بدأت مشكلته مع المولود وهو يشعر بأن لا مبالاته تزداد تجاه أى شىء آخر .

شق عصفور طريقه وسط الطلاب الملتفين حول السيارة فى وجه عابس . وفى حجرة المدرسين أبلغه رئيس قسمة ، الذى يرتدى سترته الصارخة بلغة من عاش وتلقى تعليمه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أن الناظر يريد أن يراه . ولم يحرك هذا فى عصفور أى شعور بالاهتمام .

قال له رئيس قسمه مبتسما بينما يتفحصه بعينين حادتين :
ـ انت فعلا شخصية مهمة ! لا أعرف ان كنت شجاعاً أو انك لا تعى ما تفعل ، لكن يمكن القول إنك لا تنقصك الجسارة .

بطبيعة الحال ، لم يستطع عصفور وهو يدخل قاعة المحاضرات الكبيرة أن يمنع نفسه من العبوس حيث كان الطلاب ينتظرونه ، لكنهم كانوا طلاب فصل آخر غالبيتهم لا تعرف شيئا عن حادثة الأمس المخزية . شجع عصفور نفسه بهذه الفكرة . وخلال الدرس لاحظ أن بعضهم ينظر اليه بفضول ، هؤلاء على الأرجح يعرفون ، لكنهم كانوا من ثانوية المدينة ، متحررين مهرجين . فى نظراتهم نوع من المشاركة الودية ، وتصرف عصفور كأن شيئاً لم يكن .

حين غادر عصفور الفصل كان ينتظره شاب عند نهاية السلم الحلزونى . انه الذى دافع عنه بالأمس . الطالب الذى حماه من العنف الذى تعرض له من ذلك الفصل الحقود . لقد ترك هذا الطالب حصته وانتظره فى الشمس .

فكانت حبات العرق تلمع على جانبى أنفه ، وكان بنطلونه الأزرق ملطخاً بالوحل من درجة السلم التى كان يجلس عليها .

قـال :

- صباح الخير .

- صباح الخير .

- لاشك أن الرئيس استدعاك . زميلى ذهب اليه بقصته عما حدث . بل أخذ صورة لذلك القىء .

وابتسم الطالب مظهراً أسنانا كبيرة فى حالة صحية جيدة .

ابتسم عصفور أيضا على هذا المدعى الحامل للكاميرا دائما على أمل أن يفاجىء عصفور وهو فى لحظة ضعف ثم يأخذ القضية للقضاء ؟

قال الصبى ببراعة المتآمر الأنيق :

- أخبر الرئيس بأنك جئت للفصل وأنت تترنح ، ولكن خمسة أو ستة منا ارادوا أن يشهدوا بأنك تناولت طعاما مسموما . فكرنا أن نقف بجانبك أولا ، ونتفق فى أقوالنا عن الواقعة !

قال عصفور :

- بل كنت فى حالة غثيان من الشرب ، لذا فرفاقك هم المخطئون . أنا مذنب بما يتهمنى به ذاك المتشدد .

ومرق عصفور من الطالب وشرع فى نزول السلم . وتبعه الصبى بدأب نازلا السلم خلفه قائلا :

- لكن إذا تكلمت بهذا الشكل فستفصل من عملك . فالرئيس مدير الرابطة المحلية لمكافحة المسكرات .

- أنت تمزح !

- لذلك ، لماذا لا تدعى أن ذلك بسبب حالة تسمم من الطعام ؟

- لا أريد أن أكذب ولا أريدهم أن يكذبوا من أجلى .

- أين ستذهب اذا تركت هنا ، يأستاذ ؟

لكنه قرر ألا يهتم بالطالب . لم يكن يريد أن ينخرط فى أية مؤامرة .

واكتشف أنه أصبح متطرفا فى عدم الثقة بنفسه ؛ وهذا يعود الى تلك العيوب فى وعيه .

واردف الطالب قائلا :

ـ لعلك لا تريد التمسك بوظيفتك فى مدرسة التقوية ، على أية حال . سيشعر المدير بالحماقة عندما يطرد مدرسا يقود "أم . جى" حمراء !

مشى عصفور تاركا الطالب الذى أخذ يضحك ودخل حجرة المدرسين . كان يعيد صندوق الطباشير وكتاب القراءة فى الخزانة عندما عثر على غلاف باسمه . انها ملحوظة من صديقه المسئول عن جماعة دارسى اللغات السلافية . لابد أنهم اتخذوا قرارا فى شأن الاستاذ ديليشيف . فتح عصفور الرسالة وكان على وشك قراءتها عندما تذكر من أيام الدراسة اعتقاداً مضحكاً .. عندما تواجه مهمتين فى نفس الوقت ولا تدرى ما الذى تخبئه كل منهما . فعادة تكون احداهما محملة بالحظ الطيب اذا كانت الاخرى مفجعة .. ودس الرسالة فى جيبه دون أن يقرأها . إذا كانت مقابلته مع ناظر المدرسة سيئة ، فقد تحمل له هذه الرسالة التى فى جيبه بعض العزاء .

كانت نظرة واحدة على وجه الناظر الذى رفعه من فوق مكتبه منبئة عصفور بأن هذه المقابلة حبلى بكارثة . فأعد نفسه ، أن يجعل ، على الأقل ، الوقت الذى يقضيه فى المقابلة باعثا على السرور قدر الإمكان .

قال الناظر فى نبرة ملك من ملوك المال فى فيلم عن امبراطورية رجال الأعمال ، نبرة صارمة وعملية فى الوقت نفسه :

ـ لدينا ورطة بين أيدينا ، ياعصفور . لا أخفى عليك أنى أيضا منزعج .

كان فى منتصف الثلاثينات من عمره . حول هذا الرجل معهداً عادياً للتدريس الى هذه المدرسة الاعدادية المتكاملة بمناهجها الضخمة ، والآن شرع فى تحويلها إلى كلية تؤهل الطلاب لدخول الجامعة . كان ضخم الرأس حليقه . يرتدى نظارة مصنوعة بناء على طلبه ؛ عدستين بيضاويتين مثبتتين على إطار ضخم مستقيم ـ تبرر تفاوت ملامحه . ومع ذلك كان فى عينيه المذنبتين خلف النظارة شىء لا يفشل فى تحريك عصفور نحوه .

أعرف ما تلمح له واعترف بأنى كنت مخطئاً .
- الطالب الذى شكا يشارك بانتظام فى مجلة المدرسة .. ولد بغيض . سيكون مزعجاً اذا أثار الموضوع .
- نعم ، طبعا . اعتقد من الأفضل أن اقدم استقالتى فوراً .

قالها عصفور فى عجلة ، آخذا المبادرة بنفسه ليسهل الأمر على الناظر . صهل الناظر من أنفه بقوة لا ضرورة لها ورسم تعبير الأسف على وجهه ، وقال :
- سينزعج البروفسير ، طبعا ..

فهم عصفور تلميحه بأن يشرح الوضع لعمه . فأشار برأسه بعلامة الموافقة وهمّ بالخروج خوفا من أن يجتاحه الاضطراب اذا بقى أكثر .
- هناك شىء آخر ، بلغنى أن بعض التلاميذ يصرون على أنك تناولت طعاما فاسداً ويهددون الواشى . وادعى أنك أنت الذى حرضتهم على ذلك . هذا ليس صحيحاً ، أليس كذلك ؟

فقد عصفور ابتسامته وهز رأسه وقال :
- لا أريد أن آخذ المزيد من وقتك .

قال الناظر بنبرة مخلصة ، وعيناه متورمتان خلف العدستين البيضاويتين الحاجبتين للمشاعر :
- لقد اعجبت بك دائما ، انك تتمتع بشخصية قوية ! أكنت مترنحاً من أثر السكر فعلا ؟

قال عصفور :
- نعم . كنت بالفعل .

وغادر الغرفة ، وبدلا من العودة الى حجرة المدرسين قرر أن يتجه الى غرفة الحراس ويعبر الساحة الى السيارة . كان يشعر حاليا بتحد سوداوى يتصاعد فى داخله ، كأن الناظر عامله بقسوة وبشكل ظالم .

تقدم منه أحد الحراس تلقائيا ، وقال :
- هل تغادرنا فعلا ، ياأستاذ ؟ أنا آسف جدا لذهابك . اذن خبر الحادث

انتشر بسرعة . كان عصفور محبوبا في غرفة الحراس .

قال ، مفكرا فى انقباض انه ليس جديراً بمشاعر المودة التى رآها على الوجه المجعد للرجل العجوز :

ـ سترونني وسأزعجكم كثيرا ، حتى نهاية الدورة الدراسية .

كان نصيره من الطلبة ، المتعذر الفرار منه ، جالساً فى انتظاره على رفرف الـ "أم . جى" . فى حرارة الشمس ووهجها . وفوجىء بخروج عصفور المباغت من الباب الخلفى لغرفة الحراسة ، فقفز على قدميه ، وصعد عصفور السيارة .

قال الطالب :

ـ كيف جرت الأمور ؟ هل قلت له عن التسمم الغذائى . وتمسكت بحقوقك ؟

ـ قلت له الحقيقة .

وسخر الصبى قائلاً بيأس :

ـ عظيم ! هذا عظيم ! اعتبر نفسك مفصولا !..

ادار عصفور المحرك . سبحت ساقاه فى العرق على الفور ، كأنه خطا داخل حمام بخار . حتى عجلة القيادة كانت شديدة الحرارة حتى أن اصابعه ارتدت من اللسعة . فصاح لاعناً :

اللعنـة !

فضحك الطالب ، وقال :

ـ ماذا ستفعل عندما يفصلونك ياأستاذ ؟

فكر عصفور ماذا أنوى أن افعل ؟ وهناك فواتير يجب دفعها فى مستشفيين .. لكن رأسه كاد يذوب تحت حرارة الشمس وقد تتفتق عنه خطة معقولة ، لكنها تتفتق عنه أنهار من العرق . وفى اضطراب مبهم غرق عصفور فى قبضة فقدان الثقة بالنفس ، من جديد .

قال الطالب :

ـ لماذا لا تصبح دليلاً . ولا داعى لازعاج نفسك ببضعة بنات حقيرة من مدرسة ستطرد منها ؛ يمكنك أن تبتز تلك الدولارات من السياح الأجانب .

سأل عصفور باهتمام :

ـ هل تعرف أين يوجد مكتب خدمات لهذا ؟

ـ سأستعلم . أين يمكننى الاتصال بك ؟

ـ ربما يمكننا اللقاء بعد الدرس فى الأسبوع المقبل .

فصاح الطالب فى انفعال :

ـ اعتمد علىّ !

وكان قد صعد بجانبه .

بلغ عصفور الشارع وهو يقود السيارة السبور باحتراس ، وأراد أن يتحرر من الطالب ليتمكن من قراءة الرسالة التى فى جيبه . لكنه اكتشف ، وهو يزيد من السرعة ، أنه يشعر بالامتنان للولد . فلو لم يدخله الطالب فى جو المرح والدعابة ، وهو يقود السيارة هاربا من وظيفة فقدها مؤخراً .. كم كان سيشعر بالبؤس !

وكان قدره أن ينتشله من مواقف صعبة زمرة من جيل أصغر .

تذكر عصفور أنه فى حاجة الى بنزين ، فدخل احدى المحطات ، وبعد لحظة تفكير طلب بنزينا من عيار مرتفع ، ثم أخرج الرسالة من جيبه .

لم يستجب الاستاذ ديلشيف لطلب المفوضية ، ولا يزال يعيش فى حى سينجوكو مع الفتاة المشبوهة . إنه لا يريد أن يقطع علاقته بوطنه ، ولا يريد أن يخونه . إنه ببساطة غير قادر على الانفصال عن هذه الفتاة اليابانية بذاتها ! كانت المفوضية ، بطبيعة الحال ، تخشى أن يستغل الأعداء هذه الحادثة سياسياً . فإذا روجت احدى الدول الغربية حملة دعاية مبنية على حياة ديلشيف كهارب أو معتزل ، فستنتج انعكاسات خطيرة . لذا تأمل حكومة الأستاذ ديلشيف أن تعيده للمفوضية فى أسرع وقت لتعيده بالتالى الى بلده ، ولكن طلب المساعدة من البوليس اليابانى سيسلط الأضواء على المسألة . ومن جهة أخرى اذا جربت المفوضية

استخدام القوة ، فسيقاوم الأستاذ ديلشيف الذى حارب مع المقاومة اثناء الحرب وينتج ، بالتأكيد ، شغب يستدعى تدخل البوليس .

واخيرا توصلت المفوضية ، وهى لا تعرف بمن تلوذ ، الى الطلب من جماعة دارسى اللغات السلافية أن يحاولوا بسرية تامة ان يقنعوا الاستاذ ديلشيف بحماقة ما يفعله . والجماعة ستجتمع يوم السبت فى الواحدة ظهراً مرة ثانية ، فى مطعم مقابل للجامعة . ولما كانت لعصفور علاقة حميمة بالأستاذ ديلشيف ، فجميع الاعضاء يعتمدون على حضوره .

السبت ، بعد غد ، نعم ، يمكنه الذهاب ! كان عامل محطة البنزين مثل النحلة التى تعمر الهواء المحيط بجسمها بشذا العسل مغلفا فى سديم البنزين الكاوى . دفع له عصفور حسابه واندفع بالسيارة مخلفا وراءه صوتاً عاليا . مفترضا أن المكالمات التليفونية المعلنة عن موت المولود لن تأتى اليوم ولا غدا ولا حتى بعد غد ، بل طالب بألا ينبئوه خلال الاجتماع . كل هذا يحتاج الى ضربة حظ بكل تأكيد . وعلى أية حال ، فالرسالة كانت شيئا طيبا .

توقف عصفور عند البقال وهو فى طريقه الى البيت واشترى بعض علب البيرة والسلامون . وركن أمام المنزل ، ومشى الى الباب الأمامى فوجده مغلقاً بالمفتاح . هل خرجت هيميكو ؟ وانتابه غضب نارى لكنه عندما مشى حول المنزل ونادى عند نافذة حجرة النوم للتأكد . انفتحت ستائر النافذة وتنفس عصفور مطمئناً ومشى عائدا للباب الامامى وهو يتصبب عرقا .

سألها ووجهه لا يزال متوتراً :

- أى خبر من المستشفى ؟

- لا ، لا شىء .

وشعر كأنه قد بدد طاقته فى الدوران حول مدينة طوكيو فى يوم حار . وجد نفسه مقبوضا عليه فى مخالب سرطان بحرى هائل من التعب . وكان خبر موت الطفل وحده يمكن أن يعطى معنى لكل ما فعله طوال اليوم .

وسأل بنبرة فظة :

ـ لماذا تغلقين الباب حتى فى وضح النهار ؟
ـ أخاف ، يخيل الىّ أن عفريتاً مدججاً بالنحس ينتظرنى خارج الباب .

قال عصفور متحيراً :
ـ عفريت يتبعك ؟ لا يبدو أى خطر من أى نحس يحدث لك .
ـ لم يمض وقت طويل على انتحار زوجى . ألست أنت من تحاول أن تقول فى تكبرك المدهش انك الوحيد الذى عليه أن يحتاط من عفاريت النحس !

كانت لكمة هائلة ، وهرب عصفور من القاضية فقط لأن هيميكو أدارت ظهرها له وأسرعت إلى حجرة النوم بدون توجيه اللكمة الثانية .

تبعها عصفور شاقا طريقه بجهد عبر الهواء الفاتر الثقيل فى عتمة حُجرة المعيشة ، وعينه على كتفيها العاريتين ، وكان على وشك دخول حجرة النوم عندما اجبره الفزع على التوقف . فتاة طويلة فى عمر هيميكو ، كانت مستلقية على السرير تحت سديم دخان التبغ المعلق فى جو الحجرة مثل سحابة غازية ، عارية الذراعين والكتفين . وتشدقت بصوت مبحوح :
ـ مرحباً عصفور ، مضت سنون لم نتقابل فيها .

قال عصفور ، الذى لم يسيطر على اضطرابه بعد :
ـ أهـلا !

قالت هيميكو :
ـ لم أرغب فى انتظار المكالمة التليفونية وحدى . طلبت اليها أن تأتى إلىّ .

سألها عصفور :
ـ أليس لديك شغل بالمحطة اليوم ؟

كانت الفتاة زميلة دراسة أخرى لعصفور من قسم اللغة الانجليزية . ولمدة سنتين بعد تخرجها ، لم تفعل الفتاة شيئا غير امتاع نفسها ؛ مثل معظم الفتيات من كلية عصفور . ورفضت جميع الوظائف التى عرضت عليها بدعوى أنها لا تليق بإمكانياتها . وبعد سنتين من البطالة أصبحت

مقدمة برامج فى محطة إذاعية من الدرجة الثالثة ذات مدى إذاعى محلى .

قالت مقدمة البرامج وعصير الفاكهة فى صوتها :

ـ كل برامجى بعد منتصف الليل . لابد أنك سمعت الهمس الممل الذى يبدو كأن الفتيات يربطن به مستمعى الإذاعة جميعهم بحناجرهن .

تذكر عصفور الفضائح العديدة التى تورطت فيها محطة الإذاعة التى وظفتها بكل شهامة . واستطاع أن يتذكر جيدا الى أية درجة كان يتقزز منها أيام الدراسة ، عندما لم تكن فقط طويلة القامة بل سمينة أيضا ، مع شىء لا يستطيع أن يحدده بدقة حول عينيها وأنفها يذكره بحيوان ثديى قصير القوائم يحفر فى الأرض .

قال عصفور فى تحفظ ، واضعا البيرة وعلب السلامون على جهاز التليفون .

ـ ألا يمكننا تهوية الحجرة من الدخان ؟

قامت هيميكو لتفتح مروحة التهوية فى المطبخ . لكن صديقتها ، أشعلت سيجارة أخرى ، من غير أن تهتم بنظرة عصفور المعارضة . كانت أصابعها بأظافر مطلية بدهان فضى . وعلى الشعلة البرتقالية لولاعتها "الدانهيل" ، لاحظ عصفور ، على الرغم من الشعر الناتىء فى وجهها ، والتجاعيد الحادة فى جبين الفتاة والتقلصات الدقيقة المتموجة على جفنيها . شيئاً ما كان يقلقها .

سأل عصفور :

ـ ألا يزعجكما الحر ؟

قالت صديقة هيميكو باكتئاب :

ـ ياالهى ، بالنسبة لى يزعجنى . اننى على وشك الاغماء . لكن ليس من المستحب وجود تيارات هواء أثناء تبادل الاصدقاء أطراف الحديث .

كانت تنظر من فوق السرير ، باستهجان إلى هيميكو المنشغلة فى المطبخ بخفة ، واضعة البيرة داخل الفراغات التى بين أطباق الثلج ، مزيلة الغبار عن المعلبات ، ومعاينة تاريخ انتهاء الصلاحية . وفكر عصفور أنها

من المحتمل أن تنشر الأخبار الساخنة عنا ، ولن أندهش اذا اذاعتها على الهواء فى احدى الليالى .

كانت هيميكو قد علقت إحدى خرائط افريقيا على حائط حجرة النوم . حتى الرواية الافريقية التى أخفاها فى حقيبته كانت ملقاة على ارضية الحجرة كالفأر الميت . لابد أنها كانت تقرؤها وهى فى السرير عندما وصلت صديقتها . فألقت بالكتاب وذهبت لتفتح الباب ، ثم تركته كما هو . اغتاظ عصفور .. أن تعامل كنوزه الافريقية بهذا الاهمال ، انها اشارة سيئة . أظن أننى لن أرى سماء أفريقيا ما حييت . ولا مجال بعد لادخار المال للرحلة ، والآن خسرت وظيفتى التى احتاجها لمداومة الحياة من يوم لآخر .

قال لهيميكو :

ـ لقد فُصِلْت اليوم . والبرنامج الصيفى أيضا .. كل شىء .

ـ لا ! لكن ما الذى جرى ؟

اضطر عصفور أن يسرد الحادثة ، والتقيؤ ، والحملة التى شنها عليه الشاب المتزمت ، وتحولت القصة بالتدريج الى شىء بغيض .

ـ كان عليك الدفاع عن نفسك أمام الناظر ! واذا كان بعض الطلاب مستعدين للوقوف بجانبك كان يجب عليك أن تدعهم يفعلون . كيف تركت نفسك تطرد هكذا بسهولة ؟

فكر عصفور .. بالفعل ، لماذا استسلمت بهذه السهولة ؟ ولأول مرة يشعر عصفور بالارتباط بكرسى المدرسة الذى فقده . هذه ليست الوظيفة التى يفرط فيها وهو يمزح أو يكاد وكيف يفسر الأمر لحماه ؟ هل سيجد الشجاعة ليعترف بأنه كان ثملا يوم ولادة طفله غير العادى ، ثم يتصرف بهذا الشكل البائس فى الصباح التالى ويفقد وظيفته بسبب تأثير الخمر عليه ؟ وكل هذا بسبب الـ "جونى واكر" التى أهداها له البروفسير .

قـال :

ـ كان احساسى أنه لا يوجد مبرر واحد يمكننى أن أؤكد به حقى . علاوة على أنى كنت متسرعا فى حسم الموضوع مع الناظر وانهاء

المقابلة ، فقبلت كل شيء . كان تهوراً ملعوناً .

قالت مقدمة البرامج :

ـ عصفور ، تقصد أنك فقدت كل الحقوق فى العالم لأنك تنتظر موت طفلك ؟

إذن هيميكو قد أخبرت صديقتها بالقصة السيئة كلها !

قال عصفور منزعجاً من طيش هيميكو ووقاحة منتجة البرامج :

ـ تقريباً هكذا .

كان من السهل أن يتخيل نفسه فى وسط فضيحة مدوية على الملأ .

قالت هيميكو :

ـ ان الناس الذين يشعرون بفقدان كل الحقوق فى العالم هم الذين ينتحرون . ارجوك عصفور لا تنتحر .

قال عصفور :

ـ لم كل هذا عن الانتحار ؟

ـ قتل زوجى نفسه ، بعد أن شعر هكذا تماما . اذا شنقت نفسك فى نفس هذه الحجرة ، فسأتأكد أننى ساحرة ملعونة .

ـ لكنى لم أفكر ابداً فى قتل نفسى .

ـ لكن والدك انتحر ، أليس كذلك ؟

ـ كيف عرفت ؟

ـ أنت قلت لى فى الليلة التى قتل فيها زوجى نفسه ، محاولاً أن تواسينى . كنت تريد اقناعى بأن الانتحار شىء عادى يحدث كل يوم .

قال عصفور فى ضعف :

ـ لابد أنى لم أكن فى حالتى الطبيعية .

ـ حتى أنك أخبرتنى عن قصة والدك عندما ضربك قبل أن ينتحر !

سألت منتجة البرامج بفضول :

ـ ما هذه القصة ؟

ظل عصفور صامتا ، فواصلت هيميكو رواية القصة كما سمعتها :

ـ كان عصفور فى السادسة من عمره ، وذات يوم سأل والده : "أبى ، أين كنت قبل قرن من ولادتى ؟ وأين سأكون بعد قرن من موتى ؟ قل لى أبى ، ماذا سيحدث لى عندما أموت" ؟ وبدون أن يتفوه والده بكلمة ، وكان شاباً ، ضربه بعنف على فمه ، فحطم له سنتين وأدمى وجهه ، ولم يعد عصفور يخاف الموت . وبعد ثلاثة أشهر أطلق والده رصاصة فى رأسه من مسدس ألمانى قديم من الحرب العالمية الأولى .

قال عصفور مفكراً فى والده :

ـ اذا مات طفلى من سوء التغذية على الأقل ينقص خوف من مخاوفى . لأنى لا أعرف ماذا أفعل اذا طرح ابنى فى السادسة من عمره السؤال نفسه . سأعجز عن ضربه على فمه بشدة لإرغامه على أن ينسى خوفه من الموت . ولا حتى مؤقتاً .

ـ فقط لا تنتحر ياعصفور !

قال عصفور :

ـ لا تقلقى .

استدارت الفتاة المنتجة الى عصفور كأنها كانت تنتظر صمت هيميكو ، وسألت :

ـ عصفور ، أليس انتظار إضعاف مولودك على الماء المحلى فى مستشفى بعيد أسوأ حالة لك ؟ مفعم بخداع النفس ، شاك ، قلق ! أليس لأجل هذا أنت مرهق ؟ ليس أنت فقط ، بل حتى هيميكو قد هزلت .

احتج عصفور ، قائلا :

ـ لكن لا يمكننى أن آتى به إلى البيت وأقتله .

ـ على الأقل لن تكون مخادعا لنفسك ، ستعترف أنك كنت تلطخ يديك . عصفور ، فات الأوان الآن كى تهرب من الشرير الذى فى نفسك ، لابد أن تصبح شريراً لأنك أردت أن تحمى بيتك من طفل غير طبيعى ، لذلك توجد أنانية منطقية . لكنك اخترت أن تترك مولودك ، عملك الملطخ بالدم ، لطبيب ما فى مستشفى بينما أنت تتظاهر بلعب دور الضحية البريئة لمحنة

مباغتة ، كأنك رجل طبيب للغاية ، وهذا سيىء لصحتك العقلية ! يجب أن تعرف ، كما أعرف أنا ، انك تخدع نفسك !

ـ أخدع نفسى ؟ بالتأكيد هذا صحيح ، اذا حاولت أن أقنع نفسى بأنى نظيف اليدين منتظر بفارغ الصبر موت طفلى ، بالتأكيد هذا عدم أمانة ، لكنى أعى تماماً أنى سأكون مسئولا عن موت مولودى .

قالت الفتاة المنتجة بنبرة متشككة :

ـ هذا ما أتساءل عنه . أخشى ان تجد نفسك وسط مشاكل من كل نوع لحظة موت المولود ، هذا هو العقاب الذى ستدفعه لخداعك لذاتك . وعندئذ سترى هيميكو أن تضع عينا حارسة عليك لترى أنك لن تقتل نفسك . والطبع فى ذلك الوقت ستعود الى زوجتك دائمة المعاناة .

ـ قالت لى زوجتى إنها ستطلب الطلاق إذا مات الطفل بسبب إهمالى .

قالت هيميكو مزايدة على كلام صديقتها :

ـ لو تسمم شخص بخداع الذات ، فلن يستطيع اتخاذ قرارات إزاء نفسه تقريبا . لن تقبل الطلاق ياعصفور ، ستفعل أى شىء لتبرىء نفسك معيدا خلط الأوراق لانقاذ حياتك الزوجية . فات الأوان على الطلاق الآن . سيفعل السم فعلته . أتعرف كيف ستنتهى القصة ؟ ولا حتى زوجتك ستصدقك فعلاً يوم تتبين ان كل حياتك كانت قائمة على الخداع . وفى النهاية تحطم نفسك . العلامات الأولى لتدمير الذات ظاهرة الآن !

قال عصفور بمرح متكلف :

ـ لكن هذا طريق مسدود ! سأتركك ترسمين مستقبلى العاجز !

لكن زميلة دراسته الطويلة البدينة قالت :

ـ حاليا ، من الواضح أنك فى طريق مسدود .

ـ ان تضع زوجتى طفلا غير طبيعى انما هو حادث بسيط لا هى ولاأنا مسئولان عنه ! ولست شريراً الى درجة خنق هذا الطفل بيدى ولا ملائكياً إلى درجة تعبئة كل الأطباء لمحاولة انقاذ حياة طفل مهما كانت حالة عجزه . كل ما يمكننى عمله هو أن ادعه فى مستشفى جامعى فى انتظار أن يضعف ويموت طبيعياً . عندها ينتهى كل شىء واصبحت مريضا بالخداع

الذاتى مثل فأر البالوعات الذى ينطلق عدوا فى متاهات عمياء بعد ابتلاعه سم الفأر ، فلا يوجد شىء أستطيع أن أفعله ازاء ذلك .
ـ أنت مخطىء ياعصفور .. يجب أن تكون إما شريراً أو ملاكاً ، واحداً من الاثنين .

تنبه عصفور الى أن رائحة كحول خفيفة تموج فى الحجرة . فنظر فى وجه الفتاة المنتجة الكبير ورآه حتى فى العتمة متوهجا ومنقبضا كأنه من التهاب عصبى :
ـ أنت شاربة ، ألست كذلك ، ادركت الآن ..
ـ هذا لا يعنى أن تلغى شيئا مما قلت لك الآن .. أيا كان تفكيرك فبعد موت الطفل ستدرك أنك لم تكف يوما عن خداع نفسك . أتجرؤ على نكران ان خوفك الكبير حاليا هو ألا يموت هذا الطفل الغريب وربما ينمو كعشبة نباتية ؟

انقبض قلب عصفور وعاد يعرق . ظل صامتاً لفترة طويلة ، مثل كلب مضروب . ثم نهض وذهب يحضر البيرة من الثلاجة دون أن يقول كلمة . لم يكن راغبا فى الشراب . لكنه مع ذلك أخذ زجاجة وثلاث كئوس الى حجرة النوم . انتقلت صديقة هيميكو الى حجرة المعيشة حيث الضوء ، لتسرح شعرها وتعدل من زينتها وترتدى ثوبها . ادار عصفور ظهره الى حجرة المعيشة وملأ كأسا له وأخرى لهيميكو بالبيرة التى كونت غمامة من الفقاقيع الداكنة .

نادت هيميكو على صديقتها :
ـ أتريدين بيرة ؟
ـ لا . شكراً . يجب أن أذهب إلى الإذاعة .

قالت هيميكو فى دلال أنثوى :
ـ لكن لا يزال الوقت مبكراً !

قالت الفتاة ، كأنها تصطاد عصفور فى شبكة من الاقتراحات :
ـ أنا متأكدة أنك ما عدت فى حاجة الىّ الآن وعصفور هنا .

ثم قالت فى اتجاه عصفور :

ـ اننى الأم الروحية لكل الفتيات اللاتى تخرجن معى . يحتجن لأم روحية ، يحتجننى لأنهن لا يعرفن جيداً ماذا يردن . حين تكون احداهن فى مأزق أحضر وأعيد اليها القوة .. عصفور ، حاول الا تشرك هيميكو كثيراً فى مشاكلك العائلية ، واعلم اننى معك من كل قلبى .

حينما خرجت معها هيميكو لمساعدتها فى ايجاد بسيارة أجرة ، ألقى عصفور ما تبقى من البيرة الفاترة فى الحوض وأخذ حماماً بارداً . وتذكر أثناء انهمار الماء عليه رحلة له بالمدرسة الاعدادية عندما انحبس فى انهيار ثلجى بعد سقوطه وتخلفه عن زملائه وفقدانه الطريق . فشعر بوحدة طاغية واحساس مميت بالعجز ، فى تلك اللحظة ، كان مثل حيوان البحر الناعم الذى خرج من قوقعته ، كان يستسلم فى الحال لهجوم أى عدو مهما كان تافها . وكان فى أسوأ حالاته . لكنه استطاع أن يبذل مقاومة معتبرة فى نضاله مع زمرة من المراهقين فى تلك الليلة والآن تبدو له هذه المغامرات مثل المعجزات المستحيلة .

انتعش بعد الحمام البارد الذى أيقظ فيه اثارة غامضة . تمدد عارياً على السرير . وتبددت رائحة الفتاة الأخرى ، وأطلق المنزل مرة ثانية رائحة "العتاقة" المتميز بها . كانت هذه خدعة هيميكو . اذ إنها تمسح رائحة جسدها فى كل الأركان وبهذا تجهز عرينها وفى هذا اثارة لها مثل الحيوان الصغير الأليف . اعتاد عصفور على رائحة المنزل وأحيانا كان يشعر بأنها رائحة جسمه هو . ما الذى أخر هيميكو هكذا ؟ وعادت بشرته تنضح عرقاً من جديد . فتحرك فى تكاسل الى المطبخ وتناول زجاجة أخرى من البيرة المثلجة .

حين عادت هيميكو أخيرا بعد ساعة وجدت "عصفور" ساخطاً . قالت مدافعة عن صديقتها :

ـ كانت غيورة .

ـ غيـورة ؟

ـ هل تصدق ، إنها أكثر فتاة مواسية فى مجموعتنا الصغيرة . فتنام واحدة منا معها من وقت لآخر لنرفع من معنوياتها قليلا . وتتصور أن هذا

يكفى ليجعل منها أمنا الروحية .

منذ أن تخلى عصفور عن وليده فى المستشفى واعتباراته الأخلاقية قد تحطمت ؛ لذلك لم تصدمه علاقة هيميكو بصديقتها المنتجة على وجه التخصيص .

قـال :

- ربما هى الغيرة التى جعلتها تقول ما قالت ، لكن هذا لا يعنى أننى أهرب من كل شىء قالته لى .

شاهدا اخبار منتصف الليل فى التليفزيون ، هو مستلق على بطنه رافع رأسه فقط مثل قنفذ البحر الصغير ، وهى حاضنة ركبتيها على الأرض . انخفضت حرارة النهار وكانا ، مثل سكان الكهف البدائى يستمتعان بالهواء اللطيف وهما عاريان . ولانهما خفضا صوت التليفزيون ، انتظاراً لمكالمة تليفونية متوقعة ، لم يكن صوت المذيع أكثر من طنين نحلة . ثم ان عصفور لم يكن يصغى اليه . ولا استطاع أن يميز أشكالاً ذات معنى فى الظلال المهتزة على الشاشة . فلا شىء فى العالم الخارجى كان يجد صدى فيه . فهو ينتظر ، ببساطة ، مثل راديو مجهز للاستقبال فقط ، لإشارة من بعيد ليس متأكدا انها ستنتقل اليه . حتى الآن لم تصل الاشارة وجهاز الاستقبال المنتظر ، عصفور ، كان معطلا بصفة مؤقتة .

ألقت هيميكو فجاة الكتاب على حجرها ، "حياتى فى غابة الأشباح" للكاتب الافريقى آموس توتوولا - وانحنت للأمام ورفعت صوت جهاز التليفزيون . ومع ذلك لم يستقبل عصفور انطباعاً واضحاً للصورة التى تشاهدها عيناه أو الصوت الذى تسمعه أذناه . وظل مستمرا فى انتظاره ، محملقا فى بله نحو الشاشة . وبعد ذلك بدقيقة واحدة مدت هيميكو ذراعها وركبتيها وذراعها الاخرى على الأرض ، وأطفأت الجهاز . فتوهجت نقطة الزئبق وتقلصت فى الحال ، أخمدت نفسها .. فكرة تجريدية خالصة لشكل الموت . وتلهف عصفور مفكراً ، ربما مات طفلى الآن !

وانتبه الى أنه منذ الصباح لم يفعل شيئاً سوى الانتظار ، ولا حتى تطلع الى خرائطه أو قرأ روايته الافريقية (أما هيميكو ، وكأنها قد اصيبت بالعدوى من حمى عصفور الأفريقية ، ففتنتها الخرائط والكتاب) ولم يفكر سوى فى موت الطفل . من الواضح أنه كان فى غمرة اليأس !

استدارت هيميكو على الأرض وقالت له ، وبريق متقد فى عينيها ، شيئاً لم يفهمه .

فعبس ، غير قادر على قراءة ما تعنى :
ـ مـاذا ؟

ـ أقول ربما هذا بداية الحرب الذرية التى تعنى نهاية العالم !

قال عصفور مندهشاً :
ـ ما الذى جعلك تقولين ذلك ؟ لديك طريقة فى قول أى شىء على نحو غير متوقع .
ـ على نحو غير متوقع ؟ ألم تصدمك أنت أيضا الأخبار التى استمعنا اليها أخيراً ؟
ـ أية أخبار ؟ لم أكن أعيرها انتباهى ، كنت غافلا عنها بشىء آخر .

حملقت هيميكو فى عصفور معاتبة ، لكنها أدركت فى الحال أنه لم يكن يلاطفها ، ولا كان مشدوها لما سمعه فى الوقت نفسه . وانطفأ التألق فى عينيها .
ـ احتفظ برباطة جأشك ، عصفور !
ـ مـاذا حدث ؟
ـ أعلن خروتشيف عودة التجارب النووية . يبدو أنهم فجروا قنبلة تجعل القنابل الهيدروجينية تبدو الآن مثل المفرقعات النارية .

قـال :
ـ أوه ، هذه هى .
ـ لا تبد متأثراً .
ـ أظن ذلك ..
ـ غـريـب !
كان غريبا فعلا ، فعصفور يشعر الآن لأول مرة ، بأن عودة السوفييت للتجارب النووية لم تؤثر عليه اطلاقا . حتى ولا نبأ انطلاق الحرب العالمية الثالثة ..
قـال :

- لا أعرف لماذا ، ولكن صراحة لا أشعر بأى شىء .
- الا تهمك السياسة هذه الأيام ؟

فكر قليلا قبل أن يجيب :

- لم أعد مهتما بالوضع الدولى كما كنت ونحن طلاب ! تذكرين كل تلك التظاهرات التى كنا نشترك فيها ، أنت وزوجك وأنا ؟ الحقيقة أن كل ما كان يشغلنى هو الأسلحة النووية . مثل العمل السياسى الوحيد الذى اتخذته مجموعتنا وهو التظاهر ضد الحرب النووية . لذا يجب أن أتأثر بالأخبار ، مع ذلك أشاهدها طوال الوقت ولم أشعر بأى شىء .

قالت هيميكو متلعثمة :

- عصبفـور ..

دفع قلق غامض عصفور إلى أن يقول :

- كأن جهازى العصبى لا يقبلْ حسياً سوى ما يتعلق بمشكلة المولود ولا يثيره أى شىء آخر .
- هذا صحيح . فاليوم بطوله ، ولمدة خمس عشرة ساعة لم تتكلم عن أى شىء .
- شبح المولود يتحكم فى رأسى ؛ كأنى غطست فى بركة مكونة من صورة المولود .
- هذا ليس طبيعياً عصفور ! إذا طال الأمر بهذه الطريقة ولنقل لمائة يوم فى اضعاف المولود ، فستصبح مجنوناً !

حدق عصفور فى هيميكو بذهول . كأن صدى كلماتها سيهب المولود الذى يضعفونه بالماء المحلى والحليب المخفف طاقةً مثل التى يجدها "بوب آى" فى علبة السبانخ . آه ، مائة يوم ! وكل يوم أربع وعشرون ساعة !

- عصفور ! اذا تركت شبح المولود يتملكك بهذه الطريقة ، أعتقد أنك لن تستطيع الإفلات منه حتى بعد موته . هل تذكر "ماكبث" : "لا يجب أن نفكر هكذا فى هذه الأمور ، لأنها ستجعلنا مجانين" .
- لكنى لا أستطيع أن امنع نفسى ، وربما سيستمر هذا بعد أن يموت .

ليس هناك ما أستطيع عمله . ولعلك على حق لأن الجزء الأسوأ سيأتى بعد موته .
ـ لكن لم يفت الأوان كى نخابر المستشفى وتطلب منهم أن يعطوه حليباً كاملاً ..

قاطعها عصفور بصوت مكتئب هائج كالصرخة :
ـ هذا ليس حلاً . كنت ستعرفين ذلك لو رأيت رأسه !

نظرت هيميكو اليه وهزت راسها باكتئاب لتعبيرات وجهه اليائسة وتجنبت النظر فى عينيه . واطفأت النور ولجأت الى السرير بجانب عصفور . كان الطقس حاليا لطيفا بشكل لا يزعجهما تلامس جسديهما . بقيا فترة طويلة صامتين بلا حراك . ثم حضنت هيميكو عصفور فتحركت بطريقة غير رشيقة غريبة على خبيرة مثلها . وأحس بفخذها يلامس فخذه . فمسه اشمئزاز مساً عابراً بشكل مباغت ، ثم زال . ود أن تجمد حركة أطرافها وتغيب فى نومها الأنثوى . وفى نفس الوقت كان يتوق أن تبقى متيقظة حتى يغفو هو . مرت الدقائق . وكلاهما يتظاهر بعدم معرفة أن الآخر مستيقظ . وأخيراً قالت هيميكو فجأة مثل الثعلب الذى لم يتحمل الاستمرار فى تمثيل دور الميت أكثر من ذلك :
ـ هل حلمت بالمولود ليلة أمس ؟
ـ نعم ، لماذا ؟
ـ ماذا حلمت ؟
ـ رأيت قاعدة صواريخ على سطح القمر ومهد المولود منعزلا تماما على تلك الصخور المهجورة . هذا كل شىء . حلم ساذج .
ـ كنت مكوماً كالمولود مطبقا يديك وبدأت تصيح فى نومك . واء !! واء !! فابتلع فمه كل وجهك .

قال كأنه غاضب ، غارق فى عاره :
ـ إنها قصة رعب . إنها غير طبيعية !
ـ كنت خائفة . اعتقدت أنك ستستمر على هذا الحال ولا تعود لحالتك الطبيعية !

صمت عصفور ، وخداه مضطرمان فى الظلام . وظلت هيميكو ساكنة كالحجر .

وأضافت بعد صمت بنبرة لطيفة ، كأنها تأسفت على ذكرها صياح عصفور فى نومه .

– عصفور ، إذا كففت عن الاحتفاظ بكل هذا لنفسك وأشركتنى اكثر . اقصد اذا كانت المشكلة تخصنى انا أيضا ، يخيل إلىّ أنى أستطيع مساعدتك بطريقة أفضل .

– أنت على حق . إنها مسألة شخصية تماما . لكن بعض التجارب الشخصية التى تفتح لك الطريق فى كهف لك أنت وحدك ، لابد أن تؤدى بك فى النهاية الى نفق جانبى أو مخرج ما ينفتح على الحقيقة التى لا تخصك أنت فقط بل تخص كل فرد . ومع ذلك النوع من التجارب يجد الفرد ما يجازيه مقابل معاناته على الأقل . مثل «توم سوير» !.. كان عليه أن يعانى فى كهف أسود فاحم ، لكنه وجد ، فى نفس الوقت ، طريقه الى النور فاستطاع العثور على حقيبة مملوءة ذهبا ! لكن ما أقوم أنا به شخصيا ، الآن ، هو حفر منجم اسطوانى عمودى فى معزل . يهبط فى استقامة إلى عمق ميئوس منه ، ولا ينفتح أبداً على عالم أى شخص آخر . لذا يمكننى أن أعرق وأعانى ، فى ذلك الكهف المظلم نفسه محنتى الشخصية التى لن ينتج عنها سوى ابتلاع همومى وكل ما أفعله هو حفر جحر مخجل وبلا جدوى .. حفر جحر توم سوير الخاص بى موجود فى قاع منجم عمودى عميق عمقاً يفقد الأمل . ولن أندهش لو أصبح مجنونا ! مسكين توم سوير !

– حسب تجربتى ، لا توجد معاناة بلا جدوى . عصفور ، بعد انتحار زوجى نمت مع رجل لا أعرف شيئاً عنه . وخفت أن يكون مريضا وينقل الى السفلس . وعانيت من هذا الخوف لمدة طويلة ، .وأصابنى اضطراب عصبى عقيم . ومع ذلك ، تعرف ، حين انتهى الأمر ، اكتشفت أنى اكتسبت شيئا . فلم أعد أخاف أى شىء من هذا النوع .

روت هيميكو كأنها اعتراف مضحك ، بل أنهتها بضحكة مكتومة . وماذا يهم لو كان ابتهاجها تظاهريا . وأحس عصفور بأنها تبذل جهدا لتدخل السرور على قلبه . ومع ذلك ، سمح لنفسه بتباه ساخر قائلا :

ـ بمعنى آخر ، حين تضع زوجتى فى المرة المقبلة طفلاً غير طبيعى لن أتأثر كثيراً ؟!!

قالت هيميكو بعزيمة واهنة :
ـ ليس هذا ما أقصد . عصفور ، لو استطعت فقط أن تحول هذه التجربة من النوع الاسطوانى العمودى الى تجربة كهف له نفق خروج ..
ـ لا أعتقد هذا ممكناً .

وصلت المحادثة الى طريق مسدود ، فقالت هيميكو أخيراً :
ـ سأحضر بيرة وبعض الحبوب المنومة . أظن أنك تريد أنت أيضا ؟

طبعا عصفور فى حاجة لذلك أيضا ، لكنه لن يفعل حتى يسمع التليفون عندما يرن . قال فى صوت به اشتياق كبير :
ـ لا ، أكره أن استيقظ فى الصباح وطعم الحبوب المنومة فى فمى . كانت كلمة لا تكفى . لكن الكلمات الأخرى كانت ضرورية ليخمد الرغبة فى البيرة أما الحبوب المنومة فكانت تسبب التهاباً فى حلقه .

قالت هيميكو وهى تبلع الحبوب بنصف كوب من البيرة :
ـ بما أنك ذكرتها ، انها فى طعم السّنة المكسورة .

ظل مستيقظا لفترة طويلة بعد نوم هيميكو راقدا بجانبها وجسده متيبس من كتفه الى بطنه وكأنه أصيب بداء الفيل . كان يكره أن يقاسم أحداً الفراش . حاول أن يتذكر ماذا كان يفعل فى السنة الأولى للزواج عندما كان ينام فى سرير واحد مع زوجته . أخيرا قرر عصفور أن ينام على الأرض ، ولكن وهو يحاول الجلوس تأوهت هيميكو بتوحش وهى نائمة ولفت نفسها حول جسده ، وهى تصر على أسنانها . وشعر ثانية بكفها على فخذه . وهبت ، من العتمة التى خلف شفتى هيميكو المفتوحتين جزئيا ، رائحة معدنية صدئة .

ومع عدم وجود متسع للحركة ، ويأسه بسبب الألم الصاعد من جسده رقد مستيقظا فى حالة عاجزة . وبعد قليل استحوذ عليه شك خانق . لعل الطبيب والممرضات يطعمون المولود حليبا بكميات كبيرة كل ساعة ، أليس هذا ممكنا ؟ وتخيل المولود يزدرد حليباً مركزاً ، وبفمين مفتوحين فى

رأسين حمراوين . وخف خجل عصفور وأضيف وزن إلى الكفة الأخرى من الميزان ، احساسه المتقيىء بأنه ابتلى بمولود مسخ .. عرق وتعذب لقلق أنانى . لم يعد يرى شيئا ، ولا حتى قطع الأثاث البارزة من العتمة ، ولا سمع أى صوت ، ولا حتى قعقعة السيارات المارة ، انه الآن شكل لحياة واعية فقط بالحرارة الواخزة على بشرتها والعرق المتصبب من داخل جسدها .

سيطلع الصباح حالا ، لكنه لن يجرؤ على اخبار هيميكو بجنون الشك المخزى هذا . إنه نفس الجنون الذى تنبأت به الفتاة المنتجة فى انتقادها الحاد له والتقليل من شأنه . قد لا يتكلم مع هيميكو ، لكنه قد يذهب الى جناح المستشفى ويستطلع عندما يفوق ألم انتظار المكالمة عن الحد . بزغ الفجر ولم يرن التليفون . ثم مر الفجر ، وبدأ نور الصباح يتسلل من بين الستائر ، وعصفور لا يزال مغموراً الى عنقه فى دن قطران من القلق ، أرقاً ، يتصبب عرقاً ، لا شىء البتة سوى شبح جرس يصلصل فى أذنيه .

فى صمت ناقم ، احتك كتفا عصفور والطبيب وهما يتطلعان عبر الحاجز الزجاجي كأنهما يتفحصان اخطبوطا فى حوض ماء . خرج مولود عصفور من الحضّانة وكان ممددا بمفرده على سرير عادى . قد يكون عاد منذ قليل من عملية جراحية لاصلاح شفته الأرنبية . لم يكن يبدو لعصفور كمخلوق أضعفوه حتى شفا الموت . فهو أحمر ساطع مثل جرادة البحر المسلوقة . بل أصبح أكبر من قبل . وانحرف رأسه للخلف بشدة ليتناسب مع وزن الورم . وكان المولود يحك خلف أذنيه بهياج مستخدما ابهاميه ، ربما يحاول أن يحك الورم بيدين ضعيفتين قاصرتين . وكانت عيناه مغلقتين بإحكام فتملأ وجهه بالتجاعيد .

وسأل الطبيب :

– هل الورم يدعوه للحك ؟

قال الطبيب :

– ماهذا ؟ فى الحقيقة لست أدرى . لكن الجلد على جانب الورم ملتهب ومعرض للانفصال ، ويمكن أن يكون مسببا للحكة . لقد أعطيناه مضاداً

حيوياً . ولكن حاليا الورم معرض للانفصال فى أى وقت . أما إذا تفجر فقد يتسبب فى صعوبة فى التنفس .

حملق عصفور فى الطبيب وشرع فى فتح فمه لكنه اغلقه فى صمت . كان يريد أن يتحقق من أن الطبيب لم ينس أنه هو ، الأب ، يتمنى موت هذا المولود .. لكنه لم يستطع .

قال الطبيب :

- لحظة الخطر لابد أن تأتى اليوم أو غداً .

حملق عصفور فى المولود وهو يحك رأسه ، كما كان يفعل سابقاً ، بيديه الحمراوين الكبيرتين الممتدتين فوق أذنيه . وكانت أذنا المولود متماثلتين لأذنى عصفور .

قال عصفور فى همس كأنه يخشى أن يسمعه الطفل :

- أشكرك على كل ما فعلته .

ثم انحنى محييا الطبيب بسرعة وخرج من الجناح .

تمنى ، وهو يغلق الباب وراءه لو أنه أوضح رغبته للطبيب من جديد . وضع يديه خلف أذنيه عندما مشى فى الممر وبدأ يحك رأسه تحت خط الشعر بطرف ابهاميه . وانحنى بالتدريج للخلف ، كأن وزناً ثقيلاً عالقا برأسه . توقف بعد ذلك لحظة عندما لاحظ أنه كان يقلد حركات المولود ، ونظر حوله فى عصبية . وعلى ناصية الممر وقفت امرأتان من جناح الولادة ، أمام سبيل ماء وحملقتا نحوه بشكل خال من التعبير . فشعر بجيشان فى معدته ، فاستدار تجاه الجناح الرئيسى وانطلق فى الجرى .

كان عصفور تحت مراقبة صديقه من المطعم أثناء قيادته ببطء باحثا عن مكان ليوقف السيارة فيه . وخرج الى الشارع . عندما استطاع عصفور أخيراً أن يركن السيارة ، تطلع إلى ساعته . فاكتشف تأخيره لمدة ثلاثين دقيقة ، كان وجه صديقه وهو يقترب منه عن نفاد صبر .

قال عصفور فى تبرير مرتبك :

- السيارة تخص احدى الصديقات . آسف لتأخيرى . هل الجميع هنا ؟

– أنت وأنا فقط . ذهب الآخرون إلى تجمع الاحتجاج فى "بارك هيبيا" .

تذكر عصفور أن هيميكو حدثته عن القنبلة السوفييتية ولم يعرها أى اهتمام . اهتمامى الأول حاليا اهتمام شخصى ، مولود مسخ ، أدرت ظهرى للعالم الواقعى . ومن حق هؤلاء الآخرين أن يشاركوا فى المصير الكونى بتجمعاتهم الاحتجاجية . فالمولود المشوه لا يزعجهم .

قال الصديق :

– لا أحد من الآخرين يريد المشاركة فى قضية الأستاذ ديلشيف ، لذلك ذهبوا الى "بارك هيبيا" . وبضعة آلاف من المحتجين هناك لن يزعجوا السيد خروشيف شخصيا !

وتطلع الى عصفور فى انفعال ، كأنه لا يوافق على قبول عصفور غياب الآخرين بهذه البساطة .

أخذ عصفور يفكر فى كل عضو من جماعة الدارسين . ليس هناك انكار بأن التورط فى موضوع الاستاذ ديلشيف حاليا يؤدى الى مشاكل لهم جميعا . كثير منهم كانوا يعملون فى مؤسسات تصدير درجة أولى ، وآخرون ملتحقون بوزارة الخارجية أو أساتذة فى الجامعات . فإذا استحوذت الصحف على حادثة ديلشيف وجعلت منها فضيحة ستتعرض مراكزهم للخطر . ولم يكن أحد منهم حراً مثل عصفور ، مدرسا فى مدرسة تقوية وعلى أهبة الطرد .

سأل صديقه :

– ماذا سنفعل ؟

– لا يمكننا فعل شىء . ويبدو لى أن اختيارنا الوحيد هو رفض طلب المفوضية للمساعدة .

– وأنت أيضا لا تريد أن تتورط مع الأستاذ ديلشيف ؟

طرح عصفور السؤال بلا أى قصد سيىء ، لكن صديقه احمر وجهه ، وشعر بالإهانة وأخذ ينظر لعصفور شذراً . وأدرك عصفور باندهاش أنه كان يتوقع موافقته فى الحال على رفض طلب المفوضية .

فاعترض عصفور بهدوء :
ـ لكن انظر لهذا من وجهة نظر الاستاذ ديلشيف .

غرق صديقه فى صمت برم ، وأضاف هو قائلا :
ـ ربما هذه هى فرصته الأخيرة للتخلص من المتاعب . ان لم نقنعه بالعودة سيتدخل البوليس . كيف يمكننا أن نرفض ؟
ـ اذا اقتنع الاستاذ ديلشيف فخير وبركة . لكن اذا انقلب الأمر الى فضيحة نكون قد اقحمنا أنفسنا فى حادثة دولية !

كان صديقه يتكلم متجنباً وجه عصفور وعينيه على الجلد الفرو المصنوع منه مقعد سائق الـ "ام . جى" .

واضاف قائلا :
ـ لا يبدو لى من الحكمة أن نتدخل فى موضوع الاستاذ ديلشيف وهو يدور على الساحة .

شعر عصفور بأن صديقه يناشده الموافقة دون مزيد من المناقشة . الذريعة كانت عارية وهذا شىء محزن . لكن الفاظاً مثل "فضيحة" و"حادثة دولية" فشلت تماماً فى التأثير عليه . وحتى الآن كان غارقا حتى أذنيه فى فضيحة مولوده المسخ . وحادثته العائلية الناتجة عن هذا المولود يمسك فى خناقه أكثر من أية حادثة دولية . لم يكن خائفا من كل المكائد التى تحاك حول شخصية الأستاذ ديلشيف . ولاحظ الآن لأول مرة منذ بدء مشكلة المولود أن حياته تتسع من يوم ليوم بما يسمح له بحركة أكبر .

قـال :
ـ اذا قررت أنت والمجموعة عدم الاستجابة لطلب المفوضية ، فأتمنى أن أقابل الأستاذ ديلشيف على مسئوليتى الخاصة . لقد كنت قريبا منه ، واذا انكشفت الحادثة للعلن وتحولت الى فضيحة ، فلا بأس ، فلن تكون مصدر ازعاج لى .

كان عصفور يبحث عن شىء يشغله اليوم وغداً ، فترة الارجاء الجديدة التى منحها له الطبيب . علاوة على انه يريد إلقاء نظرة على حياة الأستاذ

ديلشيف كمعتزل .

وعند قبول عصفور القيام بالمهمة تحول صديقه الى قطعة ذهب ، وكان التحول النفيس سريعا جدا لدرجة أن عصفور كان من ناحية مرتبكا قليلا .

قال صديقه باقتناع محموم :

ـ اذا كنت مقتنعا بما تريد فعله ، فهيا ابدأ ، فليس هناك ماهو أفضل . ولأكن صريحا معك ، كنت أخاف الا تقبل هذه المهمة . الآخرون جميعهم خافوا عندما سمعوا أخبار الأستاذ ديلشيف ، ولكنك كنت رابط الجأش غير متحيز قدر ما تستطيع . اعبر لك عن إعجابى لذلك ، ياعصفور .

ابتسم عصفور برقة حريصا على عدم احراج صديقه الذى أصبح ثرثاراً فجأة . فاقترح صديقه بمودة :

ـ أحب أن أدعوك إلى الغداء . ولنحتسى البيرة أولا .

وافق عصفور ومشيا عائدين الى المطعم معا . وجاء النادل وأجلسهما على إحدى الموائد وطلبا البيرة . وعندما ابتهج عصفور ، قال صديقه :

ـ عصفور ، هل كانت عادة الحك خلف أذنيك بإبهاميك لديك عندما كنا فى المدرسة معا ؟

عندما انحرف داخل الزقاق الضيق الذى يشبه الشق بين مطعم كورى وبار ، تساءل عصفور اذا لم يكن هناك مخرج آخر مختبىء لهذه المتاهة . حسب الخريطة التى فردها له صديقه فهذا الزقاق بلا مخرج .

كيف لرجل يعيش حياته كلاجىء هارب يدفن نفسه فى مكان مغلق كهذا ولا يشعر بقلق ؟ هل شعر الاستاذ ديلشيف بأنه مطارد لدرجة أنه اضطر للجوء لهذا المكان ؟ لكن الأرجح أنه سيجد له مخبأ آخر . واقنع عصفور نفسه بالفكرة ، ثم جاء الى منزل مساكن مفروشة للايجار فى نهاية الزقاق . توقف عند مدخل يمكن أن يكون ممراً سرياً يؤدى الى قلعة جبلية ، وجفف عرقه . كان الزقاق نفسه يبدو ظليلا بمافيه الكفاية ، لكن عصفور رأى عندما نظر الى أعلى نحو السماء أن شمس ظهر الصيف العنيفة تغطيه مثل شبكة من البلاتين الأبيض الساخن . لا يزال وجهه مرفوعاً الى بهاء السماء

فأغلق عصفور عينيه وحك رأسه بابهاميه . وترك ذراعيه فجأة تنزلان كأنهما أجبرا على ذلك ، وأعاد رأسه للوضع الصحيح ؛ ومن بعيد ، رفعت فتاة صوتها فى صرخة مجنونة .

صعد عصفور عدة سلالم وحذاؤه فى يده ودخل المبنى . كان الجانب الأيسر من الرواق مصفوفا بأبواب مثل أبواب السجن . أما الجانب الأيمن فكان حائطاً مليئاً بالرسوم والتعليقات . تحرك عصفور ناحية الخلف ، متفحصا الأرقام التى على الأبواب . كان يشعر بوجود بشر خلف الأبواب ، ومع ذلك فكلها مغلقة . ماذا يفعل السكان فى هذا المبنى للهروب من الحر ؟ هل كانت هيميكو رائدة لقبيلة تنتشر فى انحاء المدينة يوصد جميع أفرادها الأبواب على أنفسهم فى منتصف النهار ؟ وصل عصفور الى نهاية الرواق واكتشف مجموعة متواصلة من درجات السلم ضيقة ومخفية بعيدا مثل جيب داخلى . ثم تصادف ونظر خلفه ، فوجد امرأة ضخمة مزروعة فى الممشى ، تحملق نحوه . كانت فى ظل ثقيل وكذلك الرواق ، لأن ظهرها يعوق الضوء المنبعث من الشارع .

هتفت المرأة وهى تتحرك كأنها تروع كلبا لتبعده :

- ماذا تريد هناك ؟

أجاب عصفور فى صوت مهتز :

- جئت لزيارة صديق أجنبى .

- أمريكى ؟

- انه يعيش مع شابة يابانية .

- لماذا لم تقل ذلك ؟ الأمريكى فى الغرفة الاولى فى الطابق الثانى .

وبذلك اختفت المرأة الضخمة برشاقة . إذا كان المقصود بالأمريكى هو الأستاذ ديلشيف فمعنى ذلك أنه نال عطف هذه العملاقة . لا يزال عصفور فى شك وهو يصعد السلم الخشبى الذى لا ينتهى . ثم قام باستدارة على منبسط ضيق وهناك وجد الأستاذ ديلشيف واقفا أمامه فاتحا ذراعيه فى ترحاب ولكن الاندهاش بدا عليه . شعر عصفور بفرح عارم . كان الأستاذ ديلشيف الساكن الوحيد الذى له حس صحى جيد لتركه الباب مفتوحا كإجراء ضد الحر .

وضع عصفور حذاءه لصق الحائط فى الرواق وشد على يد الأستاذ ديلشيف ، كان مثل راكض الماراثون يرتدى مجرد شورت وفانلة ، كان شعره الأحمر قصيراً بينما شاربه الأحمر أيضاً كثيف . لم يستطع عصفور أن يجد ما يدل على أن هذا الرجل لاجىء .. ما عدا رائحة جسده العجيبة ، الجديرة برجل ضخم كالدب ، بينما الأستاذ ديلشيف كان نحيف القوام . لعله لم يجد الفرصة للاستحمام منذ عزل نفسه هنا .

وبعدما تبادلا التحيات فى لغة انجليزية ضعيفة . شرح الأستاذ ديلشيف أن صديقته خرجت لتصفيف شعرها . ثم دعا عصفور للدخول ، لكنه امتنع متذرعاً باتساخ قدميه . وأراد أن يقول ما يجب أن يقوله ، فى الرواق . وكان يخشى أن يجد نفسه محبوسا فى غرفة الأستاذ دليشيف .

لاحظ عصفور أن الشقة خالية من الأثاث . ونافذة وحيدة مفتوحة فى الخلف ، ولكنها كانت مؤمنة بعائق خشبى متين يحيط بها على بعد أقل من قدم . وربما يستعمل كساتر بينه وبين جيرانه .

قال عصفور مقتحما مهمته بلا تردد :
- أستاذ ديلشيف ، مفوضيتك تطلب منك أن تعود حالاً .

أجاب الاستاذ ديلشيف مبتسماً :
- لن أعود ثانية . صديقتى تتمسك ببقائى معها .

بدا الحوار كأنه لعبة بسبب فقر وفجاجة اللغة الانجليزية التى يتفاهمان بها ، وسمحت لهما كذلك بصراحة شديدة فيما يقولانه :

- أنا آخر رسول لإبلاغك . إن لم تعد سيأتى واحد من المفوضية وربما البوليس اليابانى أيضا .

- لا أعتقد أن البوليس سيتدخل . من فضلك تذكر أنى لم أزل دبلوماسياً .

- ربما ، لكن إذا جاء رجال المفوضية فسيبعدونك إلى بلادك .

- نعم ، انتظر ذلك . مادمت قد سببت المتاعب . فلابد أن يحولونى الى وظيفة أقل شأناً أو أفقد وضعى الدبلوماسى .

ـ لذلك ، أستاذ ديلشيف ، قبل أن تصبح قصتك فضيحة ، من الأفضل أن تعود الى المفوضية .

قال الاستاذ ديلشيف بابتسامة عريضة :

ـ لن أعود . فصديقتى تريدنى أن أبقى .

ـ إذن انها ليست لأسباب سياسية ؟ انك تختبىء هنا ببساطة بسبب ارتباط عاطفى مع صديقتك ؟

ـ نعم . بالضبط .

ـ استاذ ديلشيف ، أنت رجل غريب .

ـ غريب .. لماذا ؟!

ـ لكن صديقتك لا تتكلم الانجليزية ؟

ـ نحن نتفاهم دائما فى صمت .

كانت نبتة من الحزن المفرط تتبرعم داخل عصفور .. قال :

ـ إذن .. لا يبقى لى غير أن أنقل قرارك . وسيأتى الرجال من المفوضية على الفور لإعادتك .

ـ مادموا سيأخذوننى رغم إرادتى ، فليس امامى ما افعله . وأعتقد أن صديقتى ستفهم .

هز عصفور رأسه بضعف ، اعترافا بإخفاقه فى مهمته . وتلألأ العرق فى الشعر النحاسى الجميل حول شارب الاستاذ ديلشيف .

ثم لاحظ عصفور قطرات ساطعة من العرق ترتعش فى الشعر المنتشر فى كل جسد الأستاذ ديلشيف .

قال عصفور وهو يلتقط حذاءه :

ـ سأنقل لهم شعورك .

فسأله الاستاذ ديلشيف :

ـ هل ولد طفلك ؟

ـ نعم ، لكنه مولود غير طبيعى وانتظر حاليا موته . لديه فتق فى المخ ، ويبدو كأن له رأسين .

اختفت ابتسامة الاستاذ ديلشيف وحلت محلها نظرة رجولية شجاعة عززت تجاعيد وجهه ، وقال :
- لماذا تنتظر المولود ليموت بينما هو فى حاجة الى عملية ؟

قال عصفور فى رعب :
- لا توجد فرصة واحد فى المائة أن ينمو المولود بشكل طبيعى حتى بعد العملية .

- كافكا ، تعرفه ، كتب فى رسالة لوالده ، الشىء الوحيد الذى يمكن أن يفعله الوالدان لطفلهما هو أن يرحبا به حين وصوله . وأنت بدلا من ذلك ترفض ابنك !! هل لأنانية الأب العذر فى رفض حياة مولوده ؟

صمت عصفور ، واحتقنت عيناه وخداه بالحمرة العنيفة التى أصبحت عادة جديدة . ولم يعد الاستاذ ديلشيف هو الاجنبى غريب الأطوار ذا الشارب الأحمر الذى يحتفظ بحضور بديهة فكه وظريف رغم ورطته القاسية . وشعر عصفور كأنه سقط برصاصة انتقاد من قناص غير متوقع . فالضربة هذه المرة لم تكن منتظرة . ولملم شتات نفسه للاحتجاج مهما كلفه الأمر . وفجأة احنى رأسه شاعراً بعدم وجود ما يقوله للأستاذ ديلشيف .

وتمتم ديلشيف فى همس :
- يااللصغير المسكين !

رفع عصفور رأسه مرتعشاً ، وأدرك أن الأجنبى لم يكن يتحدث عن المولود بل عنه هو . وانتظر فى صمت ليأذن له الاستاذ ديلشيف بالانصراف .

وعندما استطاع عصفور أن يقول أخيراً وداعاً ، أهداه الاستاذ ديلشيف قاموساً انجليزياً صغيراً للغته الوطنية . فطلب منه عصفور أن يكتب عليه إهداء . فكتب كلمة واحدة بلغته ، ووقع تحتها ، ثم قال :
- فى وطنى ، هذه الكلمة تعنى "الأمل" .

وعند أضيق جزء من الزقاق التقى عصفور بفتاة يابانية صغيرة ، فشم رائحة الشعر المصفف حديثا ، ورأى مسحة شحوب غير صحى على عنقها

عندما مرقت الفتاة بجانبه خافضة رأسها . أوشك عصفور أن يكلمها ، لكنه عدل ، وخطا مسرعا في الضوء المسبب للدوار ليبلغ سيارة هيميكو . وفى أشد ساعات النهار حراً ، كان هو الرجل الوحيد فى المدينة الذى عليه أن يعدو !

استيقظ عصفور صباح الأحد واجدا حجرة النوم ترتع فى ضوء وهواء متجدد بشكل غير متوقع . كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها ، ونسيم لطيف يهب داخل الحجرة ومنها الى الصالة . ومن غرفة المعيشة يأتى أزيز مكنسة كهربائية . ولتعوده على عتمة المنزل ، أحس عصفور بالحرج فى كل هذا الضوء مع أن جسمه العارى كان تحت الأغطية . وفى عجلة ، قبل أن تدخل عليه هيميكو وتشاكسه فى عريه ، ارتدى بنطلونه وقميصه ، وخرج الى حجرة المعيشة .

قالت له هيميكو بمرح :

ـ صباح الخير ، عصفور .

كان رأسها ملفوفاً بمنشفة حمام وهى تقود مكنسة كهربائية كأنها عمود تريد أن تسحق به فاراً هارباً . استعاد الوجه المتورد ، الذى أدارته نحو عصفور ، صبوته .

وقالت :

ـ جاء حماى لرؤيتى . ذهب يتجول قليلاً ريثما أنتهى من التنظيف .

ـ الأفضل أن أغادر .

واضاف عصفور باستياء :

ـ لدى شعور بأنى من المعتزلة هذه الأيام . وعندما يعتزل المرء يتحاشى الغرباء .

ـ يعرف حماى أن بعض الرجال يقضون الليل غالبا هنا . وهذا لم يصدمه مطلقاً . لكنى أعتقد أنه سينزعج اذا هرب أحد أصدقائى لئلا يراه .

- وهو كذلك . اذن يستحسن أن أحلق ذقنى .

عاد الى حجرة النوم . صدمه رد فعل هيميكو . فكر أنه مذ سكن عندها وهو متشبث بنفسه فى عناد ، ولم ير فيها سوى جزء مكمل لمشاعره الشخصية . كيف يكون بهذا اليقين لحقوقه المطلقة . لقد تحول إلى كائن أنانى بسبب محنة شخصية ، لا يرى الا جدران شرنقته الداخلية ، ولا يشك لحظة فى امتيازات هذا الكائن .

بعدما انتهى من الحلاقة تأمل طويلاً فى المرآة الى الوجه الشاحب الرزين لكائن المحنة الشخصية . لاحظ ذبول وجهه لا بسبب الهزال الذى يشعر به فقط .

قال لهيميكو عندما عاد إلى حجرة المعيشة :
- منذ أن اقحمت نفسى عليك ، وأنا أتصرف كمهووس بذاته . حتى أننى بدأت أستمرىء ذلك وأجده طبيعيا .

قالت مشاكسة :
- أتقدم لى الاعتذارات ؟

كان وجهها يقطر نعومة وهى تنصت له وهو يقول :
- نمت فى فراشك ، وأكلت من صنع يديك ، بل وحملتك نطاقى . وليس لى أى حق فى ذلك ، ومع ذلك أشعر أنى هنا فى بيتى .

قالت هيميكو باضطراب :
- عصفور ، هل ستغادر ؟

تطلع اليها عصفور واجتاحه شىء ما يشبه احساساً بالقدر : لن يصادف ابداً فى طريقه شخصاً يناسبه بهذا الكمال . وكان طعم الأسف غير سائغ على لسانه .
- حتى لو غادرت بالفعل فى النهاية ، ابق معى قليلاً ، ممكن ياعصفور ؟

وفى حجرة النوم من جديد ، راح واستلقى واغمض عينيه ، شابكا يديه خلف رأسه . كان فى حاجة لدقيقة بمفرده مع عرفانه بالجميل .

جلس ثلاثتهم هيميكو وحموها وعصفور حول المائدة فى حجرة المعيشة التى أعيد تنظيمها ، يتحدثون عن دول أفريقيا الجديدة ورؤسائها وقواعد اللغة السواحيلى . وانزلت هيميكو خريطة أفريقيا من فوق حائط حجرة النوم وبسطتها على المائدة لتريها لحميها . فاقترح حموها :

ـ لماذا لا تذهب أنت وهيميكو فى رحلة الى أفريقيا ؟

اذا بعتما هذا المنزل يصبح معكما كل المال اللازم .

قالت هيميكو ناظرة لعصفور كأنها تختبره :

ـ ليست فكرة سيئة .. ويمكنك أن تنسى تعاسة قصة المولود ياعصفور . ويمكن أن أنسى أنا انتحار زوجى .

قال حمو هيميكو :

ـ بالضبط ، وهذا مهم جداً . لماذا لا تشرعان من الآن فى الذ‍ ب الى أفريقيا ؟

أحس عصفور بالهلع يستولى عليه من هذا الاقتراح . وقال فى تنهيدة :

ـ لا يمكننى أن أفعل ذلك .

قالت هيميكو متحدية :

ـ لم لا ؟

ـ سيكون هذا فى غاية الابتزال . لأن أنسى خلال السفر حول افريقيا أن حياة مولودى انتهت . أنا ..

وتلعثم واحمر وجهه يكمل كلامه :

ـ لا يمكننى أن أفعل ذلك .

قالت هيميكو ساخرة :

ـ عصفور شاب مثالى إلى أبعد حد .

اشتد احمرار وجه عصفور وارتسمت عليه علامة الملامة . فى الحقيقة كان يدور بخاطره انه كان سيذوب مثل مكعب الشوربة ا‍ ‍كزة تحت الماء

المغلى ، لو اقترح حموها الشروع فى رحلة أفريقيا بهدف انقاذ هيميكو من شبح زوجها . لشارك فى هذه الخدعة الحلوة . كان يتوق لسماع هذه الكلمات بحرفيتها وفى نفس الوقت كان يخشى ان يقترحها بهذه الطريقة . وفى اللحظة التالية رأى عصفور فى عينى هيميكو ومضة التيقظ البيضاء ، قالت :

– على عصفور أن يعود الى زوجته فى غضون أسبوع .

قال حموها :

– أوه . لم أدرك .. ابديت اقتراح الرحلة لأنى لم أر هيميكو مبتهجة هكذا منذ موت ابنى . أرجو الا تكون غاضباً .

نظر عصفور فى ذهول اليه . كان رأسه قصيراً وأصلع تماماً ، وليس من الواضح أين تنتهى صلعته ، لأن الجلد المحروق بالشمس خلف جمجمته يزحف الى قفاه ومنه الى كتفيه قطعة واحدة . يذكره راسه كثيراً براس سبع البحر ، وعينين غائمتين ساكنتين . بحث عصفور عن مدخل لطبيعة الرجل وخرج بلا شىء على الاطلاق . لذا احتفظ بصمته المحترس وابتسم ابتسامة مبهمة ، جاهدا فى اخفاء خيبة الأمل المخزية التى تزحف من صدره لتضغط على حلقه ببطء .

فى وقت متأخر من تلك الليلة ، مارس عصفور وهيميكو الحب فى العتمة الرطبة لمدة ساعة بلا انقطاع فى أوضاع كسولة تخفف العبء عن جسديهما . كانا صامتين حتى النهاية مثل الحيوانات فى جماعها . سمت هيميكو الى قمة اللذة عدة مرات ، على فترات وجيزة فى البداية ثم بعد فواصل تزداد فى التراخى . وكان عصفور يتذكر فى كل مرة الاحساس بطيران طائرة التعليم فوق الملعب الليلى بالمدرسة الابتدائية . وتحوم هيميكو حول محور جسده فى دوائر متسعة مخترقة طريقها بارتعاش وأنين عبر سماء هزات تهيجها الجنسى مثل طائرة التعليم ، تعمل جاهدة تحت حمل محرك ثقيل . ثم تنزل ثانية فى هبوط أرضى ينتظره عصفور ، فتحيى فترة تكرار صامت عنيد من جديد .

أصبح الجنس يضرب جذوره حاليا فى أحاسيس الطمأنينة والنظام

اليومى ، وشعر عصفور كأنه يجامع الفتاة لأكثر من مائة سنة . وأصبحت اعضاؤها التناسلية حاليا بسيطة وجديرة بالاعتماد كامنة هناك بلا مخاوف وهمية . فمهبل هيميكو اصبح البساطة نفسها ، ولم يعد شيئاً غامضا ، أشبه بغمد سيف مصنوع من مادة صمغية سيالة ناعمة ، لا يمكن أن تبزغ منه جنية شبحية شريرة لتسوق عصفور بالقوة . شعر بالسلام من أعماقه ، لأن هيميكو حصرت بوضوح وصراحة وبدون مؤهلات هدف الجنس بالنسبة لهما فى المتعة . تذكر كيف كان الوضع مع زوجته ، جبنهما واحساسهما المتزايد بالخطر . حتى الآن ، بعد سنين زواجهما يغرقان فى ضحالات نفسية كئيبة . فقد يسند عصفور بذراعيه وساقيه الطويلة الرعناء جسد زوجته فى وهن وصرامة للتغلب على الاشمئزاز فيدخل فى روعها أنه يقصد ضربها . فتغضب عندئذ ، فتثور على عصفور بل وتحاول أن ترد له الضرب . وفى النهاية فالخيارات دائما واحدة . يمكن أن يندمجا فى شجار تافه منسحباً من جسد زوجته ، فيستمران بقية الليل يتناوشان كمناطحة قرون وعلين فتتألق الرغبة المثارة . أو يتعجل فى الانتهاء بسرعة هائجة بمشاعر بائسة بأنه يتلقى احسانا . وعلق عصفور آماله على ولادة الطفل فى تحقيق ثورة فى حياتهما الجنسية .

ولما كانت هيميكو تضغط على مصدر شهوة عصفور مثل اليد الحالبة وهى تدور فى سماواتها الخاصة ، كان يختار هو أشد ذرواتها اتقاداً لتقابل ذروته . لكن الخوف من الليل الطويل الباقى شده للجماع باستمرار . وحلم عصفور فى صمت بأحلى نوم يصل اليه فى منتصف الطريق على المنحدر اللطيف تجاه هزة الجماع .

لكن هيميكو استمرت فى التحليق فى طيرانها ، وتسقط تجاه الأرض فى هبوط ناعم ، ثم ترقص فجأة عائدة الى السماء ، مثل ، طائرة الأطفال الورقية المسحوبة لأعلى . وأثناء ماكانا فى خضم هبوط آخر [illegible] كبح عصفور نفسه لسماعه رنين التليفون . فحاول النهوض لكن هيميكو طوقت ذراعيها النديتين حول ظهره ، قائلة :

ـ هيا عصفور للنهاية .

وبعد دقيقة ، أرخت قبضتها . قفز عصفور للتليفون الذى واصل الرنين فى حجرة المعيشة . سأل صوت شاب عن أب الطفل فى جناح العناية المركزة بالمستشفى الجامعى . تماسك عصفور ، وأجاب فى صوت مثل طنين البعوضة . كانت مكالمة من الطبيب المقيم برسالة من الطبيب المسئول عن الحالة . قال الصوت من بعد :

- أسف الوقت متأخر ، لكننا كنا مشغولين هنا . كلفت أن أطلب منك الحضور الى جراحة المخ الساعة الحادية عشرة غداً صباحاً . هنا مكتب المدير المساعد . كان الطبيب سيطلبك بنفسه لكنه فى غاية الارهاق . لقد كنا مشغولين حتى الآن !

تنفس عصفور بعمق وسرح بخاطره .

"مات المولود ، والمدير المساعد سيقوم بالتشريح" .

وقـال :

- فهمت . سأكون هناك فى الحادية عشرة ، شكراً لك . قال عصفور لنفسه من جديد ، وهو يضع السماعة ، لقد وهن المولود ومات !

لكن أى نوع من الموت الذى دفع الطبيب أن يرهق نفسه فلا يستطيع أن يتصل بنفسه ؟ وتذوق عصفور مرارة البلغم الصاعد من جوفه . كان يحملق فيه شىء ضخم مروع أمام عينيه تماما . وعاد عصفور ، مثل عالم الحشرات الذى وقع فى شرك كهف مع سرطانات البحر ، بقدمين حذرتين الى السرير مرتعشا من رأسه الى اخمص قدميه . وكمن يلجأ الى أعماق عرينه راضياً حاول أن يدخل جسم هيميكو . فكرر الفشل بشكل متهور رغم تهيجه جزئيا ترشده أصابع هيميكو ، وفى النهاية أمّن نفسه ودخل . وبسرعة نال منها تهيجه الحركة المسعورة للحظة ، عندما يتقاسم الشريكان أوج الهزة الجنسية وكفا عن الحركة .. وتراجع عصفور على نحو أخرق ، وأفرغ فى اعتزال استمنائى مفاجىء . وانهار عصفور بجانب هيميكو معتقدا بلا سبب أنه سيسوت فى يوم ما من أزمة قلبية .

قالت هيميكو برثاء أكثر منه تأنيب مدققة فى وجهه عبر العتمة المهتزة :

- عصفور ، فى الواقع من حقك أن تفزع .

ـ أنا آسف .
ـ المولـود ؟
ـ نعم ، انتهى ولكن يبدو بعد جهد .
ـ وماذا عن مكتب المدير المساعد ؟
ـ انهم يريدوننى هناك صباحاً .
ـ يجب أن تأخذ منوما مع ويسكى وتنام فليس هناك مكالمة تليفونية أخرى تنتظرها .

كان صوت هيميكو لطيفا للغاية .

وعندما أضاءت مصباح السرير وذهبت الى المطبخ أغمض عصفور عينيه وغطاهما بيديه المرتعشتين مقلباً تساؤلاً ملحاً فى عقله الخاوى : لماذا تسبب موت المولود بانشغال الطبيب الى وقت متأخر من الليل ؟ لكن واجهته فكرة على الفور عكرت مياه الخوف فيه فتراجع بسرعة السهم . فتح عينيه فتحة ضيقة ، وتناول من يد هيميكو كأس ويسكى مع عدد من الحبوب المنومة ابتلعها كلها دفعة واحدة . فقالت هيميكو :
ـ لقد استعملت نصيبى أيضا .
ـ آوه ، أنا آسف .

استلقت هيميكو على السرير بعيدا عنه ونادته :
ـ عصفـور .
ـ نعـم ؟
ـ سأروى لك قصة حتى تنام . إنها جزء من تلك الرواية الأفريقية . هل قرأت الفصل المتعلق بالشياطين القراصنة ؟

هز عصفور رأسه نافياً .

قالـت :
ـ عندما تحبل امرأة يحدد الشياطين القراصنة واحداً منهم ليتسلل الى بيت المرأة . وفى الليل يطرد ممثل الشيطان الجنين ويتسلق الى الرحم . وهكذا فى يوم الولادة يولد الشيطان متنكراً فى الجنين البرىء ..

أصغى عصفور فى صمت . تقول الرواية إن المولود يسقط مريضا ، بعد قليل . وعندما تقدم الأم العطايا على أمل شفاء طفلها ، تضعها الشياطين القراصنة سراً فى مخبأ منعزل . وعندما يموت المولود ويحين موعد الدفن ، يستعيد الشيطان شكله الحقيقى ، ويهرب من المدفن ويعود الى مخبأ الشياطين القراصنة بكل العطايا من المخبأ المنعزل .

ـ وظاهريا يولد الجنين المسحور كمولود جميل حتى يأسر قلب امه فلا تتردد فى تقديم كل شىء لديها . ويسمى الأفريقيون هؤلاء الأطفال "المولودون ليموتوا" ، لكن أليس من المدهش تصور كم يكون جمالهم ، حتى لو كانت مواليد قزمية !

لعل عصفور يحكى القصة لزوجته . ولأن مولودنا ولد ليموت ، ستتصوره جميلا بشكل خاص ، أنا نفسى قد أصحح ذكراى عنه . وسيكون ذلك أضخم خداع فى حياتى . فمولودى المسخ مات بلا تصحيح لرأسه المزدوج القبيح ، مولودى هو مولود مسخ له رأسان لوقت ما لا نهاية بعد الموت . واذا كان هناك عملاق حاضر يضع نظاما لذلك الوقت اللانهائى ، لابد أن يكون المولود ذو الرأس المزدوج مرئيا من قِبَله ، وأب المولود ، أيضا . وتحركت معدته عليه ، وهبط فى النوم هبوطا عمودياً كطائرة تسقط من السماء ، نوم فى علبة محكمة السد ضد ضوء أى حلم . لكنه سمع فى آخر انعكاسة وامضة من الوعى أمه الروحية تهمس من جديد :

ـ عصفور ، فى الواقع من حقك أن تفزع !

وتقوس للخلف وكأن ثقلا معلقا من رأسه وحاول أن يحك خلف أذنيه بطرفى ابهاميه ، حاشراً مرفقه فى فم هيميكو . فحملقت هيميكو عبر الظلام ، وعيناها تدمعان من الألم ، الى الهيكل المتقلص لصديقها النائم . وتساءلت اذا كان فسر مكالمة المستشفى خطأ . وأن المولود لم يمت على الاطلاق وأنهم اعادوه الى التغذية الطبيعية بالحليب ، وفى طريقه للشفاء ؟ وأنهم يستدعون عصفور لمناقشة العملية الجراحية ؟ وبدا نوم الصديق بجانبها وجسده مقوس لأعلى بشكل غير مريح مثل إنسان الغابة ورائحة الويسكى تفوح من فمه شيئا مثيرا للسخرية والشفقة . لكن هذا النوم قد يعنى فترة راحة مؤقتة قبل ضجة صباح الغد .

نهضت هيميكو من السرير متجنبة الاحتكاك بعصفور الذى كان فى ثقل عملاق تحت تعويذة سحرية . ولفت نفسها فى ملاءة سرير كأحد حكماء الاغريق ودخلت حجرة المعيشة . كانت تنوى تفحص خريطة أفريقيا حتى طلوع الشمس .

تورد عصفور من الغضب ، واعيا فجأة لخطئه ، كما لو أنهم سخروا منه بقسوة . كان قد دخل مكتب المدير المساعد حيث ينتظره هنا .. عدة أطباء شبان من بينهم طبيب الأطفال المسئول عن حالة طفله مع بروفسير كهل له مظهر الواثق اللطيف .. وقف عصفور كالابكم خلف الباب مدركا خطأه . وجلس على كرسى جلدى أصغر فى وسط الأطباء . وشعر بأنه مجرم مدان يسحبونه ثانية الى مركز الحرس بعد القيام بهروب فاشل من سجن المولود المسخ . ومن هم هؤلاء الحراس ؟ ألم يتآمروا لايقاعه فى الفخ بهذه المكالمة التليفونية المبهمة الليلة الماضية لكى يستمتعوا بهروبه وفشله وهم فى برجهم العالى ؟

ولما ظل عصفور صامتا قدمه طبيب الأطفال لمن معه قائلا :
ـ أقدم لك والد الطفل .

ثم ابتسم فى ارتباك وانسحب الى ركن الملاحظة . لابد أن بروفسير جراحة المخ قد قال شيئا ما فى جولاته عن نظام التغذية الذى مارسوه على الطفل . وخان الطبيب الشاب عصفور على الأرجح . فلعنه عصفور فى سره وهو يحملق فيه .

قال جراح المخ :
ـ فحصت طفلك الأمس واليوم من جديد ، أعتقد أننا سنتمكن من اجراء العملية اذا لم تتفاقم حالته .

أمر عصفور عقله قبل أن يسيطر الهلع عليه . احفظ حدودك ! يجب أن تقاوم هؤلاء الأوغاد ، أن تحمى نفسك من البشاعة المهولة . كان عصفور فى حالة نشاط مستمر منذ لحظة أن أدرك خطأه الدامى . والآن لا يمكن أن يفكر فى شىء سوى فى إدارة ظهره من وقت لآخر ليدافع عن نفسه .

يجب أن أمنعهم من اجراء العملية ، والا فسيكتسح هذا المولود عالمى مثل جيش احتلال .

سأل عفويا :
- هل هناك فرصة فى أن ينمو المولود طبيعيا اذا أجريت العملية ؟
- لا أستطيع أن أقول أى شىء بالتحديد بعد .

توترت ملامح وجه عصفور كأنه يقول إنه ليس الرجل الذى يضحكون عليه . وأحس أن فى عقله جحيما من الخجل . ومثل نمر السيرك حبس نفسه من أجل القفزة التى تطير به عبر الحلقة .
- ماهو الافتراض الأقرب للاحتمال ، أن ينمو المولود طبيعيا أم لا ؟
- لا أستطيع أن أعطيك اجابة محددة ، الا بعد اجراء العملية .

ودون حتى أن يحمر خجلاً كسر عصفور حلقة الخجل النارية قائلا :
- فى هذه الحالة اعتقد أنى أفضل عدم اجراء العملية .

حملق فيه جميع الأطباء وبدأوا يمسكون أنفاسهم . وشعر عصفور بأنه قادر على أكبر تحدٍّ بهذا الخصوص . ولحسن الحظ أنه لم يمارس حريته المتهورة ، لأن جراح المخ كان سريعا فى الادلاء بوضوح موقف عصفور ، وقال بفظاظة ، وغضب واضح :
- هل ستأخذ الطفل معك ، اذن ؟

قال عصفور بسرعة ، أيضا :
- نعم ، سأفعل .
- لا تدعنى أطيل من انتظارك .

وقف عصفور ووقف الأطباء أيضا ، فكر ، انطلق جرس انتهاء المباراة . كنت على حق فى هذا المسخ الصغير .

وعند دخولهم القاعة ، سأله طبيب الأطفال فى تردد :
- أصحيح ستأخذ المولود ؟
- سأعود بعد الظهر وآخذه .

- لا تنس أن تجلب معك شيئاً لتلفه به .

نفض الطبيب عينيه من وجه عصفور وعاد للممر .

خرج عصفور مسرعاً الى الميدان المواجه للمستشفى . كان لهيميكو فى نظارتها الشمسية وللسيارة القرمزية منظر قبيح باهت ربما بسبب السماء المبلدة .

سخر عصفور قائلاً ، ووجهه يتثنى :
- كانت غلطة . ضحكوا علىّ .
- هذا ما كنت أخشاه .

سأل بصوت فظ :
لمـاذا ؟

تداعت قائلة فى خنوع :
- بلا سبب خاص ، عصفور ..
- اين ، الى المستشفى الآخر ؟ أم الى بيتك ؟

غرق عصفور فى ذُعْر فورى . لم يفكر حتى فيما سيفعله بعد ذلك ، اقتصر فقط على مواجهة الأطباء فى هذا المستشفى الذين أرادوا أن يجربوا أيديهم فى عملية جراحية ثم يحملونه عبء المولود ذى الرأس الكهفى على الأغلب ، بقية حياته . والمستشفى الآخر لن تقبل ثانية "البضاعة" التى تمكنت من التخلص منها . واذا أخذ المولود الى شقته سيكون عليه مواجهة الفضول المتعاطف لصاحبة المنزل . نفرض أنه استمر فى النظام الغذائى الذى فرض عليه فى المستشفى حتى يوم مضى ، قد يصيح المولود ذو الرأس المزدوج من الجوع الى جميع الجيران ويجعل زمرة كلاب الحى ينبحون معه . ولنفرض أن المولود مات بعد أيام قليلة من هذا الصخب ، أى طبيب سيخرج شهادة وفاته ؟ وتصور عصفور نفسه مقبوضا عليه بتهمة قتل طفل وحوله قصص شنيعة فى الصحف .

سقط عصفور فجأة ، وزفر بضيق ، وقال :

ـ معك حق . لا يمكنني أخذه الى أى مكان .
ـ ان لم تكن عندك خطة على الاطلاق ..
ـ اذن ؟
ـ كنت اتساءل إذا تركنا الأمور الى طبيب أعرفه . أنا متأكدة أنه سيقدم يد المساعدة لمن لا يريد هذا المولود .. استعنت به عندما احتجت لعملية اجهاض .

عرف عصفور من جديد ذعر جندى المشاة الجبان الذى حاول أن يدافع عن نفسه بعدما أبيدت فصيلته من هجوم مولود مسخ .

قـال :
ـ موافق اذا وافق الطبيب .

اضافت هيميكو وفى صوتها اعياء غير طبيعى :
ـ طبعا ، اذا طلبنا من الطبيب أن يساعدنا .. سيعنى هذا أننا لطخنا أيدينا بقتل المولود .
ـ ليست أيدينا . أنا وحدى ! سألطخ يدى بقتل المولود .

فكر عصفور أنه على الأقل حرر نفسه من احدى الخدع . ولن يجلب له ذلك أى فرح ، بل كان كأنه ينزل سلما لزنزانة ، مجرد سلمة واحدة .
ـ بل يدينا ياعصفور .. سترى .. تسمح أن تقود أنت ؟

أدرك عصفور أن الانفعال فى حديث هيميكو كان نتيجة لتوترها البالغ . ومشى حول مقدمة السيارة وجلس وراء عجلة القيادة ورأى وجهها فى المرآة التى أمامه شاحبا وكأن مسحوقاً أبيض قد انتشر حول شفتيها . لابد أن وجهه هو أيضا يبدو فى نفس الحالة . حاول عصفور أن يتفل من السيارة لكن فمه كان جافا كالعظمة . وانطلق بالسيارة فى الشارع بنفس الطريقة التى تعلمها من هيميكو .
ـ عصفور ، الطبيب الذى فى ذهنى ، هو ذلك الرجل الذى له رأس مثل البيضة الذى نادانى فى أول ليلة قضيتها فى بيتى . هل تذكره ؟

قال ، مفكراً إنه لم يكن فى حسبانه على الاطلاق أن يتعامل مع هذا الرجل :

- أذكره .
- عندما نتصل به يمكننا أن نحدد ما نحتاج إليه فى جلب المولود .
- قال لى الطبيب الا أنسى احضار ملابس له .
- يمكننا المرور على شقتك ، تعرف مكان ملابسه .
- لا ، من الأفضل الا نمر .

استعاد عصفور بوضوح الاستعدادات اليومية الحماسية من أجل المولود . وأرعبته حاليا كل ادوات المولود ، المهد الأبيض ، طاولة الزينة ذات المقابض على شكل التفاح ، كل شىء .
- لا أستطيع أخذ ملابس للمولود من هناك ..

قالـت :
- لا ، لا داعى ، لن تغفر لك زوجتك استعمالك أغراض المولود لهذا الغرض .

فكر عصفور فى وجود هذا السبب أيضا . ولكن لن يأخذ هو أى شىء من الشقة ؛ يكفى أن تعرف زوجته أن مولودها مات بعد خروجه من مستشفى لآخر حتى لا تغفر له مطلقاً . والآن بعد اتخاذ هذا القرار سيكون عاجزا عن اطالة حياتهما الزوجية بأكاذيب غامضة . لقد أصبح ذلك خارج طاقته ، مهما كان نوع المعركة التى يشنها ضد الحكة الداخلية للخداع . كأنه قد قضم حقيقة أخرى مغطاة بطبقة حلوة من الاحتيال .

عندما اقتربت السيارة من مفترق عريض .. فى واحد من الطرق السريعة الهائلة التى تطوق المدينة العملاقة .. أوقفته اشارة المرور . أخذ عصفور يتطلع إلى الاتجاه الذى يريد الانحراف فيه . كانت السماء المثقلة بالسحب تحوم فوق الأرض . وهبت الريح المحملة بالمطر ، وأصدرت حفيفا عاليا عبر فروع الشجر المترب على طول الشارع . وبتغير الضوء الى الأخضر متصدراً السماء الغائمة فشعر عصفور كأنه مسحوب اليها

بجسمه . وأزعج احساسه بالعدل انه كان محميا باشارة المرور مثل الناس الذين لم يفكروا طوال حياتهم فى القتل .

قال ، شاعراً كمجرم هارب :

ـ من أين تريدين الاتصال به ؟

ـ من أقرب محل بقالة .. حيث يمكننا شراء بعض السجق لغداء خفيف .

قال مستسلماً على الرغم من المقاومة البائسة التى يشعر بها فى معدته :

ـ وهو كذلك .. لكن اتعتقدين أن صديقك هذا سيقبل أن يساعدنا ؟

ـ رأسه العجيب يجعله يبدو لطيفا كريما ، لكنه يفعل أشياء لا يمكنك تصورها ، مثلاً ..

لاذت هيميكو فى صمت بطريقة غير طبيعية ولعقت شفتيها بطرف لسانها الثعبانى . اذن فالرجل الضئيل قد ارتكب هذه الأشياء المرعبة التى لا تستطيع شجاعتها أن تذكرها ! وشعر عصفور بالاشمئزاز ثانية ، فاستبعد غداء السجق من برنامجه وقال :

ـ عندما نصل نشترى شيئا للمولود بدلا من أن نهتم بالسجق . أظن أن الاسرع أن نذهب الى متجر كبير .

ـ سأحصل على ما نحتاج إليه ، انتظرنى فى السيارة .

ـ بعدما عرفت زوجتى بأنها حامل ذهبت معها للتسوق وكان المتجر متخما بالنساء الحاملات وأطفالهم الباكين . فاستدعى ذلك فى ذهنه حديقة الحيوان .

نظر عصفور الى هيميكو ورأى اللون ينسحب من وجهها ، لابد أنها احست بالاشمئزاز أيضا . وانطلقت السيارة بهما صامتين شاحبين . وعندما تحدث عصفور أخيراً كان فى غير حاجة للاساءة لنفسه :

ـ حين يموت المولود وتسترد زوجتى صحتها أعتقد أننا سنحصل على طلاق . حينئذ اصبح فعلا رجلاً حراً وبلا عمل أيضا ، وهذا ما أحلم به منذ سنوات . عجيب ، اننى لست سعيدا بذلك .

أصبحت الريح حاليا أقوى وهى تهب من ناحيته تجاهها ، لذلك كان

عليها أن ترفع صوتها . فكانت تتكلم وكأنها تصيح :

ـ عصفور ، عندما تصبح حراً ، الا يمكننا بيع البيت والذهاب معا الى أفريقيا كما اقترح حماى ؟

ـ أفريقيا فعلا فى خياله . لكنها أصبحت الآن أفريقيا المهجورة التى لم تعد تثير خياله . هذه هى المرة الأولى منذ أن أقنع هواه نحوها كصبى حيث فقدت أفريقيا رونقها داخله . كرجل حر يقف مترنحا بائسا فى صحراء شاحبة . لقد قتل طفلا فى جزيرة تطفو مثل فراشة عند خط مائه وأربعين درجة شرقاً . ثم هرب وطاف كل أفريقيا وفشل فى أن يصطاد فأراً فما بالك بخنزير برى متوحش . ويقف الآن بغباء فى الصحراء .

قال فى تبلد :

ـ أفريقيـا ؟

ـ انطويت على نفسك الآن ياعصفور مثل الحلزون داخل قوقعته . لكنك ستستعيد عاطفتك لحظة أن تضع قدميك على أرض أفريقيا .

ظل عصفور صامتا ، فأردفت قائلة :

ـ لقد سحرتنى خرائطك . أريدك أن تحصل على الطلاق لنستطيع الذهاب الى أفريقيا معاً ونستخدمها فى الطرق فعلا . قد أمضيت الليلة الماضية ساعات فى تدارسها وأنت نائم . أعتقد انك نقلت العدوى إلىّ ، أيضا . فأصبحت حريتك ضرورية بالنسبة لى الآن . وأنا أريدك كرجل حر . لم توافق منذ قليل حين قلت إننا نلطخ ايدينا . لكنك كنت مخطئاً . سنذهب الى أفريقيا معا ، أليس كذلك ؟

قال عصفور كأنه مخنوق بالبلغم :

ـ اذا كان هذا ما تريدينه .

ـ فى البدء كانت علاقتنا جنسية . كنت ملاذاً لك من قلقك ومن خجلك . لكنى الليلة الماضية اكتشفت فى نفسى هذا الشغف لأفريقيا ينمو داخلى ، أيضا . وهذا يعنى رباطاً جديداً بيننا ، فحاليا لدينا خريطة أفريقيا كوسيط . لقد قفزنا من مجرد أرض جنسية منخفضة الى أرض أعلى بكثير . شىء آمل أن يحدث وأنا أشعر بصدق بنفس الشغف ! لذلك السبب

حدثتك عن صديقى الطبيب ملطخة يدى مع يدك !

انغمر الزجاج الأمامى بالمطر الأبيض الذى تناثر عليه . وفى نفس اللحظة شعر عصفور وهيميكو بالمطر على وجهيهما . واظلمت السماء فى كل أطرافها وكأن الغسق هبط فجأة ، وارتفعت زوبعة نزقة .

قال عصفور كأبله حزين :

ـ ألا يمكن تغطية هذه السيارة ؟ وإلا سيبتل المولود .

فى الوقت الذى انتهى فيه عصفور من وضع غطاء السيارة الأسود ، كانت الريح تفر حول الزقاق مثل الدجاجة المفزوعة حاملة معها رائحة السجق والثوم المحروق . قلى شرائح رفيعة من الثوم فى الزبد ، واضاف السجق مع قليل من الماء : تلك هىْ الوجبة التى علمها له الاستاذ ديلشيف . ترى هل أجبروه على هجر تلك الفتاة اليابانية الصغيرة الشاحبة والعودة الى المفوضية . أم أنه حاول المقاومة فى مخبأهما فى نهاية ذاك الزقاق المسدود ؟ هل صرخت صديقته باليابانية غير المفهومة للاستاذ ديلشيف وكذلك لرجال المفوضية الذين جاءوا ليعودوا به ؟
أخشى أن يكونوا قد اخضعوه فى النهاية .

تأمل عصفور السيارة السبور والغطاء الأسود فوق هيكلها القرمزى ، التى تشبه الجرح وقشرته من حوله . فتحرك الاشمئزاز فى عصفور . كانت السماء داكنة والهواء رطباً متورماً ، والريح تصخب . والمطر يخضب الهواء فيجعله كالضباب ، ثم عصفة ريح قد تذروها بعيداً فى المكان القصى ثم فجأة تعود . نظر عصفور الى أعلى للشجر المتلاطم فوق قمم الاسطح فى وفدة من الورق الأخضر ، ورأى المطر الزاعق قد غسلها الى أخضر داكن لكنه حى حقاً . انه الأخضر الذى أطربه وانتقل به مثلما فعلت اشارة المرور عند مفترق الطريق السريع . وتأمل ربما سيرى هذا الصنف من الأخضر النابض بالحياة عندما يرقد فى سرير موته . وشعر عصفور بأنه على وشك أن يقاد الى حتفه على يدى مجهض مشبوه .

ظلت ملابس المولود والسلة على السلم أمام المنزل حتى جمعها عصفور ووضعها وراء المقعد الأمامى . وكانت هيميكو هى التى قضت وقتا طويلا فى انتقائها لملابس داخلية وجوارب وغطاء صوفى وبنطلون وحتى قلنسوة

صغيرة . لقد ظل عصفور ينتظرها مدة ساعة ، حتى أنه بدأ يتساءل إن لم تكن قد هجرته . لم يفهم لماذا بذلت كل هذا الجهد لانتقاء ثياب لطفل سيموت . للنساء دائما اهتمامات غريبة .

نادته من نافذة حجرة النوم :
ـ عصفور ، الغداء جاهز .

وجدها واقفة فى المطبخ تأكل سجقا . تطلع للمقلاة فتراجع نافراً من رائحة الثوم . والتفت الى هيميكو ، التى كانت تراقبه بفضول ، وهز رأسه بضعف .
ـ إذا لم تكن جائعاً لماذا لا تأخذ حماما ؟

كان الاقتراح يفوح بالثوم . قال فى ارتياح :
ـ أظن أن هذا ما سأفعله .

أحنى عصفور كتفيه فى احتراس وهو تحت الدوش . فالماء الساخن يثيره عادة ، لكنه الآن يشعر فقط بطرق مؤلم فى قلبه . فأغمض عينيه وأزاح رأسه للخلف ، واعيا هذه المرة ، وحاول أن يحك خلف أذنيه بسبابته . وبعد دقيقة قفزت هيميكو لجانبه تحت الدوش وشعرها ملفوف فى طاقية حمام بها رسومات مثل البطيخ الأحمر وبدأت تحك جسدها بالصابون . وتوقف عصفور عن المشاركة فى اللعبة وترك الحمام .

سمع عصفور وهو ينشف نفسه ، ضربة مكتومة لشىء كبير وثقيل يقع على الأرض بالخارج . عندما أطل من نافذة حجرة النوم ، رأى السيارة السبور القرمزية مائلة بشكل غريب كسفينة على وشك الغرق . وكان الاطار المطاطى الأيمن الأمامى غير موجود ! ارتدى ثيابه غير عابىء بتنشيف ظهره ، وخرج ليتفحص السيارة . كان يسمع خطوات أقدام تنسحب عبر الزقاق ، لكنه اتجه لفحص السيارة بدلا من المطاردة . لم يكن يوجد أثر للاطار ، والمصباح الأمامى الأيمن مهشم . أحدهم رفع الـ "ام . جى" برافعة ، نزع الاطار ثم ترك السيارة تسقط على الأرض بعنف فتسببت الصدمة فى تكسير المصباح الأمامى . وكانت الرافعة ممدة تحت السيارة كذراع مكسورة .

صرخ عصفور لهيميكو التى كانت لا تزال تحت الدوش :

- سرق أحدهم اطاراً وترك احد المصابيح الامامية مكسوراً . آمل أن يكون لديك اطار احتياطى !

- نعم فى مؤخرة السقيفة .

- لكن من يسرق اطاراً واحداً ؟

- هل تذكر الصبى الذى تطلعت إليه من النافذة تلك الليلة ؟

انه طفل مشاكس ويفعل أشياء وضيعة كهذه . أراهن أنه مختبىء فى مكان قريب يراقبنا ومعه الاطار .

وأردفت هيميكو وكأن شيئا لم يحدث :

- اذا تظاهرنا بعدم المبالاة والانزعاج أراهن أنه سيبكى فى مخبئه ويموت من الخزى . هيا نحاول .

- جميل اذا اشتغلت السيارة . سأرى اذا أمكن أن أحصل على الاحتياطى .

استبدل عصفور الاطار المفقود بعد أن لطخ يديه بالوحل والشحم . وأصبح أكثر عرقا عما كان قبل استحمامه . عندما انتهى شغل المحرك بحذر فلم يجد أى عيب . قد يتأخران قليلاً لكن بالتأكيد أن كل شىء سينتهى قبل الليل ولن يقلقا بسبب الضوء المكسور . كان يرغب فى حمام آخر لكن هيميكو كانت جاهزة للانطلاق ، علاوة على أنه أصبح ساخطا تماما حتى أن أقل تأخير يبدو له غير محتمل . وغادرا كما كانا . واثناء انطلاقهما من الزقاق رمى مجهول حصى على السيارة .

تضرع عصفور عندما لم تتحرك هيميكو لتخرج من السيارة :

- تعادل أنت أيضا !

واسرعا معا تجاه جناح العناية المركزة ، وعصفور قابض على السلة ، وهيميكو على ملابس المولود . انتبه عصفور لتوتر خاص يسود الجو اليوم ، وتحفظ من كل المرضى الذين صادفهم فى الممر . كان من تأثير المطر الذى يجلد بسوطه الريح الوقحة المنسحبة على نحو أبتر كأنها مطاردة ، ومن الرعد الكليل فى البعد . بحث عصفور وهو يتقدم فى الممر ،

والسلة تحت ذراعه ، عن كلمات يقولها للممرضات عن سحب المولود من المستشفى ؛ فازداد ذعره بالتدريج . لكن عندما وصل الى الجناح كان معروفا أنه سيأخذ المولود معه . فارتاح عصفور . ومع ذلك كان يحتفظ بوجه متخشب محتفظا بعينيه على الأرض متجاوبا بإيجاز قدر الإمكان للأسئلة الاجرائية فقط . كان يخشى أن يترك للممرضات الصغيرات الفضوليات ثغرة للاستفسار منه عن سبب تسلمه للمولود دون عملية جراحية أو حتى الى أين سيأخذه .

قالت الممرضة :

ـ لو سمحت تذهب بهذه البطاقة إلى المكتب وتدفع المطلوب . وفى هذه الاثناء سأتصل بالطبيب المسئول .

أخذ عصفور البطاقة ؛ كانت "بمبى غامق" ، وقال :

ـ أحضرت معى بعض الملابس للمولود ..

ـ سنحتاج لها ، طبعا ، سآخذها الآن .

لم تخف الممرضة استياءها وهى تتكلم . أخذت تتفحص الملابس قطعة قطعة وردت له القلنسوة فقط التى لفها فى ارتباك ودفسها فى جيبه . ثم التفت برماً الى هيميكو ، التى لم تلاحظ شيئا ، فسألته :

ـ مـاذا ؟

ـ لا شيء ، يجب أن أذهب الى المكتب دقيقة واحدة .

قالت هيميكو بسرعة :

ـ سأذهب معك .

كأنها خائفة من البقاء وحدها . لم يجرؤ أحدهما على الالتفات نحو الحاجز الزجاجى الذى وراءه المواليد أثناء المناقشات مع الممرضات .

عندما أخذت الفتاة فى نافذة الاستقبال البطاقة طلبت توقيع عصفور وقالت :

ـ أرى أنكم ستغادروننا .. نهائيا ؟ !

هز عصفور رأسه غير مؤكد ولا منكر ، واضافت الفتاة :

- وما الاسم الذى أطلقته على المولود ؟
- اننا .. لم نقرر بعد .
- حاليا المولود مسجل على أنه الابن الأول لك . لكن سيفيدنا كثيرا لو كان لدينا اسم فى ملفاتنا .

فكر عصفور .. اسم ! الآن ، وكما حدث فى غرفة مستشفى زوجته ، دارت الفكرة فى أعماقه . أيعطى المسخ اسما ويصبح من تلك اللحظة أكثر إنسانية . لعله يبدأ يؤكد نفسه بطريقة إنسانية . الاختلاف بين الموت وهو مسخ بلا اسم والموت بعد التسمية قد يعنى الكثير لعصفور فى طبيعة وجوده ككائن بشرى .

قالت الفتاة بدماثة ، لكن صوتها أفشى عنادها :
- أطلقوا عليه اسما ولو مؤقتا ، فإن ذلك مهم ومفيد لنا .
قالت هيميكو بصبر نافد :
- لا ضرر فى ذلك ، ياعصفور .

قال ، متذكراً كلمات زوجته :
- سأسميه كيكو هيكو .

ثم بين للفتاة كيفية كتابته .

وتم تسديد الحساب واستعاد عصفور تقريبا كل المبلغ الذى أودعه كأمانة . لم يستهلك المولود سوى الحليب المخفف والماء المحلى وحتى المضادات الحيوية منعت ، وبقاؤه فى المستشفى لم يكلف الا القليل .

قال عصفور لهيميكو وهما يعودان الى جناح العناية المركزة :
- هذا المبلغ ، هو ما ادخرته لرحلة أفريقيا . وهاهو يعود الى جيبى من جديد بعدما قررت قتل المولود والذهاب معك الى أفريقيا .

كان يتكلم مشوش الأحاسيس ، غير متيقن ما يريد أن يقوله بالفعل .

قالت هيميكو فى يسر :
- اذن سنستخدم المبلغ فى رحلة أفريقيا بالفعل .. عصفور ، ذلك الاسم ، كيكو هيكو .. أعرف باراً للشواذ اسمه كيكو هيكو ، بنفس

الحروف . ولقب والدتى هو كيكو هيكو .
- كم عمر صاحب هذا البار ؟
- صعب القول مع لوطى مثله .. ربما اربع أو خمس سنوات اصغر منك .
- اراهن أنه هو الذى كنت أعرفه منذ بضع سنوات . كانت له علاقة مع الملحق الثقافى الامريكى أيام الاحتلال ثم هرب الى طوكيو .
- يالها من مصادفة ! لماذا لا نذهب الى هناك فيما بعد ؟

فكر عصفور ، "فيما بعد" ، بعد التخلى عن المولود مع المجهض المشبوه ! وتذكرت كيف هجر صديقه كيكو هيكو ذات ليلة فى مدينة من مدن الأقاليم . والآن الطفل الذى سيهجره اسمه أيضا كيكو هيكو . انها الفخاخ المحيطة المخادعة حتى فى التسمية . وللحظة فكر فى أن يعود ويصحح الاسم ، لكن هذا القصد أكله صدأ الوهن فى الحال . وقال لهيميكو وكأنه يعاقب نفسه :
- هيا نشرب الليلة عند بار اللوطى كيكو هيكو . فلنجعلها سهرة .

كان المولود كيكو هيكو ينتظرهما فى سلته فى ثياب المولود الصدفية التى انتقتها له هيميكو . وكان بجانب السلة طبيب الأطفال المسئول ، ينتظر عصفور خجلاً . واجه عصفور وهيميكو الطبيب من فوق السلة . استطاع عصفور أن يحس بمدى الصدمة التى كابدتها هيميكو عندما نظرت اسفل ورأت المولود . كان حجمه أكبر الآن وعيناه المفتوحتان مثل جرحين عميقين فى بشرته القرمزية . حتى الورم فى رأس المولود كبر أيضا ، وكان أكثر احمرارا من وجهه وأكثر لمعانا وانتفاخاً . والآن وهو مفتوح العينين له الهيئة الزاوية القديمة لنساك الوثائق الجنوبية ، لكنها تفتقر بالتأكيد للخاصية الإنسانية ، ربما لأن الجزء الأمامى من رأسه الذى من المفروض أن يتوازن مع الورم لا يزال مضغوطا بشدة . كان المولود يقلب قبضتيه المطبقتين بإحكام ، كأنه يود أن يفر من سلته .

همست هيميكو فى صوت خشن قبيح مثير للأعصاب :
- انه لا يشبهك ، عصفور .
- انه لا يشبه أحداً . انه ليس له هيئة البشر !

قال الطبيب فى نبرة عتاب :
- أنا لن أقول ذلك ..

نظر عصفور بسرعة الى المواليد خلف الحاجز الزجاجى حيث كان جميعهم يتلوون فوق أسرتهم فى صياح متشابه . شك عصفور أن يكونوا يثرثرون عن زملائهم الذين يقصونهم عنهم . أى شىء حدث لهذا القرد الصغير التافه مولود الحضانة ذى العينين المتأملتين ؟ وذلك المولود الذى لا كبد له ؟ ترى هل والده المناضل هنا ليشرع فى نضال آخر بنطلونه القصير الواسع وحزامه الجلدى العريض ؟

سألت الممرضة :
- هل انتهت معاملاتك فى المكتب ؟
- انتهى كل شىء .
- إذن يمكنك أن تفعل ما يحلو لك !

وسأل طبيب الأطفال :
- أمتأكد انك لن تغير رأيك ؟

قال عصفور فى تصلب :
- متأكد تماما ، أشكرك على كل شىء .
- لا تشكرنى ، لم أفعل شيئاً .
- حسن اذن ، وداعاً .

احمر وجه الطبيب حول عينيه ، كأنه يأسف لرفع صوته ، وقال فى صوت ناعم .
- وداعاً ، وانتبه لنفسك .

ومشى عصفور فى الممر خارجا من الجناح وأخذ المرضى الذين يتسكعون أمام غرفهم يلتفتون ، وكأنهم متفقون ، ويتقدمون تجاه المولود . مشى عصفور ، محملقاً فى ذهول ، لا ينظر يمينا ولا شمالاً مخفيا السلة بذراعه . واسرعت هيميكو خلفه . وفى انزعاجهم من الغضب المرسوم على وجه عصفور ، أفسح الناقهون لهما المجال للمرور وهم لا يزالون فى

ربيتهم ، لكنهم كانوا مبتسمين للمولود .

قالت هيميكو ، وهى تتطلع خلفها :
ـ عصفور ، يمكن لهذا الطبيب أو أية ممرضة ابلاغ البوليس .

قال عصفور بفظاظة :
ـ سيفعلون . لكن لا تنسى أنهم هم أنفسهم حاولوا قتله بالحليب المخفف وبالماء المحلى !

اقتربا من المدخل الرئيسى الذى كان يبدو لعصفور مثل الجمهرة المضطربة لمرضى العيادة الخارجية . وحاول إخفاء المولود من فضولهم . الكبير بمرفقيه بلاجدوى " فشعر كأنه لاعب رجبى راكض بالكرة نحو هدف يدافع عنه فريق متكامل .

قال لهيميكو :
ـ القلنسوة فى جيبى . خذيها لو سمحت وغطى بها مؤخرة رأسه .

رأى عصفور ذراع هيميكو ترتجف وهى تفعل كما قال . وأسرعا معا مندفعين وسط الأغراب بابتساماتهم المثيرة للأعصاب ، وهمست إحداهن :
ـ كم هو طفل جميل ! مثل الملاك !

لم يضطرب عصفور ولا حتى رفع رأسه الى أن تحرر من الزحام .

كان المطر ينهمر فى الخارج من جديد للمرة الثانية فى اليوم نفسه . ناول عصفور السلة لهيميكو ، ثم صعد الى السيارة وأخذها ثانية . وهو يؤمنها على حجره جيداً ، كان عليه أن ينتصب فى صلابة تمثال لملك من الملوك المصريين القدماء .
ـ كله تمام ؟
ـ نعـم .

قفزت السيارة للأمام تماما كما تفعل عند بدء السباق . خبط عصفور أذنه فى المشبك المعدنى للسطح فكتم نفسه فى ألم .
ـ كم الساعة ، عصفور ؟

نظر عصفور الى ساعة معصمه ،ساندا السلة بيده اليمنى فقط . كانت الساعة واقفة . كان عصفور يرتدى الساعة بحكم العادة لكنه لم يتطلع الى الوقت منذ أيام ، وبالتالى لم يعبئها . انه يعيش خارج الزمن الذى ينظم الحياة الرائعة لهؤلاء الناس غير المبتلين بمولود مسخ .

قــال :

- ساعتى متوقفة .

ضغطت هيميكو زر الراديو . نشرة الأخبار : كان أحد المذيعين يعلق على معاودة التجارب الذرية السوفييتية . وأيدت الرابطة اليابانية المناوئة للحرب النووية القرار الروسى . وغير أن انشقاقات ظهرت فى داخلها . واحتمالا قويا أن ينهار المؤتمر العالمى لمنع الأسلحة النووية النامى فى مستنقع من الشقاق . وأذاعوا تسجيلا لضحايا هيروشيما يحتجون على تصريح الرابطة . هل يوجد حقا سلاح ذرى نظيف ؟ ماذا لو أجريت التجارب السوفييتية فى أراضى سيبيريا القاحلة، هل توجد قنبلة هيدروجينية مسالمة فعلاً ؟ لا تؤذى إنسانا ولا حيوانا ؟!

غيرت هيميكو المحطة . موسيقى راقصة ، تانجو .. لم يكن عصفور يقدر أن يميز بين تانجو وآخر . كان هذا تانجو بلا نهاية . فأطفأت هيميكو الراديو أخيرا ، وقالت :

- يبدو أن الرابطة خافت أن تحتج على التجارب السوفييتية .

قال عصفور :

- يبدو ذلك .

فى عالم يشارك فيه كل هؤلاء الآخرين ، الزمن يمر ، زمن البشرية الواحد والوحيد ، وقدر يخيم فوق العالم ، قدر واحد كان يتخذ شكل الشر . وفى الناحية الأخرى ، كان عصفور مستجيبا فقط للمولود فى السلة التى على حجره ، للمسخ الذى تحكم فى قدره الشخصى .

- عصفور ، هل تصدق وجود أناس يريدون حرباً ذرية ، ليس لأنهم سيستفيدون اقتصاديا من صناعة الأسلحة النووية ، أو قل ، سياسيا ، ولكن لأنهم ببساطة يريدون هذا ؟ أقصد ، مثل ما يعتقد معظم الناس لا

لسبب معين أن هذا الكوكب يجب أن نحافظ عليه ، فلابد أن هناك أناساً ذوى قلوب سوداء يعتقدون بلا ضمير ، أن البشرية يجب أن تباد ، يوجد فى شمال أوربا حيوان مثل الفأر ، يسمونه "لامنج" (وهو من القوارض قصير الذيل) وأحيانا حيوانات اللامنج هذه تنتحر انتحاراً جماعياً . أتساءل إذا كان هناك أناس يشبهون "اللامنج" ؟

ـ أناس "لامنجيون" بقلوب سوداء ؟ يجب أن تضع الأمم المتحدة برنامجا يتعقبهم للنظر فى أمرهم .

على الرغم من أن عصفور لعب طويلا ، فلم يشعر برغبة فى المشاركة فى المسيرة المضادة للناس "اللامنجيين" وذوى القلوب السوداء . فى الحقيقة ، كان واعيا لحضور لامنجى أسود القلب يهمس فى داخله .

قالت هيميكو ، كأنها تقترح تغيير الموضوع :

ـ حر ، أليس كذلك ؟

ـ نعـم .

كانت الحرارة تنبعث من المحرك المستمر فى الاهتزاز الى أعلى عبر التصفيحة المعدنية للأرضية ، ولما كان الغطاء الأسود الذى يمثل السطح مثبتا فالسيارة مغلقة من أعلى ، لذا شرعا فى الشعور تدريجيا بأنهما محبوسان داخل فرن حرارى . لكن من الواضح أن الريح ستهب مع المطر اذا فتحا جزءاً من السطح . ومع ذلك حاول عصفور فتح المزلاج الذى بجانبه ولم ينجح .

قالت هيميكو التى لاحظت يأسه :

ـ ليس هناك ما يمكنك فعله . الأفضل أن نقف برهة ونفتح الباب .

رأى عصفور ، على الطريق أمام السيارة مباشرة ، عصفوراً ميتاً مبللاً بالمطر . ورأته هيميكو أيضاً . اندفعت السيارة فوق العصفور الميت ، وغطس مختفيا عن الأنظار ، وانحرفت بشدة وسقطت إحدى عجلاتها فى حفرة مخفية تحت المياه الموحلة . اصطدمت يدا عصفور فى "التابلوه" ، لكنه لم يترك سلة المولود . فكر عصفور فى حزن : عند وصولنا الى عيادة المجهض ستغطينى الكدمات .

قالت هيميكو ، بعد تلقيها الصدمة هى أيضا :
- أعذرنـى .

وتجنب كلاهما ذكر العصفور الميت .
- لا شيء خطير .

عدل وضع السلة على حجره ونظر الى المولود للمرة الأولى منذ صعد السيارة . كان وجهه يشتعل حمرة غاضبة ، ولم يكن واضحا ان كان يتنفس أم لا . اختناق ! هز عصفور السلة مرتعباً . فتح فمه فجأة كأنه سيعض أصابع عصفور ، وبدأ المولود يصرخ بصوت مرتفع لا يصدق .

واااااء ... واااااء ... وااااء .. استمر المولود يصرخ واهتز فى رقة وانسكبت دمعة شفافة من عينيه المغمضتين باحكام . وبعد أن استعاد عصفور نفسه من ذعره ، تحرك ليغطى بكفه الشفتين الورديتين للمولود الصارخ لكنه استدرك نفسه فى آخر لحظة عندما تدفق ذعر جديد . يـ يـ يـ يـ غوه ... يـ يـ يـ يـ غوه . استمر المولود فى الصياح .. يااااااوه ... يااااااوه ..

قالت هيميكو بصوت يعلو على صوت المولود :
- هناك دائما انطباع بأن صراخ المولود مليء بالمعنى . كل ما نعرفه ، أنه قد يحتوى على كل المعنى لكل كلمات الإنسان .

ولا يزال المولود يصرخ .. و اااغ ..

قال عصفور متضايقاً :
- من حسن الحظ أننا عاجزون عن الفهم .

كانت السيارة تسير ، حاملة معها صرخات المولود . كأنها محملة بخمسة آلاف من حشرة صرار الليل عالية النغمة ، أو كأن عصفور وهيميكو قد اختفيا معا فى جسم حشرة واحدة من حشرات صرار الليل وكانا يصران معه . وأصبح الحر الخانق وصراخ المولود غير محتملين . فأوقفت هيميكو السيارة وفتحا كلا البابين . وزمجر الهواء الساخن الرطب داخل السيارة خارجا مثل تجشؤ عاجز محموم ؛ واندفع للداخل هواء بارد ومعه

المطر . كان عصفور وهيميكو يسبحان عرقا ، والآن ارتجفا من البرد . بل تسللت قطرات ماء الى السلة التى على حجر عصفور ، وتعلقت القطرات على خدى المولود الملتهبين أصغر من الدموع . وأصبح صراخه الآن تتخلله نوبات سعال . كان السعال يبدو غير طبيعى وتساءل عصفور ان كان المولود قد اصيب بمرض تنفسى . وبإمالة السلة بعيدا عن الباب استطاع أخيرا أن يحميها تماما من المطر .

ـ عصفور . من الخطر أن يتعرض المولود لهواء بارد مثل هذا فجأة وهو خارج من حضانة لتوه .. قد يصاب بالتهاب رئوى !

قال عصفور مثقلاً بالتعب :

ـ أعـرف .

ـ إذن ماذا نفعل ؟

ـ ماذا سنفعل ليكف عن البكاء فى وقت كهذا ؟

ـ كان يجب أن نحضر معنا حليباً ، عصفور .

ـ حليب مخفف ؟ أم ماء محلى ؟

كان التعب هو الذى صعد السخرية فيه .

ـ سأذهب الى صيدلية ، قد أجد عندهم "بزازات" .

اندفعت هيميكو تحت المطر . وأخذ عصفور يهز سلة المولود بلا وعى ، مراقبا حبيبته تجرى بحذائها المسطح النعل . لا توجد يابانية فى سنها أفضل تعلماً منها ، لكن هذا التعليم كان مصيره الركن على الرف . ولا فضلا على عدم خبرتها بالحياة اليومية كأى امرأة عادية . ربما لن تنجب أطفالا ليصبحوا أبناء لها . وتذكرها كما كانت فى السنة الأولى بالكلية . أكثر طالبة زاخرة بالحياة فى المجموعة . وخالجه احساس بالشفقة على هيميكو التى كانت تتخبط فى الوحل مثل كلب أخرق .

من يستطيع التخيل أنها كانت ستصبح هكذا ؟

كان عدد من الشاحنات المقفلة تتحرك رامحة مثل قطيع من الديناصورات ، هازة السيارة وعصفور والمولود . واعتقد عصفور أنه سمع نداء فى دمدمة الشاحنات ، كان نداء عاجلاً بالرغم من أن المعنى ليس

واضحاً . لابد أنه وهم ، ولكنه أعاره سمعه برهة .

تمايلت هيميكو فى هبات الريح الممطرة وهى تجاهد عائدة للسيارة ، كان وجهها عابساً فلابد أنها كانت تستشيط غضبا وحدها فى الظلام . لم تعد تركض بعد .. قرأ على كل جسدها تعباً قبيحاً يماثل تعبه . لكن عندما وصلت هيميكو السيارة كانت فى سعادة ، رافعة صوتها على صوت المولود ، الصارخ كما كان من قبل :

- جلبت اثنتين . واحدة عندما يبدأ المولود فى التسنين ، إنها للأكبر سنا . لكن الأخرى ستفى بالغرض ، كما طلب الطبيب .

وأثناء حديثها وضعتها فى فم المولود . وبدأ عصفور يسأل : لماذا اشتريت واحدة للتسنين ؟ ثم رأى أن المولود لا يتجاوب حتى للخاصة بالمواليد الصغار . قالت هيميكو بشكل بائس وبعد فقدان ثقتها :

- لا فائدة منها . أظن أنه لا يزال صغيراً عليها !..

- لكنى لا أعرف طريقة أخرى لتهدئة الأطفال .

قال عصفور وهو يغلق الباب :

- اذن علينا أن نذهب هكذا .. هيا بنا .

انطلقت هيميكو بعد أن شغلت المحرك وقد بدا على وجهها الضجر ، ثم قالت :

- تشير الساعة فى الصيدلية حاليا الى الساعة الرابعة . اعتقد أنه يمكننا الوصول للعيادة حوالى الخامسة .

قال عصفور :

- هل يستطيع أن يبكى الساعة كلها ؟

فى امسة والنصف : انهى المولود نومه لينام لكنهما لم يبلغا مكانهما المقصود بعد . فلمدة خمسين دقيقة وهما يطوفان حول نفس الدائرة . صعدا تلالاً وهبطا وهادا وعبرا نهراً موحلاً عدداً من المرات . وتورطا فى طريق مسدود ليجدا نفسيهما فى أحد المنحدرات الشديدة من الوادى . تذكرت هيميكو أنها جاءت الى العيادة من قبل . وعندما صعدت السيارة الى قمة مرتفع كانت قادرة على أن تحدد المنطقة المجاورة . لكنهما كانا

يهبطان الى تفريعة مزدحمة بمتاهاتها الضيقة . وعندما استدارت أخيرا فى شارع اعتقدت هيميكو أنها تعرفه ، قابلت شاحنة صغيرة رفضت بإباء وشمم أن تسمح لهما بالمرور . فما كان الا أن عادا للخلف عشرات الأمتار وبعدما مرت الشاحنة وحاولا العودة ، وجدا أنهما دخلا ناصية مختلفة . والشارع على الناصية التالية كان باتجاه واحد .

كان عصفور صامتا طوال الوقت ، وكذلك كانت هيميكو . كان كلاهما ساخطاً حتى أنهما فقدا الثقة فى قول أى شىء خوفا من اغاظة أحدهما الآخر . حتى لو ملاحظة بريئة مثل "أنا متأكد أننا مررنا مرتين من هذه الناصية" كانت فى منتهى الخطورة وتفتح مجالا للشجار بينهما . وعبرا عدة مرات أمام البوليس وكان أحد الضباط جالسا داخل مبنى خشبى متداع للسقوط ، وكل مرة كانا يهمسان بجواره خوفا من شد انتباهه . وسؤال البوليس عن مكان العيادة كان مستحيلا . كانا لا يرغبان حتى فى مراجعة العنوان مع أى من صبيان محلات توصيل الطلبات حتى المنازل . سيارة سبور تنقل طفلاً غير طبيعى إلى عيادة ذات سمعة مريبة قد توقظ بعض الشكوك . ثم إن الطبيب حذر هيميكو فى التليفون ألا تتوقف فى المنطقة ولا حتى من أجل سجائر . وهكذا استمرا فى الطواف فى دائرة مفرغة . واستحوذ جنون الشك على عصفور ، لعلهما سيطوفان طوال الليل ولا يصلان للعيادة التى يبحثان عنها ، أو أن العيادة التى يقتلون فيها المواليد غير موجودة من أصله . من جهة ثانية ، كان خائفاً أن يغفو وتسقط السلة من حجره . اذا كان الجلد على ورم المولود ماهو الا (الأم الجافية) : الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى ، فسوف ينفتق على الفور . وسيغوص المولود فى الماء الموحل المتسرب الى أرضية السيارة فيلفظ نهاية حياته .. لكنها ميتة مرعبة . جاهد عصفور أن يظل متيقظا . حتى غاص لحظة فى ظلال اللاوعى حتى استعاد صوت هيميكو المتوسل :
- بحق الله ، عصفور ابق مستيقظا !

كانت السلة تنزلق من فوق حجره ، فيمسكها ، مرتجفا بكلتا يديه .
- أنا غافية مرهقة أيضا وأخاف الاصطدام بشىء ما .

حتى الآن كانت الهالة الفسقية للمساء تتراقص هابطة . وخفت الريح لكن المطر استمر متحولا فى نقاط أخرى الى ضباب يقفل مجال الرؤية . أشعلت هيميكو الأضواء الأمامية ومصباح واحد يضىء . وغيظ حبيبها الصبيانى بدأ يظهر . وعندما اقتربت السيارة من الشجرتين المتماثلتين أمام مركز البوليس ، أشار لهما ضابط ، لعله من شباب الفلاحين أثناء دوريته فى الشارع . وتجمد عصفور وهيميكو حين اقترب من السيارة وانحنى ينظر بداخلها .

- رخصة القيادة من فضلك !

كان يتكلم بصوت سلطوى ليؤثر فيهما . وفى الحقيقة كان فى سن طلاب عصفور فى مدرسة التقوية .

- أرى أن لديك ضوءاً واحداً لا يعمل من أول مرة مررت فيها . وتجاهلت ذلك متعمدا ، لكن استمرار ذلك سيجعلنى مضطرا لايقافك ، فأنت . لا يمكنك السير بهذا الشكل . هذا يؤثر على سلطتنا .

قالت هيميكو فى ثبات :

- طبيعى .

- أهو طفل الذى معكما أم ماذا ؟

يبدو أن طريقة هيميكو أساءت للضابط ، الذى قال :

- من الأفضل أن أطلب منك ترك السيارة هنا وعليك أن تحملى الطفل .

كان وجه المولود شديد الاحمرار ، ويتنفس بصعوبة شديدة من فمه ومن فتحتى أنفه . لمس عصفور جبهته فكانت حارقة ومختلفة عن درجة حرارة الجسم البشرى . وصرخ عصفور رغما عنه .

سأل الشرطى :

- ما الأمـر ؟

قالت هيميكو :

- الطفل مريض ، لهذا قررنا المجىء به رغم الضوء المكسور .. لكننا ضللنا الطريق ولم نعد نعرف ماذا نفعل .

– الى أين تريدين الذهاب ؟ ما اسم الطبيب ؟

ترددت هيميكو لحظة ، ثم اخبرت الشرطى أخيراً باسم العيادة . فأخبرها الضابط أنها ستجدها فى نهاية الشارع الصغير جهة اليسار . ثم قال ، ليؤكد سلطته من جديد :
– لكن مادامت قريبة بهذا الشكل فلن يضركما أن تمشيا الى هناك ، وتتركا السيارة هنا .

مدت هيميكو يدها بحركة هستيرية ورفعت قلنسوة المولود من على رأسه . وكانت ضربة حاسمة للشرطى الشاب ، وقالت :
– يجب ألا يهتز قدر الامكان .

لقد ناضلت هيميكو العدو وتغلبت عليه . وأعاد لها الشرطى رخصتها وقال بغباء وعيناه مازالتا مثبتتين على الورم الذى يعلو رأس المولود :
– يجب أن تأخذى السيارة للاصلاح فوراً بعد انزال الطفل . لكن هذا فظيع !.. هل هذا ما يسمى بالحمى المخية ؟

ودخلا الى الشارع الذى حدده لهما الشرطى . وعندما أوقفت السيارة أمام العيادة قالت هيميكو وقد عاد اليها ثباتها :
– انه لم يأخذ رقم الرخصة ولا اسمى أو أى شىء .. ياله من شرطى غبى !

يبدو أن العيادة مبنية من الألواح الجصية ، حملا سلة المولود الى المدخل . لم يكن يوجد أثر للممرضات ، أو حتى المرضى . انه الرجل صاحب الرأس الذى فى شكل بيضة الذى ظهر لحظة مانادت هيميكو .

تجاهل عصفور تماماً ، وأنب هيميكو بصوت رقيق ، ناظراً داخل سلة المولود كل فترة كأنه يشترى سمكاً من بائع سمك متجول .
– تأخرت ياهيمى . بدأت أعتقد أنك كنت تضحكين علىّ . كان التأثير المسيطر على عصفور أن مدخل العيادة كان متهدماً . قالت هيميكو ببرود :
– لقد ضللنا الطريق ، ووصلنا بصعوبة .
– كنت أخشى أن تقومى بشىء بغيض فى الطريق . هناك أشخاص ،

كما تعرفين ، اذا قرروا أن يتخذوا خطوة فلا يرون أى تميز بين ترك مولود يضعف ويموت وبين خنقه حتى الموت .. أوه عزيزتى . وسأل الطبيب ، رافعا سلة المولود ، وقال بنفس الصوت الرقيق :

ـ هذا الصغير المسكين ! كأنه ليست لديه متاعب كافية غير ذلك ، انه يموت من التهاب الرئة !

تركا السيارة السبور فى جراج واستقلا سيارة أجرة الى بار اللوطى الذى تعرفه هيميكو . كانا متعبين ، مكروبين فى حاجة للنوم ، وفم كل منهما جاف من الاثارة الغريبة ، كل هذا نزع منهما كل رغبة فى العودة وحدهما الى منزل هيميكو .

توقفت سيارة الأجرة أمام قنديل غاز مكتوب عليه اسم : كيكو هيكو بالحروف الزرقاء . دفع عصفور الباب ودخل حجرة ضيقة وفجّة كسقيفة المواشى ، حيث يوجد بار صغير وعند الحائط المقابل كان يوجد طقما كراس لها مساند ظهر عالية بشكل غير مألوف . كان البار خاوياً ، باستثناء شاب قصير يقف فى ركن بعيد خلف البار الخشبى . كان مستدير القسمات لافتا للنظر بشفتى فتاة وعينين معتمتين رخيصتين تتفحصان بحذر ولكنهما لا ترفضانهما . وقف عصفور حيث كان داخل الباب مباشرة ورد له نظرته . وبالتدريج تخللت ذكرى كيكو هيكو الذى كان صديقه غشاوة الابتسامة الغامضة على وجه الرجل .

تكلم الشاب عبر شفتين مزمومتين وعيناه مثبتتان على عصفور :
- معقول ، انها هيمى ، بعينها ! وهذا الرجل أعرفه . منذ سنين طوال لم أره ، أما كانوا يسمونه عصفور ؟

قالت هيميكو :
- يمكننا أن نجلس أولاً .

بدأت تكتشف جوا من الهبوط المفاجىء فى دراما اجتماع الشمل هذا . لم توقظ رؤية كيكو هيكو فى عصفور أى انفعال . كان يتهاوى من التعب ، كان مرهقا ، شبه نائم ولديه انطباع أن لا شىء فى العالم يمكنه أن يحرك شعرة فى رأسه .

ـ ماذا يسمون هذا الرجل الآن ، هيمى ؟
ـ عصفـور .
ـ غير معقول .. حتى الآن ؟ سبع سنوات مضت .

تحرك كيكو هيكو نحو عصفور قائلاً :
ـ ماذا تشرب ، عصفور ؟
ـ ويسكى ، من فضلك .
ـ وهيمـى ؟
ـ نفس الشىء .
ـ يبدو عليكما الارهاق ، مع أننا فى وقت مبكر من الليل !

قالت هيميكو :
ـ ليس لهذا علاقة بالجنس .. قضينا نصف النهار نطوف بالسيارة فى دوائر لا تنتهى .

مد عصفور يده نحو كأسه الذى صبه كيكو هيكو له ، شاعراً بشىء منقبض فى صدره ، فتردد .
كيكو هيكو .. لا يمكن أن يكون أكثر من اثنين وعشرين سنة ومع ذلك يبدو أكبر منى بشكل هائل . ومن ناحية أخرى ، لا يزال يحتفظ بما كان عليه فى الخامسة عشرة .. كيكو هيكو ، جمع بين عصرين كالبرمائى الجامع بين البر والماء .

كان كيكو هيكو يشرب ويسكى أيضا . فصب لنفسه كأسا أخرى ، ولهيميكو كذلك التى أفرغت كأسها الاولى دفعة واحدة . وجد عصفور نفسه يراقب كيكو هيكو وكيكو هيكو ينظر بالتالى لعصفور وتقوست أعصاب بدنه مثل ظهر القط المهدد . وأخيرا استدار نحو عصفور وقال :
ـ هل تذكرنى ؟
ـ طبعـاً .

غريب ، كان لديه انطباع أكثر بأنه يتحدث مع صاحب بار للشواذ أكثر من كونه يتحدث مع صديق لم يره منذ سنين .

- إنها سنون طوال ، أليس كذلك ، عصفور ؟ منذ ذلك اليوم الذى ذهبنا فيه الى البلدة المجاورة ورأينا أحد الجنود يطل من نافذة قطار والجزء السفلى من وجهه مصاب .

قال هيميكو :

- ما كل هذا الذى تقولانه ؟

- قال كيكو هيكو ، وعيناه تحومان حول عصفور بوقاحة :

- كان ذلك اثناء الحرب الكورية وهؤلاء الصبية الرائعون الذين جرحوا جميعهم فى القتال وكانوا يعيدونهم بالبحر الى قواعدهم فى اليابان . قطارات كاملة محملة بهم ، فرأينا أحد هذه القطارات فى حد الأيام . عصفور ، هل تعتقد أنهم كانوا يمرون علينا طوال الوقت ؟

- لا ، ليس طوال الوقت .

- كنت تسمعين قصصا كثيرة عن تجار عبيد "نخاسين" يمسكون طلاب المدارس الثانوية اليابانيين ويبيعونهم كجنود ، وكانت هناك شائعات بأن الحكومة كانت ستشحننا الى كوريا .. كنت مرعوبا فى تلك الأيام .

طبعا ! كان كيكو هيكو يشعر بهلع رهيب . ففى الليلة التى تشاجرا وانفصلا فيها ، صاح قائلا :

- عصفور ، أنا خائف !

فكر عصفور فى مولوده وأكد لنفسه أنه لا يزال غير قادر على الخوف . فشعر بارتياح ، ارتياح هش مشكوك فيه ، قال محاولا تغيير مسار وعيه عن مولوده :

- كانت تلك الشائعات لا معنى لها بالتأكيد .

- هكذا يقولون ، لكنى اقترفت كل أنواع الموبقات على حساب شائعات كهذه . ويذكرنى هذا ، عصفور لأسألك ، هل وجدت صعوبة فى الامساك بذلك المجنون الذى كنا نطارده ؟

- حين وجدته كان ميتاً ، شنق نفسه .. ارهقت نفسى بلاجدوى .

عاد طعم الأسف القديم لطرف لسان عصفور .

- وجدناه عند الفجر ، الكلاب وأنا . تتكلم عن شىء لا معنى له !

ـ لا أقول ذلك . فأنت تابعت المطاردة حتى الفجر ، وكففت أنا عن ذلك وركضت فى وسط الليل واختلفت حياتنا كلية منذ ذلك الحين . لم تعد تختلط بى وبأمثالى والتحقت بالكلية فى طوكيو ، اليس كذلك ؟ تابعت أنا الانحدار منذ تلك الليلة وانظر إلى الآن .. آكل وأشرب .. ومرتاح فى هذا البار الصغير . عصفور ، لو لم تمض وحدك تلك الليلة أتصور أنى كنت فى طريق مختلف الآن .

سألت هيميكو بجرأة :

ـ تقصد لو لم يتركك عصفور تلك الليلة ما كنت أصبحت لوطياً ؟

أدار عصفور نظره متضايقاً ، لكن كيكو هيكو أجاب بصوت هادىء :

ـ اللوطى هو شخص اختار أن يحب واحدا من جنسه . وأنا أخذت هذا القرار بنفسى . لذا فالمسئولية تقع على أنا .

قالت هيميكو :

ـ أرى أنك قرأت الوجوديين .

ـ عندما تديرين باراً للوطيين ، عليك ياعزيزتى ان تعرفى الى أين تروم كل الأشياء !

وأخذ يغنى : الى أين تروم كل الأشياء .. كأنها جزء من نشيده المهنى ، ثم عاد الى عصفور وقال فى صوته الطبيعى :

ـ أنا واثق أنك لم تكف عن الصعود بينما أنا كنت أغرق . ماذا تفعل حاليا ؟

قال عصفور :

ـ كنت مدرسا فى مدرسة تقوية ، لكن تغير الوضع ، وفصلت من عطلة الصيف التالية .. "صعود" تعبير لا أستطيع أن أستعمله . وهذا ليس كل شىء ؛ انه كفاح قدرى غريب وراء آخر .

ـ الآن ، مادمت ذكرت ذلك ، فعصفور الذى عرفته ابن العشرين لم يكن هذا الحزين المكتئب أبداً . كأن شيئا قد أفزعك بشكل رهيب وانت تحاول الهرب منه .

أن المتكلم الآن هو كيكو هيكو اليقظ والداهية لا الساذج الرقيق الذى كان يعرفه عصفور . ان حياة الوحل والانحطاط التى عاشها صديقه لا يمكن أن تكون سهلة أو بسيطة .

اعترف عصفور قائلا :

ـ معك حق . أنا ضائع وخائف وأحاول أن أهرب .

قال كيكو هيكو لهيميكو :

ـ عندما عرفت هذا الشخص فى العشرين كان محصناً ضد الخوف . لم أره خائفا من أى شىء مطلقا .

ثم التفت لعصفور ، قائلا باستفزاز :

ـ لكنك الليلة تبدو مفرط الحساسية بالخوف . وكأن خوفك يجعلك لا تدرى الى أين يتجه تفكيرك .

قال عصفور :

ـ لم أعد ابن العشرين .

تجمد وجه كيكو هيكو فوق قمة اللامبالاة الباردة وهو يقول :

ـ المهرة الشهباء العجوز لم تعد كما كانت .

وانتقل بعدها فجأة الى جانب هيميكو .

شرع الاثنان فى لعب النرد ، تاركين عصفور على حريته .

رفع كأس الويسكى بعد احساسه بالارتياح . هكذا إذن بعد سبع سنوات من الفراق ، كانت سبع دقائق فقط من تبادل الحديث كافية لازالة كل ما يستحق من فضولهما المتبادل .. لا ، لم أعد فى العشرين . ومن بين كل ما كنت أملكه حينذاك لم أنجح فى الاحتفاظ الا بهذه التسمية الطفولية .. عصفور . وازدرد كأسه الاولى فيما يسمى بيومه الطويل . وفى ثوان تحرك داخله شىء قوى وعملاق فى ترهل وبلادة . فالويسكى الذى أفرغه فى معدته حالا تقيأه عصفور بلا مجهود . مسح كيكو هيكو المكان بسرعة ووضع كوبا من الماء ؛.ونظر عصفور فى المكان ببلاهة . ما الذى

يحاول أن يحتمى منه هذا الطفل المسخ ويهرب بهذه الصرامة وبهذه الصفاقة ؟ وما الذى لديه فى نفسه ، يستحق أن يدافع عنه بهذا السعار ؟ بدا له الجواب بوضوح مروع .. لا شىء ! صفر !

رفع عصفور نفسه من الكرسى المرتفع الذى كان غاطسا فيه وأنزل قدمه الى الأرض وقال لهيميكو التى كانت تستجوبه بعينين مرتخيتين من التعب ومن دوار الشرب المفاجىء وقال :

ـ سأعيد المولود الى المستشفى الجامعى وأجرى له العملية . اوقف الاندفاع نحو كل مخرج .

قالت هيميكو متشككة :

ـ عصفور ! ماذا حدث لك ! ياله من وقت مناسب لتشرع فى الحديث عن عملية جراحية !

قال عصفور بيقين :

ـ منذ ولد ابنى لم أكف عن الهرب .

ـ لكنك تركت المولود ليقتل بين لحظة وأخرى ، مدنساً يديك ومعهما يداى . كيف تسمى هذا هروبا ؟ علاوة على أننا سنسافر الى أفريقيا معا !

قال معانداً :

ـ تركت المولود مع ذلك المجهض ثم هربت . فررت الى هنا . فررت طوال الوقت ، راكضا .. راكضا ، وتصورت أفريقيا فى نهاية كل هرب ، النقطة النهائية ، نهاية الخط .. تعرفى ، وأنت أيضا تهربين . لست سوى فتاة كباريه تهرب مع مختلس .

صرخت هيميكو وهى على حافة نوبة عصبية :

ـ أنا مشتركة ، عصفور ، ملطخة يدى مع يديك . ألم تقل إنى أهرب !

ـ هل نسيت أنك نزلت بالسيارة فى حفرة اليوم خشية أن تدوسى على عصفور ميت ؟ هل هذا هو ما يفعله شخص مقدم على قطع رقبة مولود ؟

احمر وجه هيميكو المرهق ، ثم أصبح داكنا من الغضب واليأس .

وحملقت فى عصفور وهى ترتجف من الغيظ .. كانت تحاول أن تخطئه ولم تجد صوتها .

قال عصفور :

– إذا أردت أن أواجه هذا المسخ بشرف بدلاً من الفرار منه ، فلدى اختياران فقط : إما أن أخنق المولود بيدى ، أو أقبله واتعهده . الحقيقة أنى أدركت هذا منذ البدء ، ولكن لم تكن عندى الشجاعة لقبوله ..

قاطعته هيميكو ملوحة بأصابعها فى تهديد :

– لكن ، هذا المولود مصاب بالتهاب الرئة ! اذا حاولت أن تعيده الى المستشفى الآن سيموت داخل السيارة فى الطريق . وماذا سيحدث حينئذ ؟ سيقبضون عليك . هذا ما سيحدث !

– اذا حدث هذا ، يعنى أنى قتلته بيدى . وأستحق ما يقع على . أعتقد أنى مستعد لتحمل المسئولية .

تكلم عصفور بهدوء . وشعر أنه يتملص من الفخ النهائى للخداع ، وأنه يستعيد ايمانه بنفسه .

نظرت هيميكو الى عصفور والدموع تتجمع فى عينيها ؛ بدت أنها تبحث بتهور عن هجوم نفسى جديد ، وعندما ظهرت لها أخيراً خطة استراتيجية قفزت عليها قائلة :

– لنفرض أنهم أجروا له عملية وأنقذوا حياته ؟ ماذا سيكون لديك عندئذ ؟ قلت لى بنفسك إن ابنك لن يكون أكثر من خضار ! ألا ترى أنك لن تخلق شقاءك أنت وحدك ، بل إن حياة إنسان لاتعنى شيئا لهذا العالم ! هل تظن ذلك لصالح المولود ؟
أتظن هذا ، عصفور ؟

قال عصفور :

– إنما أفعل هذا لنفسى . إنه الأمل الوحيد لئلا أظل رجلاً هارباً بلا انقطاع .

لكن ظلت هيميكو ترفض أن تفهم .. فحملقت فى عصفور بلا ثقة وهى لا

تزال تتحداه وجاهدت أن تبتسم رغم الدموع المحتبسة فى عينيها ، وقالت ساخرة :

– اذن ستتعامل كرجل مع مولود له مواصفات الخضار حتى يظل حياً .. عصفور ! هل هذا جزء من فلسفتك الإنسانية الجديدة .

– كل ما أريده هو الاقلاع عن كونى رجلا يهرب بلا انقطاع من مسئولياته .

قالت هيميكو فى نشيج :

– لكن .. عصفور .. ماذا عن قرارنا بالذهاب الى أفريقيا ؟ ماذا عن وعدك .

– بحق السماء ، هيمى ، تمالكى نفسك ! حين يبدأ عصفور التفكير فى نفسه ، فلن يسمعك مهما علا صياحك .

رأى عصفور فى عينى كيكو هيكو شيئاً يلمع قريبا من الحقد الفج ، لكن ايعازه لهيميكو كان ما تنتظره هى .. وعادت فجأة هيميكو التى رحبت بعصفور مع زجاجته الـ "جونى واكر" ، الفتاة الناضجة التى لم تعد صغيرة ، الكريمة بلا حدود .. هيميكو الرقيقة الصافية ! .

قالـت :

– وهو كذلك ، عصفور . لا داعى أن تأتى . سأبيع المنزل وأذهب الى أفريقيا على أية حال . سوف آخذ ذلك الصبى الذى سرق اطار السيارة بسبب غيرته . الآن بعد أن فكرت فى الأمر ، أعتبر نفسى ظلمته كثيراً .

وحبست دموعها ، لكنها استعادت ثباتها وتغلبت على عصبيتها الهوجاء .

فقال كيكو هيكو فجأة :

– آنسة هيمى تمالكت نفسها .

قال عصفور ببساطة لكليهما :

– شكـراً .

قالت هيميكو بنبرة التشجيع :

ـ ستتخطى كل صنوف الألم . وداعاً عصفور . انتبه جيدا لنفسك .
امتثل عصفور بإيماءة من رأسه وخرج من البار .

سابقت سيارة الأجرة الريح فى الشوارع المبتلة بسرعة رهيبة . اذا مت فى حادث الآن قبل أن أنقذ مولودى ، أكون عشت سبعاً وعشرين سنة بلا معنى .. ملأه هذا بإحساس بالخوف أكثر عمقا من كل المخاوف التى كابدها حتى الآن .

★★★

انها نهاية الخريف . عندما نزل عصفور السلم بعد ما ودع الجراح ، واستقبله حماه وحماته بابتسامة أمام جناح العناية المركزة ؛ وزوجته واقفة بينهما والمولود بين ذراعيها .

قال حماه :
ـ تهانينا عصفور . أتعرف أنه يشبهك ؟

قال عصفور فى تحفظ :
ـ قليـلا .

بعد اسبوع من العملية كان المولود قد اتخذ هيئة بشرية إلى حد كبير ؛ وفى الأسبوع الذى يلاه بدأ يشبه عصفور .

قال عصفور :
ـ ذلك العيب فى جمجمة المولود أصبح بضعة ملليمترات ويبدو أنه فى سبيله للالتئام الآن . سأريكم عندما تصل المنزل . فلقد تسلمت صور الأشعة . واتضح أن المخ لم يكن ناتئاً من الجمجمة ؛ لذا لم يكن فتقا فى المخ على كل حال ، مجرد ورم حميد . عبارة عن نواتين صلبتين فى بياض كرتى "البنج بونج" فى ذلك الورم واجتثوهما .

قل البروفسير الذى كان ينتظر وقفة فى حديث عصفور المنهمر :
ـ هذه الأسرة مدينة لك بالكثير .

قالت حماته المليئة بالمرح فى محاولة دعابة منها نادرة :

ـ قدم عصفور كثيراً من دمه لعمليات نقل الدم كلها أثناء العملية الجراحية فأصبح أصفر مثل أميرة بعد لقائها مع دراكولا .. حقيقة عصفور ، كنت شجاعا شديد المراس كأسد فتى .

رقد المولود فى سكون هادىء ينظر للكبار بعينين لا تميزان بعد ، خائفا من التغير المفاجىء فى البيئة . وبعدما توقفت حماته عن القرقرة والهدهدة فوق المولود ، مشى عصفور والبروفسير وهما يتحدثان :

قال البروفسير :

ـ هذه المرة عرفت فعلاً أن تواجه المشكلة .

ـ الحقيقة ، اننى لم أكف عن محاولة الهرب ، وبالكاد فعلت ما فعلت . لكن يبدو أن الواقع يرغمك على أن تحيا بشكل صحيح عندما تعيش عالم الواقع .. أقصد ، حتى لو سعيت أن تقع تحت طائلة الخداع ، تجد فى مكان ما على طول الخط أن اختيارك الوحيد هو أن تتجنبه .

اندهش عصفور للامتعاض الأخرس فى صوته ، وأضاف :

ـ هذا ما اكتشفته على الأقل .

ـ لكن يمكن العيش فى عالم الواقع بطرق مختلفة ، عصفور . هناك أناس ينتقلون كالضفدع من خدعة لأخرى حتى يوم وفاتهم .

رأى عصفور بعينين شبه مغمضتين من جديد السفينة التى ابحرت الى زنجبار قبل بضعة أيام وعلى متنها هيميكو . تصور نفسه ، وقد قتل الطفل ، واقفاً الى جانبها ، مكان ذلك الرجل غير الناضج .. مشهد من الجحيم مغر للغاية . وربما كان أيضا عالما آخر من عوالم هيميكو . فتح عصفور عينيه ، عائداً الى المشاكل التى فى العالم الذى اختار أن يبقى فيه ، وقال :

ـ هناك احتمال أن المولود ينمو طبيعيا . لكن هناك خطرا مماثلا أنه سينمو بدرجة متدنية من الذكاء . هذا يعنى أن على أن أدخر قدر ما استطيع لمستقبله ومستقبلنا . طبعاً لن أطلب منك مساعدتى فى العثور على وظيفة أخرى بعد ما اقترفته من حماقة فى الوظيفة التى فقدتها .. أفكر أن أصبح دليلا للسياح الأجانب . لطالما حلمت بفانتازيا الذهاب الى افريقيا وأصبح دليلا محلياً . لذا سأعكس الحلم : سأصبح أنا الدليل

المحلى للأجانب الذين يأتون إلى اليابان .

شرع البروفسير فى قول شىء ما عندما ارغما على افساح المرور لشاب ذراعه معلقة فى رباط بشكل مبالغ فيه يتجه به رفاقه الى نهاية الممر . مرق الصبية متجاهلين عصفور وحماه . كانوا جميعهم يرتدون سترات رثة متسخة تبدو خفيفة على طقس هذا الوقت من العام . رأى عصفور السترات التنينية المطرزة على ظهورهم فأدرك أنهم الزمرة التى تعارك معها تلك الليلة فى بداية الصيف حين ولادة ابنه .

قـال :

- أعرف هؤلاء الصبية ، لكن يبدو أنهم لم ينتبهوا لى .
- هذا لأنك تغيرت وأصبحت شخصا آخر تقريبا فى بضعة أسابيع .
- معقـول ؟

كان صوت البروفسير دافئا بعاطفة المصاهرة وهو يقول :
- طبعا تغيرت . والتسمية الصبيانية "عصفور" لم تعد تناسبك بعد ذلك .

انتظر عصفور لتلحق بهما السيدتان وحملق فى ابنه فى مهده بحضن زوجته . حاول أن يعكس وجهه فى مقلتى المولود . كانت مرآة عينيه رمادية عميقة صافية ، وبالفعل بدأت تعكس صورته ، غير أنها كانت باهتة لدرجة أنه لم يتعرف على وجهه الجديد . وفور دخوله البيت القى نظرة فى المرآة . ثم بحث عن القاموس الذى أهداه له الاستاذ ديلشيف قبل ان تعيده مفوضيته الى وطنه . كان الاستاذ ديلشيف كتب على الغلاف الداخلى بلغته كلمة "الأمل" . ونوى عصفور أن يبحث عن "الصبر" .

رقم الايداع : ١٠٨٢٠ / ١٩٩٤
I · S · B · N
977 - 07 - 0365 - 6



أوى كينزابورو

- مولود فى يناير عام ١٩٣٥ فى قرية بجزيرة شيكوكو اليابانية .
- درس الأدب الفرنسى بجامعة طوكيو . وبدا حياته الادبية فى سن مبكرة .
- نشر مجموعة ممن الروايات والمجموعات القصصية منها "عمل غريب" ، ١٩٥٧ و "الصرخة الصامتة" ١٩٦٧ ، و "النساء يستمعن الى شجرة المطر" ١٩٨٢ وله ثلاثية لم تكتمل تحت عنوان "الشجرة الخضراء المتوهجة" ..
- حصد مجموعة كبيرة من الجوائز الادبية المحلية والعالمية ، منها جائزة مونديللو الايطالية ، و "اكوتاجاوا" اليابانية وجائزة الوحدة الاوربية . ثم جائزة نوبل .
- ولد ابنه "هيكارى" معاقا . علم ١٩٦٣ . وقد استوحى احداث هذه التجربة فى رواية "هموم شخصية" وقد اصبح هيكارى ، موسيقيا شهيراً رغم اعاقته .

هذه الرواية

اعتادت روايات الهلال ان تتابع الاحداث الادبية الكبرى فى العالم ، والعمل على اصدار الروايات الفائزة بالجوائز العالمية عقب اعلانها بوقت قصير ، خاصة جائزة نوبل ، ويقوم بترجمتها صفوة المترجمين .

وهكذا ولدت رواية "هموم شخصية" التى جصل كاتبها اوى كينزابورو على جائزة نوبل لعام ١٩٩٤ ، كى يطالعها القارىء العربى باعتبارها واحدة من أجمل ماكتب اوى فى حياته .

وهل هناك اجمل واصدق من ان يكتب اديب موهوب عن تجربته الخاصة ؟ انها تجربة مريرة ، ولكن الكاتب استطاع ان يحولها الى عمل ابداعى رائع ، فقد دفع الكاتب فى ابنه التجربة البشعة بالقاء القنابل الذرية فوق المدن اليابانية .

ونحن ننشر هذه الرواية بمناسبة فوز اوى بجائزة نوبل ، وايضا للمشاركة فى الاحتفالات العالمية بمرور نصف قرن على القاء القنابل الذرية على اليابان . فالآداب العظيمة تتولد من أحداث جسام .